الرعب الذي أحدثه الغزو المغولي

الدكتور عبد المنعم رشاد

على كثرة ما يحدثنا به التاريخ عن الغزاة العديدين والفاتحين العظام فانه لا يذكر امة غازية اثارت الرعب والخوف في جميع انحاء العالم المعروف آنذاك ما اثاره المغول في زحفهم السريع الذي اكتسح بفترة وجيزة من الزمن معظم آسيا واجزاء من اوربا الشرقية . والمقالة التالية . في حقيقتها . ما هي الا عرض موجز لهذا الرعب والخوف الذي هيمن على نفوس الناس – آنذاك – ممثلا بما دونه المؤرخون المعاصرون لاحداث هذا الغزو وكذلك المؤرخون الذين اتوا بعده .

لم يقتصر هذا الرعب الذي اثاره المغول على العالم الاسلامي فحسب حيث ابتلعوا معظم اجزائه في آسيا وحطموا واحتلوا اكبر مدنه وعواصمه . بل تعدى ذلك الى اوربا الغربية . ناهيك عن الشرقية حيث وصلوا بغزواتهم وتخريبهم المجر وبولندا .

ولسنا . هنا . بصدد تاريخ الغزو المغولي اذ انه قد بحث بتفصيل في مجلدات عدة ولكننا سنعالج اساليب الغزو المغولي للبلاد الاسلامية في اواسط آسيا لنرى ما سبب رعب الناس منهم . وهل ان لهذا الرعب ما يبرره ام انه كان فقط رعباً نابعاً من اذهان المؤرخين الذين دونوا الاحداث . ودونوا اخبار هذا الخوف والرعب ؟

كانت القبائل المغولية قبائل رعوية استطاع تموجين – الملقب بجنكيز خان «١» – توحيدها عام ١٢٠٦ م بعد ان تم انتصاره على زعماء هذه القبائل ولقب

«١» انظر حياة جنكيز خان في كتاب :

Ralph Fox, Genghis Khan, London, 1936.

جنكيزخان محرف من الكلمة الصينية «شنك سز» ومعناها : ابن السماء وبعد ان تم له هذا التوحيد وجه قواه الى محاربة الامبراطورية الصينية عام ١٢١١ واستطاع ان يقضي عليها ويحتل بكين في عام ١٢١٥م . وقد ارتكب كثيراً من الفظائع والمجازر في الصين . وخاصة ما ارتكبه في العاصمة حيث يقال ان ٦٠.٠٠٠ فتاة رمين انفسهن من اسوار العاصمة حتى لا يقعن اسرى في ايدي الغزاة «٢» . وفي الوقت الذي كان فيه جنكيزخان مقيماً في العاصمة الصينية وصله وفد ارسله السلطان محمد خوارزمشاه للتفاوض مع المغول وكان ملحقاً بالوفد تجار مسلمون وقد اساء احدهم في طلب اثمان عالية لبضائعه مما اثار حفيظة الخان فأهانهم ثم ارجعهم الى بلادهم بسلام . الا ان الوفد جلب معه اخبار الفظائع التي ارتكبها المغول في الصين . وفي عام ١٢١٦ عاد جنكيزخان الى منغوليا؛ وردا على هذا الوفد الذي ارسله السلطان محمد خوارزمشاه للاطلاع على احوال المغول والتجسس عليهم ارسل جنكيزخان وفداً الى السلطان ومع الوفد تجار . وكان الوفد يحمل كثيراً من الهدايا للسلطان . وفي عام ١٢١٨م استقبل خوارزمشاه الوفد وبعد مباحثات قصيرة وافق السلطان على عقد معاهدة صلح مع المغول وقد سر جنكيزخان من هذه المعاهدة «٣» الا ان سروره كان قصير الامد اذ سرعان ما حدثت فاجعة اترار في نفس العام . فقد ارسل المغول الى الغرب قافلة تجارية مكونة من ٤٥٠ رجلا ومعهم ٥٠٠ جمل محملة بالبضائع الثمينة وقد حجزت هذه القافلة في مدينة اترار من حاكم المدينة اينالجك –الملقب غايرخان– ويقال: ان السلطان محمد هو الذي امر بحجز القافلة دون استشارة احد فأمر الحاكم بذبح جميع رجال القافلة ومصادرة اموالهم وباعها الى تجار بخارى وسمرقند «٤» .

«٢» انظر : W. Barthold, Turkestan Down to the Mongol Invasion, London 1958 P. 394

«٣» Barthold, PP. 396 ff. انظر كذلك النسوى ، سيرة السلطان جلال الدين منكوبرني ص ٥٩ — ٦٠ ، تحقيق هوداس ، باريس ١٨٩١ .

«٤» Barthold ، PP.398-9 .

وعندما بلغت اخبار هذه الفاجعة مسامع جنكيزخان استاء منها جداً الا انه اظهر سيطرة على اعصابه . فأرسل رسولا يطلب من خوارزمشاه ان يسلمه اينالجك لما قام به من عمل عدواني ضد الخان وضد المعاهدة القائمة بينهما الا ان خوارزمشاه رفض ذلك وقام بعمل زاد في تأزم الوضع . فقد امر بقتل رسول الخان وحلق لحى الوفد المرافق له . وهكذا اصبحت الحرب بين الامبراطوريتين – المغولية والخوارزمشاهية – امراً لا مفر منه .

وقد قام جنكيزخان بتهيئة اسباب الحرب فجمع جيشاً ضخماً لمهاجمة خوارزمشاه . وبدأ هجومه على مدينة اترار عام ٦١٧ هـ / ١٢٢٠م وبعد حصار دام ما يقرب من ستة اشهر احتلها وانتقم منها انتقاماً هائلا ثم توغل في امبراطورية الخوارزمشاهيين . واحتل بخارى وسمرقند وعبر نهر سيحون واحتل نيسابور . واستطاع جنكيزخان . بفترة وجيزة لا تزيد عن السنة ان يقضي على امبراطورية محمد خوارزمشاه وان يحتلها ويضعها تحت حكمه «٥» . وقد مات السلطان محمد في اواخر عام ٦١٧ هـ شريداً في جزيرة ابكسون . وهي جزيرة صغيرة في بحر قزوين كان قد التجأ اليها هرباً من تتبع جيوش المغول له «٦» . وقد ارتعب العالم الاسلامي من هذا الذي بدأه جنكيزخان على حدود بلاد الاسلام والفظائع التي ارتكبها في مدن بخارى وسمرقند . . . الخ .

نعم . لقد كان الرعب والتشاؤم والخوف مبرر قوي . وخاصة بعد ان بدأ المغول بالاستيلاء على بلاد الاسلام . اذ انها المرة الاولى في تاريخ الاسلام التي سيطر على المسلمين فيها حكام وسادة لا يدينون بالاسلام او بأي دين سماوي اخر .

«٥» Barthold, PP. 403. ff. . ابن الاثير ج ١٢ ص ٢٣٤ ، ط Derenbelg . وانظر سبط ابن الجوزي ج ٨ ص ٤٠١ ، ط Jewett .

«٦» Barthold, PP. 426. . رشيد الدين ، جامع التواريخ ج ٢ ق ١ ص ٢٧٦ الترجمة العربية . وانظر ابن الاثير ج ١٢ ص ٢٤٥ — ٦

فقد سمت العامة سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩ – ١٢٢٠ اي السنة التي بدأ فيها المغول بالهجوم على العالم الاسلامي : السنة المشؤومة «٧» . ويقول ابو الفداء عن هذه السنة :

« ولم ينكب المسلمون بأعظم مما نكبوا في هذه السنة . فمن ذلك ما كان من تمكن الفرنج من ملك دمياط وقتلهم واسرهم. ومنه المصيبة الكبرى وهو ظهور التتر وتملكهم في المدة القريبة اكثر بلاد الاسلام وسفك دمائهم وسبي حريمهم وذراريهم . ولم يفجع المسلمون . منذ ظهور الاسلام . بمثل هذه الفجيعة «٨».

اما تفجع ابن الاثير المعاصر لهذه الاحداث فقد وصل القمة من حيث البلاغة ووصف شعور المسلمين من هذا الخطب الجلل . فقد ذكر كثيراً من المآسي والفظائع التي ارتكبها المغول بحق المسلمين والتي ادت الى خلق موجة من الرعب بين المسلمين لا يمكن تصورها . فيقول :

« لقد بقيت سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استفظاعاً لها . كارهاً لذكرها فأنا اقدم اليه رجلا واؤخر اخرى، فمن الذي يسهل عليه ان يكتب نعي الاسلام والمسلمين ؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ؟ فيا ليت امي لم تلدني ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسيا . الى ان حثني جماعة الاصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ثم رأيت ان ترك ذلك لا يجدي نفعاً فنقول: هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الايام والليالي عن مثلها عمت الخلائق وخصت المسلمين . فلو قال قائل : ان العالم مذ خلق الله - سبحانه وتعالى - ادم الى الان لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً . فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها ومن اعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر ببني اسرائيل من القتل والتخريب للبيت المقدس . وما البيت المقدس بالنسبة الى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها

«٧» المنشيء النسوى ص ٩ .

«٨» ابو الفداء ، مختصر تاريخ البشر ج ٣ ص ١٢٩ . ط . القسطنطينية ١٢٨٦ هـ .

اضعاف البيت المقدس و ما بنو اسرائيل بالنسبة الى من قتلوا ؟ فان اهل مدينة واحدة ممن قتلوا اكثر من بني اسرائيل ولعل الخلق لا يرى مثل هذه الحادثة الى ان ينقرض العالم وتفنى الدنيا الا ياجوج وما جوج واما الدجال فانه يبقى على من اتبعه ويهلك من خالفه وهؤلاء لم يبقوا على احد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الاجنة فانا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم لهذه الحادثة التي استطار شررها وعم ضررها وسادت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح » ... الخ « ٩ »

ثم يتكلم ابن الاثير عن سرعة تقدمهم وفتحهم للبلاد فيقول : « ... وهؤلاء قد ملكوا اكثر المعمور من الارض واحسنه واكثره عمارة واهلا واعدل اهل الارض اخلاقا وسيرة في نحو سنة ولم يبت احد من البلاد التي لم يطرقوها الا وهو خائف يتوقعهم ويرقب وصولهم اليه ... » « ١٠ » .

اما الموفق عبد اللطيف البغدادي فيقول عن خبر خروج المغول : « ... وهو حديث يأكل الاحاديث وخبر يطوى الاخبار وتاريخ ينسي التواريخ ونازلة تصغر كل نازلة وفادحة تطبق الارض وتملؤها ما بين الطول والعرض ... » « ١١ » .

وقد اتبع المغول اساليب جديدة لم يعهدها المسلمون من قبل في حروبهم . كما انهم مارسوا القوة باجلى مظاهرها والعنف الشديد في فتوحاتهم . فلم يكونوا ليحترموا عهدا يقطعونه على انفسهم . كما ان جميع اساليب اظهار الخضوع من المقهورين ما كانت لتجدى نفعا لدى هؤلاء القساة . فكم من مدينة اعطوا اهلها الامان على ارواحهم ثم نكلوا بهم وابادوهم . والامثلة التالية تظهر مدى قسوة هؤلاء القوم في عهد جنكيزخان او فيما تلاه من عهود الغزو المغولي .

في ٦١٧ هـ/ ١٢٢٠م اوائل المحرم . عندما حاصر جنكيزخان مدينة بخارى

« ٩ » ابن الاثير . الكامل ج ١٢ ص ٢٣٣ – ٤ . ط . ليدن .

« ١٠ » المصدر السابق ج ١٢ ص ٣٣٥ .

« ١١ » الذهبي ، تاريخ الاسلام ج ١٨ الورقة ٢٢٣ – : من مخطوطة أيا صوفيا رقم ٣٠١١ .

وطال الحصار وجد الجيش الخوارزمي ان لا طاقة له بمقابلة جنكيزخان هربوا ليلا الا ان المغول ادركوهم وقتلوا جميع العسكر اما المدينة فلما خلت من الجند تفاوض اهلها وتضرعوا الى الخان ان يحقن دماءهم وقد وافق على ذلك بعد ان سلب الاهالي جميع ما يملكون ثم امر بحرق المدينة عن بكرة ابيها ففعل جنده وتشتت اهلها في جميع انحاء خراسان «١٢» .

ثم رحل عنها الى سمرقند في ربيع الاول من نفس السنة وحاصرها الا ان الجند قاوم الحصار بقوة ثم اجتمعت الاراء على مفاوضة المغول في الصلح فخرج قاضي البلد مع شيخ الاسلام للمفاوضة فاستقبلهم جنكيزخان ووافق على ان تفتح البلاد ابوابها الا انه رفض ان يؤمن الناس بل اعطى الامان للقاضي ولشيخ الاسلام ولمن يلوذ بهما من الناس . ولما فتحت البلد ابوابها دخلها المغول واخذوا يخرجون الناس ليلا مائة مائة ثم يقتلونهم خارج البلد الى الصباح وقد لاذ ٥٠ الفا من الناس بالقاضي وشيخ الاسلام فنجوا اما باقي السكان فقد قتلوا . وقد بلغ عدد القتلى حوالي ٦٠ الفا معظمهم من الشيوخ والاطفال «١٣»

ثم سار جنكيزخان الى مدينة خوارزم وهي عاصمة الخوارزمشاهية وحاصرها وفتحها . وكانت مقاومة اهلها عنيفة الى النهاية ولكن لم تجدهم نفعا بسبب كثرة المغول وضعف القوة المدافعة . فلما ملكها المغول احرقوا معظمها ثم اخرجوا سكانها جميعا وعزلوا الصناع والمحترفين ناحية وكان عددهم مائة الف ثم اسروا البنين والبنات والنساء اللواتي ينتفع بهن وقسموا الباقي من الرجال والنساء العجائز على المعسكر ليقتلوهم . فقتل كل واحد منهم اربعة وعشرين شخصا «١٤» وفي اوائل سنة ٦١٨هـ ١٢٢١م عبر جنكيزخان نهر جيحون وتوجه الى مدينة بلخ فخرج اليه اعيانها وبذلوا الهدايا العظيمة فلم يرض عنهم بسبب ان السلطان جلال الدين بن السلطان محمد خوارزمشاه كان في تلك

«١٢» ابن العبري . تاريخ مختصر الدول ص ٤٠٧ ــ ٨ ط . بيروت ١٨٩٠ .

«١٣» المصدر السابق

«١٤» المصدر السابق ص ٤١٠ .

النواحي يهي اسباب الحرب ضد المغول فامر بخروج اهل بلخ الى العراء ليعدوهم كالعادة فلما خرجوا باسرهم «رمى فيهم السيف» اي قتلهم جميعا «١٥» ومن هناك توجه الى الطالقان وقتل اكثر اهلها واسر من صلح للاسر ثم توجه الى باميان وحاصرها واتفق ان اصيب بعض اولاد جغتاي بسهم قتله وكان احب احفاد جنكيزخان اليه فعظمت المصيبة بذلك واضطربت النيران في قلوب المغول وجدوا في القتال الى ان فتحوها وقتلوا من فيها حتى الدواب والبقر والاجنة التي في بطون الحبالى ولم يأسروا منها احدا قطوتركوها ارضا قفرا ولم يسكنها احد بعد ذلك وسموها «ماد باليغ» اي قرية بؤس «١٦».

وكذلك فعلوا في مدينة الرى «١٧». ثم في مدينة مراغة «١٨». افلا يحق للناس ان يخافوا ويرتعدوا من مثل هذا الاسلوب القاسي في معاملة المدن المفتوحة عنوة او صلحا؟

والادهى والامر في الموضوع ان عاداتهم كانت اذا قاتلوا مدينة قدموا من معهم من اسارى المسلمين بين ايديهم يزحفون ويقاتلون فان عادوا قتلوهم فكان هؤلاء الاسرى يقاتلون كرها وكان المغول يقاتلون من وراء الاسرى فيكون القتل في المسلمين وهم بنجوة منه «١٩».

وكانت نتيجة ذلك فتور الهمم وظهور الذلة على الناس حتى ان قسما من المأسورين لم يحاولوا الدفاع عن انفسهم لان الخوف والرعب من هذه الاساليب والاخبار قد طغت عليهم بشكل مفجع «٢٠» ويقول عنهم الموفق عبد اللطيف

«١٥» المصدر السابق ص ٤١٠ - ٤١١ .

«١٦» المصدر السابق ص ٤١١ - ٤١٢ .

«١٧» ابن الاثير ج ١٢ ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

«١٨» المصدر السابق ج ١٢ ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

«١٩» المصدر السابق ج ١٢ ص ٢٤٧ .

«٢٠» المصدر السابق ج ١٢ ص ٢٤٧ . انظر كذلك : تاريخ الاسلام ج ١٨ الورقة ٢٤٦ .

البغدادي «٢١» . وكان معاصراً لغزوهم وقد اتصل بالعديد ممن هرب من غزوهم فاخبروه بأخبارهم بصورة مفصلة: «واذا اجتمعوا الى مجالس انسهم ونزهة قلوبهم احضروا قوما من الاسرى واخذوا يمثلون بواحد واحد بان يقطعوا عضواً بعد عضو وكلما اضطرب وصاح تضاحكوا واعجبوا وربما حطوا السيف في جوفه او ليته قليلا قليلا ومتى التمس الشخص رحمتهم ازدادوا قساوة واذا وقع لهم نساء فائقات في الحسن تمتعوا بهن اياما ثم قتلوهن . وحكت لي امراة بحلب انهم ذبحوا ولدها وشربوا الدم ثم نام الذابح فقامت فذبحته وهربت هي وزوجها » . «٢٢»

وكان قد استولى الرعب والخذلان على الناس حتى «ان الانسان منهم يدخل الدرب فيه جماعة من الناس فيقتل واحدا بعد واحد حتى يفرغ من الجميع ولا يمد احدهم اليه يدا » «٢٣» نتيجة الرعب والخوف منهم.

والاقاصيص عن ماسيهم كثيرة وعلى الاخص ما صنعوه في مقاطعة خراسان ويصفهم الموفق عبد اللطيف فيقول «...والله – سبحانه – يحب العدل والعمارة ويأمر بهما وهؤلاء الملاعين «اي المغول» يبغضونها اذ لا دين لهم ولا عقل وكل حيوان ردى الخلق ففيه خلق اخر حميد كالكلب والخنزير والذئب والنمر وهؤلاء فقد جمعوا من كل حيوان ردى خلقه فاجتمعت فيهم الرداءات محضة «٢٤» حتى ان قسما من المسلمين اعتبر هذه الحادثة – اي حادثة غزو المغول للعالم الاسلامي – ماهي الا «قضاء الله المحكم لا يرد منه دعاء ولا حرب ولا مقاومة«٢٥».

ولم تقصر هذه الفكرة على المسلمين فقط بل على اوربا كذلك وخاصة بعد

«٢١» انظر ترجمة الموفق في : الذهبي . تاريخ الاسلام ج ١٩ ورقة ١٠ . السبكي . طبقات الشافعية ج ٥ ص ١٣٢ ط . الحسينية . ابن العماد الحنبلي . شذرات الذهب ج ٢ ص ١٣٢ ط . القاهرة .

«٢٢» الذهبي . تاريخ الاسلام ج ١٨ الورقة ٢٤٠ .

«٢٣» انظر : ابن الاثير ج ١٢ ص ٢٥١ ط . بيروت .

«٢٤» الذهبي . تاريخ الاسلام ج ١٨ الورقة ٢٤٦ ب – ٢٤٧ أ .

«٢٥» اليافعي . مرآة الجنان ج ٤ ص ٤١ – ٤٢ ط . حيدر اباد ١٣٣٨ هـ .

ان غمروا بولندا بجموعهم ودمروا خيراتها وكادوا يسيطرون على اوربا بكاملها ويغرقونها في الدماء فقد اعتبرهم الاوربيون قصاصا جديدا ابتلاهم به الله كما ابتلاهم باتيلا وقبائل الهون من قبل . «٢٦»

كما ان الرعب اجتاح الدولة البيزنطية من اكتساح المغول لروسيا ووصول جحافلهم الى حدودها في البلقان وآسيا الصغرى فانزعج الامبراطور يوحنا دوكاس « ١٢٢٤ – ١٢٥٤م » الذي امر باجراء التحصينات في سائر قلاع امبراطوريته وارتعب البيزنطيون وانتشرت بينهم الاشاعات القائله: بأن المغول هم بشر لهم رؤوس كلاب وانهم يأكلون اللحوم البشرية «٢٧» وقد عم الرعب اوربا من هذا الغزو بشكل يندر ان يوجد له مثيل في العصور الوسطى حتى ان صيادي السمك من فرنسا والبلاد المنخفضة لم يجرؤوا على ركوب البحر لصيد السمك حتى انه في السنوات التي غزوا فيها شرق اوربا لم يخرج اي اسطول من جزر شتلاند وفريزلاند لصيد سمك « الرنجة » بالقرب من بارموث مما كان له ابلغ الاثر على توفر هذا السمك بشكل كبير في انكلترا لان صياديها اغتنموا الفرصة واخذوا يصيدونه دون منافس فرخص سعره عندهم كثيراً «٢٨».ولا ابلغ من القول التالي نختم به مقالنا هذا بما كتبه المؤرخ D. O.HSSON في مؤلفه الكبير عن المغول . مع العلم ان هذا المؤرخ يعطف كثيراً على المغول في مؤلفه هذا . ولكن مع هذا قال عنهم : « لقد فاق المغول في قسوتهم اعتى البرابرة فقد كانوا يقتلون الناس بشكل جماعي وبدون رادع في الاقطار المفتوحة فقد كانوا يقتلون النساء والاطفال والشيوخ ويحرقون المدن ويحولون البلاد المزدهرة الى صحارى قاحلة على الرغم من انهم ما كانوا ليطفئوا غليل حقد ولا اخذاً بثأر لانهم ما كانوا ليعرفوا اسماء الاقوام التي ابادوها . وقد

«٢٦» Eileen Power, Mediaeval People, P. 45. London, 1951.

«٢٧» N. H. Howorth, History of the Mongols, part III, P.1, London 1888

«٢٨» D'. O'Hsson, Histoir des Mongols, vol 1, P. VII

نجد انفسنا مساقين الى اتهام المؤرخين الشرقيين بالمبالغة فيما اوردوه عن الغزو المغولي من ارتكاب فظائع وجرائم الا اننا يجب ان نؤكد بأن ما ورد في هذه التواريخ والحوليات قد ايدته الروايات الاوربية المدونة في غرب اوربا والتي في مجملها تؤيد ما دونه المؤرخون الشرقيون بطريقة مشابهة عما فعله المغول في جنوب شرقي اوربا عندما غزوها . فقد حطموا واستباحوا روسيا وبولندا والمجر ثم تقدموا الى سيليسيا ومورافيا ودلماشيا » . «٢٩» وهكذا زرع المغول الخراب في كل مكان وطئوه ونشروا الرعب والخوف في نفس كل من سمع بهم وكانت اساليبهم العنيفة هذه خير سلاح لهم لارهاب الخصوم وتهيئة الاذهان لقدومهم . وهذا مما ساعدهم كثيراً على سرعة الاحتلال العسكري لمختلف البلاد التي نكبت بهم .



«٢٩» المصدر السابق PP. VII, VIII وانظر كذلك :
Brown, Literary History af Persia, vol.III PP. 5-6.

اكتشاف مدينة تربيصو الآشورية

الدكتور عامر سليمان

توطئة :

كان للنجاح الكبير الذي حققته جامعة الموصل في حفرياتها في سور نينوى الشمالي واكتشافها لبوابة أدد التي تعتبر اكمل بوابة آشورية مكتشفة حتى الان. الاثر الواضح في دفع الجامعة لتوسيع اعمالها في حقل التنقيب والصيانة الاثرية. اسهاما منها في الكشف عن حضارات وادي الرافدين الاصيلة وتعريف المتتبعين بما وصلت اليه تلك الحضارات من رقي وازدهار في شتى المجالات العلمية والثقافية. لذا. قررت الجامعة ان تقوم هيئة التنقيبات التابعة لها بدراسة المواقع الاثرية كافة في المنطقة واختيار المناسب منها من الناحيتين : العملية والعلمية لحفرياتها المقبلة . ولقد تم اختيار موقع الشريخان « شريف خان » الذي يبعد ثمانية كيلومترات تقريبا عن مدينة نينوى. وباقل من هذه المسافة عن مركز الجامعة. اعتقادا منا بان الموقع يبطن داخله اثارا مهمة لمدينة تربيصو الاشورية التي ورد ذكرها في عدد من النصوص المسمارية الاشورية المتاخرة. كما ان الملتقطات الاثرية المتناثرة على سطح الموقع تشير الى اهمية الموقع واحتوائه على اثار آشورية متأخرة . كذلك . فان قرب الموقع من مركز الجامعة والمدينة سيجعل السيطرة والاشراف على العامل وتدريب طلبة قسم الاثار على اعمال التنقيب والصيانة خلال الساعات المقررة لهم في المناهج الدراسية امرا يسيرا. يضاف الى هذه الاسباب انه لم يسبق ان جرت في الموقع تنقيبات علمية على نطاق واسع لتكشف عن هذه المدينة ومخططاتها بصورة صحيحة .

وبعد اختيار الموقع تم الاتصال بمديرية الاثار العامة لاستحصال موافقتها على قيام جامعة الموصل بالتنقيب في الموقع المذكور. ولقد وافقت المديرية.

مشكورة. على الطلب وابدت استعدادها الكامل للتعاون مع الجامعة في هذا المجال. ومنحت الجامعة اجازة للتنقيب بتاريخ ١-٩-١٩٦٨ .

وتألفت هيئة التنقيب في موقع الشريخان من :

الدكتور عامر سليمان دكتوراه في اللغات السامية من جامعة لندن رئيسا

السيد فاروق ناصر بكالوريوس اثار من جامعة بغداد

السيد مسلم محمد بكالوريوس آثار من جامعة بغداد

المهندس موفق احمد بكالوريوس هندسة من جامعة بغداد

نور الدين حسين المصور الفوتوغرافي

وعمل مع الهيئة كل من السيدين : فوزي احمد خضر وماجد اسماعيل. وبعد انتهاء الموسم الاول نسب السيد مسلم محمد للعمل في بوابة ادد وحل محله السيد عبد الواحد الرمضاني. بكالوريوس في الاثار من جامعة بغداد. كما قام السيد طارق سعيد. المساح في كلية الهندسة. والسيد باسل عبد الستار برسم الخرائط النهائية للموقع.

ومثل مديرية الاثار العامة في مواسم الحفريات الثلاثة السيد نهاد عاصم الراوي. الملحق في مفتشية اثار الموصل. للفترة من ١٢-١٠-٦٨ لغاية ٢٨-١١-١٩٦٨. والسيد عبد اللهأمين. الملحق بمفتشيةاثار الموصل. اعتباراً من ١-١٢-١٩٦٨. ثم السيد محفوظ عبد اللهنجيب. الملحق بمفتشية اثار الموصل. اعتبارا من ١٢-٩-١٩٦٩ .

ولم تكن الاعمال التي قامت بها هيئة تنقيبات جامعة الموصل في موقع الشريخان لتؤتي ثمارها لولا الدعم المتواصل الذي اسهمت به رئاسة الجامعة. ورصدها المبالغ اللازمة لتغطية نفقات التنقيب والصيانة. كما ان لدعم مديرية الاثار العامة وتعاونها وتقديمها الارشادات العلمية حول اسلم الطرق والوسائل الواجب اتباعها في التنقيب والصيانة عن طريق ممثليها لدى الهيئة وخلال زيارات السيد مدير الاثار العام والسيد مفتش التنقيبات العام . الاثر الطيب في توجيه اعمال التنقيب والصيانة في هذا الموقع وغيره من المواقع الاثرية التي امتدت اليها يد الجامعة .

واني انتهز هذه الفرصة لاسجل الشكر والتقدير لاعضاء هيئة التنقيب كافة وممثلي مديرية الآثار العامة لدى الهيئة على الجهود المخلصة التي بذلوها في سبيل الوصول الى احسن النتائج .

المقدمة

ورد اسم مدينة تربيصو في عدد من النصوص المسمارية التي ترقى بتاريخها الى العهد الاشوري المتأخر والمكتشفة في مدينة نينوى وغيرها من المدن الاشورية كما ورد الاسم على قطع الآجر والرخام التي سبق ان اكتشفت في الموقع في منتصف القرن الماضي «١» غير انه لم يكن ثابتا حتى قيامنا بالتنقيب في موقع الشريخان أن التل الذي اختير للتنقيبات يمثل مدينة تربيصو بالذات .

«١» قام ليرد في الفترة الواقعة بين سنة ١٨٤٩ وسنة ١٨٥١ بعمل بعض مجسات و انفاق في عدد من التلول الاثرية [illegible] مدينة الموصل . [illegible] اعماله الواسعة في مدينة نينوى والنمرود ، [illegible] وشريف خان . (انظر :
S. Layard, Foundations in the Dust. A Story of Mesopotamian Exploration, Oxford, 1949 . P. 142.)

ويذكر ليرد من اعماله في موقع الشريخان انه وجد على عمق بسيط من السطح آثار بناء مشيد باللبن المطري . كما عثر على بعض القطع من الرخام والآجر المختومة بختم [illegible] وسنحاريب والتي ذكر فيها اسم تربيصو . كما اعتقد ليرد بأن المعبد الموجود في المدينة هو معبد الاله [illegible] او [illegible] آشوري آخر (انظر :
A. H. Layard. Discoveries among the ruins of Nineveh and Babylon. New York, 1853 . p. p. 598 . 99).

[illegible] بالتنقيب في الموسم الاول [illegible] ليرد [illegible] ببعض التنقيبات البسيطة فيه وتبين [illegible] المختومة للقاعة الرئيسية في معبد [illegible] غير ان نتائج تلك المجسات [illegible] فترة العمل في الموقع .

وبعد الكشف عن عدد من قطع الاجر والرخام التي تغطي ارضية معبد الاله نركال وارضية المسبح المقدس « بيت رمكي » المكتشفة في المدينة وبعدقراءة النصوص المسمارية المكتشفة في احدى قاعات المعبد الرئيسة. ثبت لنا اسم المدينة القديم وتاريخ تاسيسها والتجديدات التي طرأت عليها الى ان سقطت على ايدى الميديين الغزاة. فالاسم « تربيصو » مشتق من الفعل « ربص » rabasu بمعنى: استراح ، استقر. سكن « ٢ » ويقابله لغويا باللغة العربية الفعل « ربض » بمعنى « آوى الى » « ٣ » وقد صيغ الاسم « تربيصو » باضافة التاء الى بداية الفعل . وهي صياغة سامية معروفة.

ويذكر الملك سنحاريب « ٧٠٥–٦٨١ ق.م » في معرض حديثه عن اعادة بناء معبد الاله نركال في مدينة تربيصو في النص المكتوب على

« ٢ » انظر معنى الفعل في :

a. W. Von Saden, Grundriss der Akkadischen Grammatik, Roma 1952 . P. 178 : 123 : B:

b. Driver and Miles, the Babylonian Laws, Oxford, 1955, vol. II , P. 94. col . XXIV p: 37 .

« ٣ » انظر : F. Brown, S. R. Driver, C. A. Briggs. Hebrew and English Lexicon of the Old Testament. Oxford. 1959 . P. 918 .

الفعل ربض معروف في معظم اللغات السامية وبنفس المعنى تقريبا ، فهو مستعمل في اللغة العبرية « رابض » والعربية والارامية والسريانية والاكدية .

الاسطوانتين الفخاريتين المكتشفتين في المعبد «٤» بان معبد المدينة وكذلك المدينة . كان قد اسس في عهد جده الملك شيلمنصر بن اشورناصربال ابن توكلتي ثنورتا اي في عهد الملك الاشوري شيلمنصر الثالث «٨٨٣–٨٥٩ ق.م». كما يذكر سنحاريب في نص آخر انه اطلق اسم الاله نركال على احدى بوابات العاصمة نينوى التي تقابل مدينة تربيصو.«٥» ولعله قصد بذلك البوابة التي تقابل معبد الاله نركال في مدينة تربيصو.«٦»

«٤» لقد تم اكتشاف هاتين الاسطوانتين الفخاريتين في الموسم الاول من تنقيباتنا في الموقع وعلى كل منهما نص بالخط المسماري الدقيق يحوي على ثمانية وستين سطرا طوليا . ويتضمن اضافة الى القاب الملك سنحاريب التقليدية وحملته الاولى على بلاد بابل ، اسماء المدن والقرى والقبائل التي كانت تقطن في المنطقة الجنوبية من العراق . كما يتضمن النص خبر اعادة بناء معبد الاله نركال في مدينة تربيصو . والاسطوانتان تحملان نفس النص مع اختلافات لغوية بسيطة واختلاف في كتابة مقاطع الكلمات والعلامات المسمارية . عثر عليهما وهما بحالة جيدة جدا حيث كانتا محفوظتين داخل صندوق من الآجر المفخور صمم في زوايا القاعة الرئيسة في المعبد [illegible] بنفس مستوى سطح الارضية المغطاة بالرخام الازرق . ولقد تمت ترجمة النص الى اللغتين العربية والانكليزية وهي في طريقها الى النشر .

«٥» انظر النص في :

D. D. Luckenbill , The Annals of Sennacherib, Chicago , 1924 , P. 112 : 90 .

«٦» لعل من المفيد ان نذكر هنا ان هيئة تنقيبات جامعة الموصل التي كانت تعمل في بوابة ادد في الموسم الاول (١٩٦٨) قامت بتتبع بعض الاسس الاشورية في منطقة المجموعة الثقافية في المنطقة الواقعة شمال بوابة نركال التي ظهرت اثناء فتح شارع داخل في المجموعة الثقافية . وتبين لنا ان الاسس تقع على جانبي طريق عريض مبلط بقطع من الرخام الازرق كبيرة الحجم . ومن المحتمل جدا ان هذا الطريق يصل بين البوابة الملكية . وهي بوابة نركال في سور نينوى الشمالي . ومدينة تربيصو الواقعة في شمال غرب البوابة وباتجاه الطريق المكتشف . ونظرا لضرورة فتح الشارع ، اكتفينا برسم مخطط مفصل للطريق وللاسس الواقعة على جانبيه وأوقفنا العمل .

كما يتفاخر سنحاريب بانه قام بايصال المياه الى الحقول الوقعة بين مدينة تربيصو العاصمة نينوى . وذلك بواسطة قناة كيسيرى . «٧»

كذلك . ورد اسم مدينة تربيصو على قطع الرخام والاجر من عهد الملك سرجون والملك اسرحدون في احدى النصوص انه قام بتشييد قصر ملكي لولي العهد الاشوري اشور بانبال «٨».

ويفهم من بعض النصوص المسمارية المكتشفة في مدينة نينوى ومن النص الديني الهام اكتشف في القاعة الرئيسة لمعبد الاله نركال في الموسم الاول من حفرياتنا «٩» ان المدينة كانت . اضافة الى كونها مقرا لولي العهد الاشوري . مركزا دينيا تقام فيه طقوس دينية معينة خاصة بالملوك الاشوريين . وان القرابين كانت تقدم في مدينة تربيصو من اجل الملك «١٠» ويؤيد ذلك اكتشافنا لبناء واسع يحتوي على عدد من القاعات المتصلة مع بعضها ويعتقد بانها تمثل المسبح المقدس « بيت رمكي » الذي كانت تجري فيه طقوس دينية معينة.

ولقد استمرت مدينة تربيصو كمقر ملكي ومركز ديني للملوك الاشوريين حتى نهاية الاشوريين السياسية حيث سقطت عام ٦١٤ ق.م على يد الميديين . اى قبل سقوط مدينة نينوى بعامين . ويظهر ان الميديين لم يكتفوا بسلب ونهب المدينة بل اسروا سكانها «١١» واضرموا النار في المعبد.

«٧» انظر :

Th. Jacobsen and Seton Lloyd, Sennachribs A queductat at Jarwana, Chicago 1935, P. 34 and P. 37.

«٨» انظر :

D. D Luckenbil, Ancient Records of Assyria and Babylonis, .Vhivsgo, 1927, vol. II, p. p. 376-77:981 .

«٩» يحتوي النص على اجزاء مهمة من اسطورة لاله زو . وقد كتب على رقيم طيني كبير الحجم وبخط دقيق جدا . ويحتوي الرقيم في حافته الخضراء على اكثر من مائتي سطر . وتمت ترجمته الى اللغة الانكليزية وسينشر في مقال آخر.

«١٠» انظر :

A. T. Olmsted, History of Assyria, Chicago 1960, p. p. 345 - 46 ; p. 370; p. 395 .

«١١» C. J. Gold, The Fall of Mineveh, Oxford, 1923, P. 10.

حيث عثرنا على اثار هذا الحريق في قاعة المعبد الرئيسة . وقد هجرت المدينة لفترة من الزمن ثم سكنت بعض اجزئها في العهد الفرثي . واحاط الموقع القديم عدد من القرى الصغيرة في العهود الاسلامية واستخدمت بعض اجزاء التل القديم كمقبرة عامة لتلك القرى.

واطلق اسم «الشريخان» وهو تحريف لاسم شريف خان، على الموقع في الوقت الحاضر نسبة الى القرية الواقعة في الجهة الشمالية منه.

وتتمثل اطلال مدينة تربيصو اليوم بتل رئيس يرتفع عن مستوى السهل المجاور بما يقرب من عشرة امتار من الناحيتين الشرقية والجنوبية بينما ينحدر التل نحو الغرب والشمال الى ان يتصل بالسهل المجاور. ومن المعتقد ان هذا التل لا يكون الا جزءا من المدينة الاشورية الواسعة التي امتدت حتى قرية «الكبة» الحالية غير انه يضم داخله اهم الابنية العامة.

ويحيط بالمدينة خندق اصطناعي كان يستغل لايصال المياه الى الحقول المجاورة وكذلك سور ترابي تكون نتيجة حفر الخندق. وما تزال اثار الخندق والسور واضحة في بعض اجزاء الجهة الشمالية الغربية من الموقع .

وتقع اطلال المدينة الاشورية في وسط سهل ذي تربة خصبة تغمره مياه الفيضانات في اكثر الاحايين فتزيد من خصوبيته . وتنمو حاليا في المنطقة كثير من المحاصيل الزراعية لاسيما الموسمية منها وخاصة القطن الذي يذكرنا بالملك سنحاريب وتفاخره بانه قد زرع «اشجار الصوف» في المنطقة .

بدء الحفريات

بدأ العمل الفعلي في موقع الشريخان في ١٢-١٠-١٩٦٨ واستمر ثلاثة مواسم متعاقبة فانتهى الموسم الاول في ٢١-١٢-١٩٦٨ بينما استمر العمل في الموسم الثاني في الفترة الواقعة بين ١٧-٥-١٩٦٩ حتى ٢٢-١١-١٩٦٩. ثم استؤنف العمل في الموسم الثالث في ٢٨-٢-١٩٧٠ واوقف في ٢٤-٥-١٩٧٠

وسبق بدء العمل في الموسم الاول مسح الموقع ورسم الخرائط الكنتورية واخذ الصور الفوتوغرافية للموقع ثم بدأ العمل الفعلي صباح يوم السبت الموافق ١٢-١٠-١٩٦٨ بعدد قليل من العمال المحليين يشرف عليهم ثلاثة من العمال

الشرقاطيين المهرة ثم زيد عدد العمال المحليين والشرقاطيين بما يتناسب وتوسع العمل التدريجي.

بدأنا بتثبيت اربع نقاط رئيسة في الموقع اطلق عليها الحروف أ. ب. ج. د. على التوالي . اضافة الى تثبيت اربع عشرة نقطة ثانوية اخرى . ولتوجيه العمل قمنا بحفر مجسات على شكل خنادق متقاطعة طول ضلع الواحد منها عشرة امتار وعرضه متران في النقاط الثلاث الاولى أ، ب، ج .

وكان من نتائج التنقيب في اليوم الاول من بدء الحفريات في نقطة أ أن تمكنا من العثور على اثار لبن مرصوف رصفا منتظما تبين فيما بعد انه يكون جزءا من جدار احدى القاعات الخاصة بالبناء الملكي الضخم الذي سيأتي ذكره بعد. ثم ظهر لنا فيما بعد ان المنطقة «ب» تضم داخلها اثار بناء واسع من عدد من الغرف والساحات يعتقد انها كانت مقرا للحرس اما المنطقة«ج»فقد تبين انها تضم اثار معبد المدينة الخاص بالاله نركال .

والان نتناول بالبحث الابنية المكتشفة حسب اهميتها بغض النظر عن تاريخ اكتشافها :

الادوار السكنية

تعود اقدام الطبقات المكتشفة في الموقع الى عصور ما قبل التاريخ حيث كان الموقع في هذه الفترة مستوطنا صغيرا قريبا من شاطئ النهر . وقد حفر مجس بين النقطة « أ » والنقطة « ج » في السفح الشمالي الغربي من التل لتتبع الطبقات السكنية المختلفة حيث اننا لم نتمكن من تتبع الطبقات المختلفة في بقية اجزاء الموقع خوفا من اتلاف الابنية المكتشفة التي يرقى تاريخها الى العهد الآشوري المتأخر .

اما الادوار الآشورية فتعود الى عهد الملك سرجون الثاني « ٧٢١–٧٠٥ ق.م » بينما تعود الاثار الآشورية الاخرى الى عهد الملك سنحاريب « ٧٠٥–٦٨١ ق.م » والملك أسرحدون «٦٨٠–٦٦٩ ق.م» . والملك اشوربانيبال « ٦٦٨–٦٢٦ ق.م » على التوالي . وقد امكن تمييز هذه الادوار الاربعة من خلال قراءتنا

للنصوص المسمارية المكتوبة على قطع الآجر والرخام التي تذكر . عادة. اسم الملك الذي شيدالبناء او اعاد تشييده. كما امكن تمييز عدة انواع من قطع الآجر المفخور المستخدم في رصف القاعات والساحات التي تشير الى الادوار المختلفة .

اضافة الى هذه الادوار الاربعة . يذكر الملك سنحاريب في النص المكتوب على الاسطوانتين الفخاريتين المكتشفتين في المعبد ان المعبد كان قد اسس في عهد الملك شيلمنصر بن اشور ناصر بال بن توكلتي ننورتا « ٨٥٨-٨٢٤ ق.م » . غير اننا لم نتمكن من العثور على آثار هذا الدور بصورة واضحة .

اما بالنسبة للعصور المتأخرة عن العصر الآشوري فقد عثر في عدة مناطق على اثار تعود الى العهد الفرثي في العراق . ومن هذه الاثار مصطبة من اللبن شيدت فوق الآثار الآشورية في المنطقة « أ » وكسر وأوان فخارية وجدت على ارضية بعض غرف المنطقة « ب » والمنطقة « ج » . كما عثر على جدار مشيد في العهد الفرثي لسد احد مداخل قاعة المعبد بآجر آشوري وعثر الى جانب الجدار على كسر وأوان فخارية فرثية .

وفي العهود الاسلامية استخدم الموقع . كما يظهر . كمقبرة عامة حيث عثر في المنطقة « ب » على آثار تعود الى القرن السادس الهجري . منها بعض الكسر الفخارية الاسلامية ومسار جمن الطين بينما لا تزال آثار القبور التي تعود الى الفترة المتأخرة واضحة حتى الآن في المنطقة « ب » وقد نتج عن ذلك تخريب معظم الجدران الخاصة بالابنية الآشورية في المنطقة .

الابنية المكتشفة :

كان من نتائج حفرياتنا في المواسم الثلاثة المتعاقبة الكشف عن معبد ضخم للاله نركال في المنطقة « ج » في الزاوية الجنوبية من الموقع وعلى بناء ملكي واسع في المنطقة « أ » يعتقد انه يمثل « بيت ريدوتي » ملحقاً به المسبح المقدس « بيت-رمكي » اضافة الى البناء المكتشف في المنطقة « ب » الذي لم تثبت ماهيته بعد .

معبد الاله نركال :

في اليوم الثاني من بدء أعمال التنقيب في الموقع قامت الهيئة بعمل مجس عادي شكل على حرف L طول ضلعه عشرة امتار وعرضه متران قرب النقطة « ج » في الزاوية الجنوبية الغربية من التل . واختيرت هذه النقطة لحفر المجس لوقوعها قرب نهاية التل ولارتفاع هذه النهاية نسبيا عن بقية اجزاء التل مما يشير الى ان المنطقة تضم داخلها احد الابنية الضخمة للمدينة .

وبعد ان بدأ الحفر في هذا المجس بفترة وجيزة عثر على آثار اللبن الطري المرصوف قريبا من سطح التل . وتبين فيما بعد ان هذا اللبن يكون جزءا من جدار سميك تابع الى معبد المدينة . وخلال هذه الفترة كان العمل جاريا لفحص سفح الزاوية الجنوبية الغربية من التل حيث عملت الامطار وعوامل التعرية الاخرى على تآكلها وظهر بعد اقل من ساعة من بدء العمل على هذا السفح آثار حريق قديم كان قد اصاب المنطقة . لذا اوقف العمل في المجس الاول وركز في المنطقة التي ظهرت فيها آثار الحريق واتضح فيما بعد ان هذا الجزء من التل يضم القاعة الرئيسة في المعبد . وان آثار الحريق هي في الواقع آثار الحريق الذي اصاب المعبد وكثيرا من اجزاء المدينة الآشورية في نهاية العهد الآشوري عند سقوط المدينة على ايدي الجيوش البابلية والميدية .

وقد استمر العمل على استظهار اجزاء المعبد المختلفة في المواسم الثلاثة المتعاقبة « انظر المخطط » وتبين ان المعبد كان قد شيد للاله نركال اله العالم السفلي . ويضم عددا من الغرف والقاعات تتوسطها ساحة كبيرة مكشوفة مستطيلة الشكل ومرصوفة بالاجر المفخور غير ان الامطار وعوامل التعرية المختلفة قد عملت على ازالة آثار الجزء الجنوبي الشرقي من المعبد الواقع قرب السفح بحيث لا يمكن في حالة الموقع الحالية من تحديد مخطط هذا الجزء من المعبد .

اما الجزء الجنوبي من المعبد فان ما تبقى منه يولف ثلاث قاعات طولية متجهة نحو الشمال الشرقي ينفذ الى كل منها من خلال قاعة اصغر مساحة .

ضلعها الطولي عمودي على ضلع القاعة الاولى الطولي وقد ازالت عوامل التعرية نهايات هذه القاعات الثلاث الجنوبية الغربية بحيث لا يمكن تحديد ضلع القاعات بصورة دقيقة. واحدى هذه القاعات، وهي الواقعة في اقصى الجنوب الغربي، تكون في الواقع القاعة الرئيسة في المعبد . وقد شبت فيها النيران عند سقوط المدينة بصورة شديدة وتركت اثارا واضحة لهذا الحريق فيها كتل النحاس المصهور وقطع الرخام المحروق اضافة الى اثار الخشب والآجر المحروق .

وتتألف القاعة الرئيسة من قاعتين متداخلتين ينفذ الى الاولى من خلال مدخل عريض رصفت ارضيته بقطعة كبيرة من الرخام الازرق، ويقابل هذا المدخل من الناحية الشمالية الغربية المدخل الذي يصل بين ساحتي المعبد، كما سيأتي ذكر ذلك، كما يقابل نفس المدخل مدخل المعبد الرئيسي في الضلع الشمالية الشرقية بحيث يتمكن الداخل الى المعبد من رؤية القاعة الداخلية الرئيسة في المعبد. والقاعة الرئيسة هذه مستطيلة الشكل رصفت ارضيتها بقطع كبيرة من الرخام الازرق وكتبت على معظم هذه القطع كتابات مسمارية تشير الى ان الملك سنحاريب « ٧٠٥–٦٨١ق.م. » كان قد قام باعادة بناء معبد الاله نركال في مدينة تربيصو. وقد ظهرت اثار الحريق واضحة على قطع الرخام هذه بحيث اتلفت جزءاً كبيرا من العلامات المسمارية .

وبعد رفع الانقاض من هذه القاعة وفي الزاويتين الشمالية الغربية والشمالية الشرقية وعلى عمق خمسين سنتمترا من مستوى ارضية القاعة، عثرنا على اسطوانتين فخاريتين متشابهتين محفوظتين داخل صندوق من الآجر المفخور كتب عليهما بالخط المسماري الدقيق اخبار حملة الملك سنحاريب الاول الى بلاد بابل « كردونياش » واعادته بناء معبد الاله نركال في مدينة تربيصو. وهاتان الاسطوانتان تمثلان في الواقع حجر الاساس الذي يوضع عادة عند تشيد بناية مهمة او اعادة تشييدها. وقد اعتاد الملوك الآشوريون وضع مثل هذه الاسطوانات الفخارية. او على شكل منشور فخاري، في زوايا اهم قاعة

او جزء من البناء المشيد ليتمكن الملوك والامراء اللاحقون من قراءتها عند تجديد البناء واعادتها الى اماكنها بعد اجراء طقوس دينية معينة عليها كغسلها بالزيت حتى ان بعض الملوك قد ذكروا ذلك في الاسطوانة الفخارية نفسها وطالبوا من يعثر عليها من الملوك والامراء اللاحقين ان يقوموا بغسلها بالزيت واعادتها الى مكانها دون اتلافها . وحيث ان عادة الملوك الآشوريين وضع اربع اسطوانات متشابهة في البناء الواحد في كثير من الاحيان . لذا قمنا بحفر الزاويتين الاخريين من القاعة لعلنا نعثر على الاسطوانتين غير اننا لم نعثر على شيء ولعل ايدي العابثين–سراق الاثار– في القرن الماضي قد وصلت اليهما.

وقد تبين نتيجة التنقيبات التي اجريت في هذه القاعة ان التنقيبات البسيطة التي سبق للمنقب البريطاني «ليرد» ان اجراها في مدينة تربيصو كانت مركزة في هذه القاعة. وهي عبارة عن انفاق ضيقة بمحاذاة جدران القاعة الجنوبية الشرقية. حسب .

ومما تجدر الاشارة اليه.أن الانقاض المتراكمة في هذه القاعة التي تظهر عليها آثار الحريق ضمت عددا من الملتقطات الاثرية كان اهمها الرقيم الطيني الكبير الذي كتب عليه بالخط المسماري الدقيق اكثر من مائتي سطر من الكتابة المسمارية التي تمثل جزءا مهما من اسطورة الاله زو الآشورية وقد تمت ترجمة واستنساخ هذا النص ومقارنته مع النصوص المكتشفة سابقا واتضح أنه يحوى معلومات جديدة اضافة الى معلوماتنا السابقة عن هذه الاسطورة .«١٢» .

ينفذ من القاعة الرئيسة هذه الى القاعة الداخلية من خلال مدخل عريض مغلف بالرخام الازرق بينما غلفت ارضية القاعة الداخلية بقطع من الحجر الاسود ونظرا لان هذه القاعة تقع على سفح التل مباشرة. فان جدرانها والاثار المحتمل وجودها فيها قد انهارت نتيجة سقوط الامطار وعبث العابثين فيها.

«١٢» قام البروفسور ساكز . استاذ اللغات السامية في جامعة كارديف بالتعاون مع الدكتور عامر سليمان وبتكليف من رئاسة جامعة الموصل بترجمة واستنساخ النص . وسينشر المقال الخاص بذلك في العدد القادم من هذه المجلة .

اما القاعة المجاورة، وهي القاعة الوسيطة ، فتتالف من قاعتين متداخلتين ايضا رصفت ارضيتهما بالاجر المفخور. وفي الجزء الجنوبي الغربي من القاعة الداخلية مدخل صغير يؤدى الى غرفة مستطيلة صغيرة يظهر من شكلها ومن اثار الحريق فيها انها كانت غرفة مقدسة لعلها استخدمت لحفظ تمثال الالـه او لجلوس الكهنة وقت التعبد. وقد عثر بين انقاض هذه الغرفة على عين تمثال من النحاس بالحجم الطبيعي كما عثر على جزء من رأس صولجان من الحجر الاسود المصقول وعليه بعض العلامات المسمارية.

ومما يلاحظ في الجدار الذي يفصل بين هذه القاعة والقاعة الاولى انـه قد جدد في عهد الملك سنحاريب واضيف اليه جدار آخر لعله للتقوية او لضرورات المخطط . ويظهر ان واجهة الجدار القديم المطلة على القاعة الوسيطة كانت مزينة بانصاف أعمدة من اللبن يفصل بين كل مجموعتين منها طلعات ودخلات هندسية اى بنفس الاسلوب الذي زينت فيه واجهة الجدار الخارجي للمعبد في الجهة الشمالية الشرقية.

ان القاعة الطولية الثالثة تتالف ايضا من قاعتين متداخلتين وهي مشابهة من حيث اسلوب البناء والتخطيط للقاعة الوسطية غير ان القاعة الثالثة لا تطل على ساحة المعبد المكشوفة كالقاعتين الاخريين. بل انها متصلة بغرفة ثالثة هي . في الواقع، احدى غرف الواجهة الشمالية الغربية من المعبد.

ويمتد على طول الناحية الشمالية الغربية من ساحة المعبد تسع غرف ينفذ اليها من الساحة من خلال مداخل غاضت ارضيتها بقطع من الرخام الازرق. وبعض هذه الغرف مستطيل الشكل بينما البعض الاخر مربع الشكل. ومما يلاحظ ان قياساتها غير دقيقة أو منتظمة. كما ان بعض الغرف تتصل مع الغرف المجاورة من خلال مداخل ضيقة. وقد عثر في احدى هذه الغرف على عدد من الرقم الطينية غير المفخورة وهي بحالة رديئة كانت قد حفظت داخل وقرب مجرى الماء الموجود تحت مستوى ارضية القاعة المتاخرة ببضعة سنتمترات ولم تترجم هذه الرقم بعد لمعرفة ماهيتها وتاريخها.

وعند منتصف الجهة الشمالية الغربية من المعبد حيث الغرف التسع ،آنفة

الذكر ، تبرز غرفتان متجاورتان: الاولى مربعة الشكل تقريبا. والثانية مستطيلة وتكون حاجزا يفصل بين الجزء الشرقي والغربي من ساحة المعبد. وتتميز الغرفة المستطيلة هذه والمطلة على القسم الشرقي من الساحة بوجود دخلة في ضلعها الشمالي الغربي ترتفع عن ارضية القاعة بما يقرب من المتر وقد غلفت ارضية هذه الدخلة التي تشبه الدكة بالرخام بينما زين الجدار بانصاف من اعمدة اللبن ما تزال اثار الاصباغ عليها واضحة . وقد عثر امام هذه الدخلة على عدد من القطع الصخرية « الحلان » لعلها كانت مدرجا للوقوف امام الدخلة. اما ارضية القاعة فقد غلفت كبقية الغرف بالاجر المفخوربينما غلف المدخل بقطعة من الرخام الازرق كتب عليها بالخط المسماري أسم الملك سنحاريب والقابه واعادته بناء المعبد .

وتنتهي ساحة المعبد من ناحية الشرق بجدار سميك مشيد باللبن ومزين من الخارج بمجموعات من انصاف الاعمدة تفصل بينها طلعات ودخلات هندسية منتظمة. وفي هذا الجدار مدخل المعبد الرئيس المقابل لمدخل القاعة الرئيسة في المعبد. ويحاذي الجدار من الخارج ممر ضيق يؤدي من ناحية الشمال الغربي الى الشارع الرئيس في المدينة الذي يفصل بين المعبد والبناء الملكي وبقية اجزاء المدينة .

ومما تجدر الاشارة اليه . ان جدران غرف وقاعات المعبد وكذلك بقية الغرف المكتشفة كان معظمها مطلياً بمادة بيضاء باستثناء الجزء السفلي من الجدران وعلى ارتفاع ٣٠-٣٥ سنتمترا من الارضية حيث طلي هذا الجزء بمادة سوداء لعلها نوع من القار استخدم كمانع للرطوبة . كما ان ارضية الغرف بصورة عامة مغلفة بالاجر المفخور بينما غلفت معظم المداخل بقطع الرخام او الصخر «الحلان» وفي حالات قليلة بالاجر المفخور. وفي بعض مداخل الغرف والقاعات قطعة من الرخام وفي وسطها حفرة صغيرة هي في الواقع صنارة للباب الخشبي.

البناء الملكي :

كانت النقطة «أ» المثبتة في وسط التل تقريبا هي المنطقة التي بدأت فيها حفرياتنا لاول مرة. ولقد بوشر بالتنقيب بحفر مجس على شكل علامة الصليب طول ضلعه عشرة امتار وعرضه متران. وفي اليوم الاول من بدء التنقيب وعلى عمق عشرين سنتمترا من سطح التل فقط ظهرت بعض اللبنات المرصوفة رصفا منتظما تبين . فيما بعد. انها تكون جزءا من جدار سميك هو الجدار الشمالي الغربي لقاعة كبيرة تابعة لبناء ملكي كبير يتوسط التل . وفي خلال المواسم الثلاثة المتعاقبة تم الكشف عن اجزاء هذا البناء الذي لم تحدد ماهيته بصورة دقيقة بعد. غير ان طبيعة البناء ومرافقه وبصورة خاصة نظام المجارى والقاعات المتصلة ببعضها دون وجود منافذ لها الى الخارج دفعنا الى الاعتقاد بان قسما من البناء يشكل ما يسمى بالمسبح المقدس «بيت-رمكي» الذي ورد ذكره في كثير من النصوص المسمارية الاشورية حيث كانت تجرى فيه طقوس دينية ملكية خاصة غير انه لم يسبق ان عثر على مثل هذا البناء من قبل . وفي خلال الموسم الثالث من اعمالنا في الموقع عثر على اجر مفخور من عهد الملك اسرحدون كتب عليه بالخط المسماري الواضح نص يشير الى ان الملك اسرحدون قد جدد بناء «بيت-ريدوتي» الى ابنه اشوربانيبال :

«انا الملك اسرحدون . الملك العظيم . ملك العالم. ملك بلاد اشور جددت بناء بيت-ريدوتي الى اشوربانيبال . ولي العهد. في مدينة تربيصو».

ويمكن تفسير وجود هذا النص في هذه المنطقة بالذات بان البناء الذي يذكره اسرحدون قد اضيف الى بناء «المسبح المقدس» خاصة وان قياسات قطع الاجر المستخدم في بناء المجارى وتبليط القاعات المرتبطة بها وكذلك الكتابات المسمارية الموجودة على بعضها تعود الى عهد الملك سنحاريب رغم وجود بعض القطع التي ترجع بتاريخها الى عهد الملك اشوربانيبال. والتفسير الاخر هو ان «بيت-ريدوتي» الذي يذكره اسرحدون هو بناء كبير يضم داخله المسبح المقدس. وتشير التنقيبات التي اجريت في هذه المنطقة في المواسم الثلاثة الى ان البناء

قد مر بعدد من الادوار التاريخية . اضافة الى الدورين المذكورين آنفا . وقد عثر على آجر من عهد الملك سرجون وكذلك على بعض الجدران المصانة والارضيات المتعاقبة. والملاحظ في النصوص المكتوبة على قطع الاجر انها جميعا، تذكر بأن الملك الاشوري قد جدد البناء ولا تذكر ان الملك الاشوري قد بنى البناء، مما يدل على ان الطبقة البنائية الاولى هي ، في الواقع ، من عهد الملك شليمنصر الثالث الذي ورد ذكره كمؤسس لمعبد الاله نركال في مدينة تربيصو . وذلك في النص المكتوب على الاسطوانتين الفخاريتين. ٠

وقد عثرنا على اثار يعتقد انها تعود الى عهد هذا الملك غير اننا لم نعثر فيها على نصوص كتابية تؤكد ذلك .

ولقد كانت اعمالنا في الموقع تهدف الى المحافظة على الطبقة المتأخرة من البناء وعدم محاولة تخريبها للوصول الى الطبقة الثانية والثالثة واكتفينا بتتبع اثار الادوار المتقدمة في بعض المناطق فقط . ومما تجدر الاشارة اليه ان آثار الحريق الذي اصاب المدينة عند سقوطها واضحة في اكثر من مكان من هذا البناء وخاصة في الغرف المحيطة بالمدرج من الناحية الجنوبية الشرقية .

وصف البناء العام :

يحتل البناء الذي اطلقنا عليه اسم « البناء الملكي » الجزء الاكبر من التل الرئيس ويقع في الناحية الشمالية الغربية من المعبد ويفصل بينه وبين المعبد شارع عريض يمتد على طول الجهة الشمالية الغربية من المعبد . ورغم ان اجزاء البناء كافة لم يكشف عنها بعد . خاصة الجهة الجنوبية الشرقية . فانه يمكن وصف البناء بأنه يتألف من ساحة وسطية رئيسة مكشوفة شكلها مربع تقريباً طول ضلعه خمسة وعشرون متراً وقد رصفت ارضية الساحة بقطع من الصخر «الحلان» مربعة ومستطيلة منتظمة وقد عثر على معظم هذه القطع اما في اماكنها او منقولة الى الاجزاء الاخرى من البناء في فترات متأخرة. وتنتهي الساحة من الناحية الجنوبية الغربية بمدرج ضخم مشيد بقطع منتظمة من الصخر «الحلان» طواه بطول ضلع القاعة غير انه ينعطف في القسم الجنوبي

منه الى الداخل ثم يعود الى اتجاهه الاول فيؤلف بذلك مدرجاً صغيراً في هذه الجهة. وينخفض مستوى ارتفاع هذا الجزء عن مستوى ارتفاع المدرج الاول الى النصف تقريباً ليلائم مستوى ارتفاع الغرف والقاعات التي يؤدي اليها . لذا، فان عدد الدرج في هذا الجزء هو خمس بينما عدد الدرج في الجزء الاول اثنتا عشرة درجة . ويرقى بواسطة المدرج الرئيس الى ثلاث قاعات طولية متعاقبة متصلة مع بعضها البعض وتتشابه القاعات من حيث الشكل والمساحة تقريباً وتتصل القاعة الاولى بالقاعة الثانية من خلال ثلاثة مداخل عريضة في الضلع المقابلة . وقد رصفت ارضية هذه القاعات بالاجر المفخور باستثناء القاعة الوسطية حيث رصف في وسطها عشر قطع من الحلان مؤلفة مستطيلا يتوسط القاعة مما يشير الى اهمية هذه القاعة . وقد عثر على قاعة مماثلة من حيث طريقة رصف الارضية في البناء الخاص بمقر الحرس في الجزء الشمالي الشرقي من التل .

وفي الضلع الشمالية الغربية من القاعة الوسطية عثر على ثلاث درجات صغيرة تنتهي بالجدار كما عثر على درجات مماثلة في الضلع الجنوبية الغربية ايضاً في نفس القاعة . وحيث انه لم يبق من جدران القاعة الا جزء بسيط . لا يمكن معرفة ما تنتهي اليه هذه الدرجات الصغيرة ولعلها كانت تنتهي بدخلة في الجدار يوضع فيها تمثال او كرسي لاستراحة الملك كالدخلة الموجودة في احدى قاعات المعبد . وحيث ان احد هذه المدارج واقع في مدخل القاعة المؤدي الى القاعة الثالثة ، فان تأريخها يعود بلا شك الى العهد المتأخر ، عهد اشوربانيبال . وقد عثر في هذه القاعة ايضاً على قطعة كبيرة من الرخام الازرق مستطيلة الشكل « ٢.٣٠ — ١.٤٥ — ٠.١٥ م » نحتت حافاتها نحتاً بارزاً ويتوسط الرخامة حفرة دائرية صغيرة وقد عثر على قطعة مماثلة لها من حيث الشكل والقياسات في القاعة المجاورة غير اننا لم نتوصل بعد الى ماهية هذه القطع والغاية من وجودها في هذه القاعات خاصة وانها قد نقلت من اماكنها

الاصلية كما يشير الى ذلك وضعها عند الاكتشاف . ويظهر انها كانت تستخدم لغايات معينة حيث عثر على ما يشابه هذه القطع في مدينة النمرود ايضاً .

اما جدران القاعات الثلاث فمشيدة كبقية الجدران باللبن الطري غير ان الجزء الاسفل منها وعلى ارتفاع ٨٠ سنتمترا تقريباً كان مغلفاً بقطع من حجر الحلان وقد عثر على بعض هذه القطع في اماكنها بينما اثار القطع الاخرى واضحة على الجدران .

وفي الناحية الشمالية الغربية والشمالية الشرقية والجنوبية الشرقية من ساحة البناء مداخل تؤدي الى عدد من الغرف والقاعات ذات احجام مختلفة ويتوسط بعض هذه الغرف والقاعات ساحات صغيرة قد رصفت ارضية الغرف بالاجر المفخور « انظر المخطط » وعثر في كثير من هذه الغرف على اثار الحريق الذي اصاب المدينة كما تبين نتيجة التنقيبات ان بعض الغرف قد جددت واضيفت اليها جدران جديدة في الفترات المختلفة التي مرت على المدينة . والغريب ان الملتقطات الاثرية في هذه الغرف والقاعات تكاد تكون معدومة مما يشير الى ان المدينة بعد ان سقطت على ايدي الجيوش البابلية والميدية كانت قد سلبت ونهبت ولم تترك الجيوش المنتصرة ما يشير الى عظمة الاشوريين ورقي فنونهم المختلفة وان ما تبقى في المدينة من ملتقطات قد اتلف او استخدم من قبل الاقوام التي استقرت في المنطقة بعد سقوط المدينة كالاقوام الفرثية

المسبح المقدس « بيت – رمكي »

ان اهم ما يمز البناء الملكي الذي اكتشف في مدينة تربصو هو نظام توزيع المياه وتصريفها مما جعلنا نعتقد بأن جزءا من البناء الملكي يكون في الحقيقة ما يسمى بالمسبح المقدس «بيت–رمكي» الذي ورد ذكره في بعض النصوص الدينية في العهد الاشوري غير انه لم يسبق ان اكتشف على بناء كامل لهذا المسبح .

ففي الناحية الشمالية الغربية من البناء الملكي كشف عن مجرى للماء مشيد بالاجر المفخور يمتد من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي ويبلغ طوله

١٩.٥ متراً وقد شيد المجرى بآجر مختلف القياسات « ٣٣.٥×٣٣.٥×٨.٥سم٢، ٥٦×٥٦×٨سم . ٤٣×١٨×٨.٥سم » غير ان اختلاف قياسات الاجر لايعني بان الاجر يعود الى فترات مختلفة بل ان شكل البناء يحتاج الى عدة انواع من الاجر . وقد شيدت اول الامر مصطبة من الاجر سمكها عدة قطع من الاجر ثم وضع على جانبي المصطبة الطويلة قطع من الاجر المفخور بحيث كونت في الوسط ساقية منتظمة . جوانبها وارضيتها من الاجر ثم غلفت هذه الساقية بقطع من الاجر المنتظم فتكون مجرى ماء مغلق بالاجر . وينتهي المجرى من الناحيتين الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية بمستطيل يرتفع عن مستوى المجرى قليلا طول ضلعه ١.٦٥م وعرضه ٩٨سم وفي وسطه من الاعلى فتحة قياسها ٤٠×١٨سم لعلها استخدمت لتنظيف المجرى او لصب الماء منها واضافة الى هاتين الفتحتين هناك فتحة ثالثة في وسط المجرى شيدت بنفس الاسلوب. وعلى بعد ثلاثة امتار تقريباً من الناحية الشمالية الشرقية للمجرى فتحة رابعة يخرج منها فرع ثان للمجرى الرئيس يتجه نحو الشمال الغربي بانحدار بسيط وينتهي بأنبوب فخاري طوله يقرب من ٨٠ سنتمتراً ثبت بشكل عمودي مائل الى الخارج وقد غلفت جوانبه بالاجر المفخور يصل بين فرع مجرى الماء هذا والقاعة التي تنخفض عن مستوى مجرى الماء بما يقرب من ٧٥ سنتمتراً . وتصل نهاية الانبوب الفخاري السفلي الى تحت مستوى ارضية القاعة بمسافة هي سمك الاجر الذي رصفت به ارضية القاعة اي ان الماء الذي يصل من المجرى عن طريق الانبوب الفخاري لا يصب على ارضية القاعة بل تحت ارضية القاعة حيث يستمر المجرى قاطعاً القاعة عرضاً وعند منتصف القاعة ينتهي المجرى الداخلي بقطعة من الاجر المفخور مثقوبة بأربعة ثقوب قطر الواحد منها يقرب من سنتمترين وضعت لنفوذ الماء من خلالها الى سطح القاعة على شكل نافورة . وقد غلفت جدران وارضية المجرى بأكمله بالقار لتمنع تسرب المياه وتآكل الاجر .

والقاعة التي تتوسطها النافورة على شكل زاوية طول ضلعها الاول ٢٣ متراً

وطول ضلعها القصير ٨ أمتار بينما يبلغ عرضها ٤ أمتار فقط أي أن القاعة اشبه بالممر وتتصل من جهة الضلع القصيرة بقاعة طولية ثانية وثالثة بينما يتصل بها من النهاية الثانية اربع قاعات طولية ضيقة وتنتهي بقاعة طولية خامسة تنعطف الى الجنوب الشرقي مكونة مع القاعة المجاورة زاوية مشابهة للقاعة الاولى . وحيث اننا لم نستكمل الكشف عن بقية القاعات . لا نعلم مدى استمرار وجود هذه القاعات الضيقة . ومن المحتمل انها تحيط بالبناء المكي من الناحية الشمالية الشرقية والجنوبية الشرقية كما هي الحال في الناحيتين الاخريين .

ومن المهم الاشارة اليه . ان هذه القاعات الضيقة المتصلة مع بعضها البعض بواسطة مداخل متشابهة ليس فيها منافذ الى الخارج ولا يمكن النفوذ اليها الا عن طريق القاعة المجاورة كما ان جميع هذه القاعات مرصوفة بالاجر المفخور وعلى قسم منه اثار القار . اضافة الى ذلك . فان على جدران القاعات هذه – رغم انه لم يبق منها الا الجزء القليل – آثار القار مما يشير الى ان القوم كانوا قد استخدموا مادة القار كمانع للرطوبة ولمنع تسرب المياه من الداخل الى الخارج . اي نفس الاسلوب المتبع في طلاء جدران وارضية المجرى نفسه . اما الاجر المستخدم في رصف ارضية القاعات فمعظمه من الاجر ذي القياس المستخدم في عهد الملك سنحاريب . كل هذه الامور تشير الى ان هذه القاعات كانت تصلها المياه عن طريق المجرى وتملأ بالمياه الى ارتفاع معين حيث تجري فيها طقوس دينية معينة وان القاعات والمجرى تكون في الحقيقة «المسبح المقدس» الوارد ذكره في النصوص المسمارية .

ومما تجدر ملاحظته . اننا قد عثرنا على مجاز للماء مشابهة من حيث الشكل وطريقة البناء في المنطقة التي اطلقنا عليها اسم «مقر الحرس» وفي النهاية الجنوبية الغربية من الماء . وليس من البعيد ان التنقيبات المقبلة ستكشف لنا استمرار هذا المجرى واتصاله بالقاعات الخاصة بالمسبح المقدس آنف الذكر حيث ان المجرى المكتشف في هذه المنطقة لا يتصل بالغرف المجاورة ولا بد

انه يتصل بغرف او قاعات من الناحية التي لم تجر فيها التنقيبات بعد «انظر المخطط» . كما اننا عثرنا على مجار مائية مشابهة . من حيث طريقة البناء والاسلوب المتبع في تصريف المياه فيها غير ان الغاية من هذه المجاري التي كشف عنها في عدد من الغرف والقاعات تختلف من حيث الغاية التي شيدت من أجلها . فالمجاري في الغرف والقاعات صممت لتصريف المياه الى الخارج بينما المجاري التي تصل الى القاعات الخاصة بالمسبح المقدس صممت لايصال المياه الى هذه القاعات عن طريق الانبوب الفخاري والنافورة .

ومن المحتمل جداً ان البناء الملكي بأكمله ماهو في الواقع الا دار استراحة للملك او لولي العهد لقضاء اوقات معينة من السنة اثناء القيام بالطقوس الدينية الخاصة .

ان السؤال الذي يتبادر الى الذهن الان هو : كيف كانت المياه تصل الى المجرى ومن ثم الى القاعات ؟ لقد كان اعتقادنا اول الامر وقبل الكشف عن الاجزاء المحيطة بمجرى الماء اننا سنكشف عن قاعة او غرفة ذات ارضية مرتفعة نسبياً استخدمت كخزان للماء ومنها يجري الماء الى المجرى حيث اننا لا نستبعد عن الاشوريين التفكير ببناء خزان للماء مرتفع عن بقية اجزاء المنطقة خاصة وانهم كانوا قد استخدموا هذا النظام الدقيق في ايصال المياه وتصريفها الا اننا لم نعثر على ما يشير الى استخدام الاشوريين احدى الغرف المجاورة كخزان للماء . لذا . فان التفسير الوحيد للمشكلة هو ان الاشوريين كانوا يجلبون المياه بواسطة القرب او ما يشابهها على ظهور الحيوانات من النهر المحاذي للمنطقة وتصب المياه في الفتحات التي ذكرناها سابقا والواقعة في نهايتي المجرى ومنها يجري الماء الى القاعات . ويؤيد هذا القول ان نهايتي المجرى مسدودة لا يمكن استخدام الفتحة الا لهذه الغاية فقط .

ان نظرة خاطفة على المخطط العام للبناء الملكي تبين لنا روعة التخطيط والتصميم . فالقاعات الخاصة بالمسبح المقدس التي يحتمل انها لم تكن مسقفة بل مفتوحة جعلت من البناء مقراً تحيطه مجاري المياه التي تزيد من تلطيف الجو . اضافة الى انها تستخدم لاغراض دينية معينة . وان تفكير الاشوريين

بمثل هذه الامور يبدو واضحاً اذا ما راجعنا ما قام به الملك سنحاريب في مدينة نينوى عندما حفر بحيرة واسعة لتربية الاسماك والطيور وعندما قام بايصال المياه من جروانة التي تبعد بحوالي ٧٠ كيلومتراً عن مدينة نينوى.

مقر الحرس :

تقع المنطقة التي اجريت فيها التنقيبات في الزاوية الشرقية من التل وهي المنطقة المعلمة بالحرف «ب» . وترتفع هذه المنطقة من التل عن بقية اجزاء التل بشكل واضح وغير طبيعي مما يشير الى احتواء هذا الجزء من التل على اثار ابنية قديمة . وقد استخدمت المنطقة من قبل سكان القرى المجاورة كمقبرة عامة لارتفاعها نسبياً ولاشرافها على السهل المجاور بأكمله ونتج عن ذلك ان اتلفت معظم جدران الابنية القديمة وازيل كثير منها ولا بد ان حفر القبور في المنطقة ادى الى ظهور بعض اللقى الاثرية وقطع الاجر والرخام الذي دفع بدوره كثيراً من اهالي القرى المجاورة الى حفر بعض اجزاء التل املا في العثور على المزيد منها .

ان الاسس البنائية المكتشفة لا تكون في حالتها الحاضرة وحدة بنائية كاملة يمكن معها تحديد ماهية البناء بصورة دقيقة . غير ان ما اكتشف من جدران ومداخل يشكل ثلاث ساحات متجاورة تفصل بينها غرف طولية ويحيطها من ناحية الشمال الغربي صف من الغرف المطلة على هذه الساحات كما يحيط بهذا الصف من الغرف ممر ضيق . وفي الساحة الثالثة الواقعة في الجنوب الشرقي والتي لم يكشف الا عن اجزاء قليلة منها «انظر المخطط» كشف عن مجرى ماء مشابه من حيث التخطيط والتصميم للمجرى الذي كشف عنه في القسم الذي سميناه بالمسبح المقدس . وليس من البعيد ان هذا المجرى كان يمتد الى نقطة معينة ثم يصب في غرف وقاعات تتصل بالقاعات الضيقة السابق ذكرها والتابعة الى المسبح .

اما الغرف والساحات فقد رصفت ارضيتها بالاجر المفخور بينما غلفت المداخل بقطع من الرخام الازرق او بقطع من صخر الحلان وطليت الجدران

باللون الابيض باستثناء الجزء السفلي منها حيث طلي بمادة سوداء كبقية اجزاء ابنية المدينة المكتشفة . ان وقوع هذا البناء في نهاية التل مشرفاً على السهل المجاور ومرتفعاً عن بقية اجزاء المنطقة يشير الى ان البناء كان قد استخدم كمنطقة للحراسة والدفاع عن المدينة وبصورة خاصة عن المعبد والبناء الملكي .
ومما يؤيد هذا الرأي اننا عثرنا في زوايا معظم الغرف المكتشفة في هذه المنطقة فقط على تماثيل صغيرة من الطين غير المفخور وهي على هيئة انسان آشوري واقف ويحمل في يده في بعض الاحيان ما يشبه السيف او الصولجان وقد وضعت هذه التماثيل في وزوايا الغرف في حفرة صغيرة تحت مستوى ارضية الغرف ووضعت فوقها قطعة من الاجر . والمعروف ان هذا النوع من التماثيل يوضع عادة لحماية البناء وطرد الارواح الشريرة وقد عثر على ما يماثلها في زوايا قاعة الحرس في بوابة أدد الاشورية «١» كما ان وضع التماثيل في حفرة عادية يشير الى ان البناء لم يكن مقراً ملكياً مهماً بل مجرد بناء اعد لاقامة الحرس . واننا نأمل ان التنقيبات المقبلة في الموقع ستوضح لنا بصورة اكيدة بقية اجزاء البناء والغاية من تشييده .

صيانة الموقع :

ان اهمية مدينة تربيصو الاثرية ووقوعها قريباً من مركز المدينة وسهولة وصول السواح والزائرين اليها دفعنا الى التفكير بصيانة الابنية ولو بشكل مؤقت حيث ان صيانة الابنية العراقية القديمة المشيدة باللبن تعد من اهم المشاكل التي تواجه مديرية الاثار العامة والعاملين في حقل الاثار كافة . ورغم كثرة المحاولات التي قامت بها الجهات العلمية المسؤولة لايجادالوسيلة الكفيلة لصيانة الابنية العراقية القديمة فاننا لانجد امامنا في الوقت الحاضر الا صيانة الموقع واعادة بناء الاجزاء التالفة منه بنفس الطريقة والاساوب الذي كان متبعاً في العهد الاشوري . اي بأعادة بناء الاجزاء التالفة باللبن الطري وبنفس القياسات

---

١٤ انظر المقال الخاص ببوابة أدد في العدد الاول من هذه المجلة .

الاشورية . وهذا الاسلوب اتبع في صيانة الاجزاء المهمة من معبد الاله نركال واجزاء من البناء الملكي في مدينة تربيصو . وللحفاظ على جدران اللبن المصانة قمنا بوضع طبقة سمكها ١٠ سنتمترات تقريباً من الجص فوق جدران اللبن التي ترتفع بحوالي المتر الى المترين عن مستوى الارضية . وقد حاولنا في عملية الصيانة الحفاظ على مخطط البناء في العهد الاشوري المتأخر ولم نحاول ازالة الجدران المضافة في هذا العهد والرجوع الى المخطط القديم .

اننا نأمل ان نتوصل ومديرية الاثار العامة في المستقبل القريب الى طريقة جديدة لصيانة جدران اللبن والحفاظ عليها اما بايجاد طريقة خاصة لتحضير اللبن القوي الذي يمكن ان يصمد امام التأثيرات الطبيعية المختلفة كالامطار وحرارة الشمس او بايجاد مادة قوية لطلاء جدران اللبن بعد صيانتها . ورغم ان هناك بعض المواد الكيمياوية التي يمكن استخدامها لطلاء جدران اللبن والحفاظ عليها . فان هذه المواد ذات كلفة باهضة لا يمكن معها صيانة الابنية الاثرية بواسطتها .

اهم الملتقطات الأثرية

وفيما يلي وصف لاهم الملتقطات الاثرية التي عثر عليها في مدينة تربيصو في المواسم الثلاثة مصنفة بحسب نوعيتها وقد اشير الى رقم السجل بين قوسين :

١ـ اسطوانتان فخاريتان منتفختان من الوسط طول الواحدة منها ٢٤ سم وقطرها في الجزء المنتفخ ١٥ سم وقطر قاعدتها ٦.٥ سم والاسطوانة مثقوبة طولياً ولعل الثقب استعمل لتثبيتها على قضيب من الخشب او المعدن لتسهيل مهمة الكاتب وقت كتابة النص عليها .

عثر عليهما في الزاويتين الشمالية الغربية والجنوبية الغربية من القاعة الرئيسة في المعبد محفوظتين داخل صندوق من الاجر المفخور تحت مستوى ارضية القاعة بمسافة ٥٠ سنتمتراً . وقد عثر عليهما وهما بحالة جيدة .

كتبت على كل اسطوانة . بخط مسماري دقيق في٦٨سطراً طولياً . القاب الملك الاشوري سنحاريب «٧٠٥ – ٦٨١ ق . م . » واخبار حملته الاولى

الى بلاد بابل « كردونياش » وقضائه على الاقوام المناوئة له في هذه المنطقة وسلبه ونهبه المدن والقرى التي تصدت لحكمه . وفي الاسطر الثمانية الاخيرة من النص ذكر لاعادة بناء معبد الاله نركال في مدينة تربيصو الذي كان شيلمنصر الثالث قد بناه .

والنص المكتوب على الاسطوانتين واحد من اختلافات بسيطة في العلامات المسمارية وطريقة كتابة بعض أسماء الاعلام والمقاطع الصوتية .
« ٨ . ٩ . ش ١ » .

٢- رقيم طيني كبير الحجم عثر عليه . وهو محطم الى عدة كسر . في أنقاض القاعة الرئيسة في المعبد التي اصابها الحريق الشديد وقت سقوط المدينة وتظهر اثار الحريق واضحة على الرقيم . كتب عليه بخط مسماري دقيق جداً ما يقرب من ٣٠٠ سطر . فقد منها اكثر من ٥٠ سطراً ويحتوي النص على اجزاء مهمة من اسطورة الاله «زو» والاله «انانا» . وستنشر ترجمة النص كاملة مع دراسة مقارنة له مع بقية النصوص المكتشفة والخاصة بنفس الاسطورة في مقال مستقل لاحق .

٣- نصف رأس صولجان محزز . عليه بقايا علامات مسمارية دقيقة كانت تغطي رأس الصولجان الكروي . عثر عليه في انقاض القاعة الرئيسة في المعبد « ١٥ . ش ١ » .

٤- كسرتان من الفخار تشكلان جزءا من اناء فخاري متوسط الحجم كروي الشكل مفلطح . وقد طبع على كتف الاناء سطران من الكتابة المسمارية لم يبق منها الا بعض العلامات . عثر عليهما في انقاض القاعة الرئيسة في المعبد.

٥- كسرة من الفخار تكون جزءا من اناء فخاري ذي بدن كروي الشكل وقد ظهرت على الكتف علامات مسمارية يمكن قراءة اسم معبد الاله نركال في مدينة تربيصو عليها « ١٧٠ .ش ٣ » .

«١٣» أشير الى هذا النص في مقال خاص في العدد الاول من هذه المجلة

٦– مجموعة من كسر تكون عددا من الرقم الطينية امكن تمييز بعضها ولصقها . عثر على كسر الرقم وهي بحالة رديئة وغير مفخورة تحت مستوى ارضية الغرفة ٣٩ المتأخرة وقسم منها داخل مجرى الماء في نفس الغرفة . ولعل الرقم تعود الى دور سابق لدور سنحاريب وسيوضح لنا ذلك بعد استنساخها وترجمتها . وفيما يلي وصف هذا الكسر .

أ– كسرة من رقيم طيني كبير الحجم مستطيل الشكل فقدتْ معظم اجزائه وقد كتب على وجهه وظهرت نهاية الاسطر فقط على الوجه الثاني . لم يبق من النص سوى ٢٠ سطراً مشوهاً على الوجه و٧ اسطر على القفا « ١٤.٥ × ١٣.٥ × ٢.٥ سم » . « ١٤٦ . ش ٢ » .

ب– كسرة رقيم طيني بيضوي الشكل فقد ما يقرب من نصفه . وقد كتب على وجهه فقط . هناك بقايا ثلاثة اسطر نعلها تمثل ارقاماً لمكاييل او اوزان مواد فقدت اسماؤها « ٥.٥ × ٣.٥ سم » . « ١٤٧ . ش ٢ » .

ج– رقيم طيني مستطيل الشكل مكتوب على وجهه كتابة جد دقيقة . فقدت زاويته اليمنى من الاسفل وجزء من الحافة العليا . عليه ما يقرب من ٣٠ سطراً من الكتابة المسمارية « ٧.٧ × ٤.٥ × ١ سم » . « ١٤٨ ش٢ » .

د – الجزء الاسفل من رقيم طيني مستطيل الشكل كتب عليه نص بخط مسماري جد دقيق فقدت اجزاء كبيرة منه . والرقيم مثقوب طولياً . لعل ذلك لتعليقه كدلاية او كحرز « ٧ × ٦ × ١.٥ سم » . « ١٤٩ ، ش٢ » .

هـ– الجزء الاسفل من رقيم طيني مستطيل الشكل مكتوب على الوجهين عثر عليه مهشماً الى عدة كسر امكن لصقها . يمكن قراءة ما يقرب من عشرين سطرا من كل وجه « ٥×٦.٥×١.٥ سم » . « ١٥٠ ش ٢ » .

و– كسرة رقيم طيني صغير الحجم عليها بقايا ستة اسطر على الوجه وسبعة اسطر على القفا . والكسرة في حالة رديئة « ٣,٥×٢.٢×١.٥ سم » . « ١٥١ ش ٢ » .

ز– كسرة من رقيم طيني متوسط الحجم مستطيل الشكل لم يبق منه الا الجزء الوسطي . كتب على وجهيه ولم يبق من النص الاستة عشر سطرا على

الوجه واربعة عشر سطرا على القفا« ٥ر٦×٥ر٦×٥ر٢ سم ». «١٥٢، ش ٢» .

ح- كسرة رقيم طيني مستطيل الشكل . وقد ظهرت عليه بعض العلامات المسمارية تكون بداية الاسطر الاربعة الاولى . يظهر انها اسماء اشخاص «٣×٣×١سم» «١٥٣ . ش ٢» .

ط- كسرة رقيم طيني متوسط الحجم لم يبق منه الا جزء صغير من حافته اليسرى . عليه بقايا اربعة اسطر على الوجه وتسعة اسطر على القفا«٥ر٤ ×٥ر٣سم» «١٥٤ . ش ٢» .

ي- كسرة صغيرة من وجه رقيم طيني كبير الحجم ظهرت عليه ثقوب صغيرة وكبيرة قديمة ويظهر من الكسرة ان الرقيم بحالته الاولية كان مكتوبا بعدة حقول من الكتابة المسمارية الدقيقة ولم يبق من النص الاتسعة اسطر حسب. يعتقد انه يحتوي على نص ديني «٢ر٢×٥سم» . «١٥٥ . ش ٢» .

ك- رقيم طيني كبير الحجم مفخور نتيجة الحريق الذي اصاب المعبد . مستطيل الشكل وهو بحالة جد رديئة يمكن تمييز بعض العلامات المسمارية عليه وهي متكررة لعلها تتضمن قائمة باسماء بعض المواد «١٦×١٠سم». «١٦٩ . ش ٢».

٧- مجموعة من الاجر المفخور ذات قياسات مختلفة تعود الى فترات مختلفة وقد كتب عنها بالخط المسماري اسم الملك الاشوري والقابه. معظمها يرقى الى عهد الملك سنحاريب بينما البعض الاخر يعود الى عهد الملك سرجون واسرحدون.

٨- قطع كبيرةالحجم مستطيلة الشكل من الرخام الازرق تغطي ارضية القاعة الرئيسة في المعبد . وقد نقش على بعضها كتابات مسمارية تعود الى عهد الملك سنحاريب يذكر عليها تجديده بناء المعبد وقد اصاب الرخام حريق شديد اتلف اجزاء كثيرة من العلامات المسمارية يمكن ترجمة النص المكتوب عليها كما يلي :

«سنحاريب ، الملك العظيم، الملك القوي. ملك العالم. ملك بلاد اشور. بنى معبد مسلام. معبد الاله نركال في مدينة تربيصو وجعله ساطعا كالنهار »

وتشير الجملة الاخيرة من النص «وجعله ساطعا كالنهار» الى ماسبق ذكره في هذا المقال من ان غرف وقاعات المعبد وبقية الابنية في المدينة كانت مطلية بطلاء ابيض وصفه سنحاريب بالنهار الساطع.

٩- ازرار مجوفة متشابهة نقش عليها بطريقة الضغط ما يشبه القرص تحيط به نجمة ذات اربعة اضلاع وتتخلل الاضلاع خطوط مستقيمة تمثل اشعة الشمس والنقش باكمله يؤلف شعار الالهة عشتار. عثر عليها في صندوق من اللبن تحت مستوى ارضية مدخل القاعة الرئيسة في المعبد «١٩ش ١ ».

١٠- سفائف «شرائح » صغيرة ودقيقة من الذهب عثر عليها في مناطق مختلفة من المنطقة «جـ» لعلها كانت تزين بعض الاثاث والحلي «١٣٣.ش ٢».

١١- كسرة لأهلة نحاسية صغيرة الحجم رقيقة يتألف كل منها من هلال ينتهي بقضيب دقيق من النحاس وقد صنع الهلال والقضيب من قطعة نحاسية واحدة بطريقة الطرق. عثر على اثنين منها محفوظة في حفرتين صغيرتين تحت مستوى ارضية القاعة الاولى في المنطقة «أ» على جانبي المدخل اما بقية الكسر فقد عثر عليها في انقاض ساحة المعبد والغرف المحيطة بها«٦ش١ ١٣٩ش ٢. ١٨١ ش٣».

١٢- مجموعة من المسامير النحاسية المتاكسدة مختلفة الاحجام عثر عليها في انقاض غرف المنطقة « ب » . « ١٠٢ش١٧٩،٢ش٣ » .

١٣- مجموعة من قطع النحاس المتاكسد منها كسر من صفائح واربع قطع مستديرة صغيرة ومقعرة من الوسط كانها تمثل اغلفة لازرار ونجمة ذات سبعة اضلاع قطرها ٢.٥ سم وخمس قطع على شكل نصف كرة صغيرة الحجم لعلها اغلفة ازرار ايضا. ورأس سهم كامل وحلقة صغيرة عثر عليها في انقاض الغرف ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤٢، ١٠٥، ١٣٢ ومساحة المعبد « ١١٦ش١٢١،٢ش٢ ١٢٣ش٢. ١٣٢ش٢. ١٧٦ش٣. ١٧٩ش٣. ١٨١ش٣ ».

١٤- سوار من النحاس المتاكسد دائري الشكل وقد شوهت النقوش التي كانت تزينه وهو مكسور الى قطعتين . قطره من الخارج ٦.٥سم ومن الداخل ٦سم عثر في انقاض الغرفة ١٣٢ « ١٧٢ش٢ » .

١٥- كتلة من النحاس المصهور نتيجة الحرق وفي وسطها كتلة بيضوية الشكل ومصبوغة باللون الابيض والاصفر يحتمل انها عين لتمثال انسان او اله اكبر من الحجم الطبيعي للانسان عثر عليها في انقاض قاعة المعبد الرئيسة التي اصابها حرق شديد « ٥×٤.٥سم » « ٩٨ش٢ » .

١٦- فأس كبير نسبيا ينتهي بشكل مثلث حاد النهاية لعله استعمل كالة للحفر عثر عليه مكسوراً الى اربع قطع على ارضية الغرفة ٤٢ يبلغ طول الفأس وهي كاملة ٤٦.٥سم « ٩٩ش٢ » .

١٧- مجموعة من رؤوس الرماح المتاكسدة ذات شكل متشابه متوسط طولها ٦سم عثر علي معظمها تحت ارضية مجرى الماء المكتشف في الغرفة ٣٩ من الدور السابق لدور سنحاريب « ١٦ش١.١٠٠ش٢ » .

١٨- كسر من قضبان من الحديد المتاكسد تشكل بعضها ما يشبه آلة خلع المسامير الحديثة « كلابتين » طول الالة الكاملة ١٠.٥سم. « ١٠١ش٢ ».

١٩- مجموعة من المسامير مختلفة الاحجام عثر عليها في انقاض غرف المعبد الصغيرة « ١٤٠ش٢.١٨٠ش٣ » .

٢٠- قطعة من النحاس تشكل جزءا من يد تمثال صغير لم يبق منها الا الكف والساعد وقد ظهرت على الساعد حلقتان بارزتان لعلهما تمثلان اسورة للزينة ويلاحظ ان اصابع الكف معقوفة. عثر عليها في انقاض الغرفة ١٠٩ المنطقة ب « ١٧٤ش٣ » .

٢١- ختم اسطواني من حجر الكلس اصابه الحرق.عليه بعض النقوش التي منها شجرة ذات سبعة اغصان وما يشبه الحيوان لعله غزال عثر عليه قريبا من سطح الارض « ٢سم×٨ملم » « ١٠ش١ » .

٢٢- ختم اسطواني صغير من حجر الكلس نقشت عليه بعض الاشكال

الادمية عثر عليه على ارضية الغرفة ٤٠ طوله ٢,٥سم وقطره٨ملم « ١٠٦ش٢ »

٢٣- ختم اسطواني صغير من حجر الكلس ازرق اللون وقد نقشت عليه اشكال آدمية باجنحة كبيرة عثر عليه على ارضية الغرفة ٠٣٩ طوله ٢.٨سم وقطره ٨ملم « ١٠٧ش٢ » .

٢٤- ختم اسطواني من حجر الكلس سمج الصنع عليه بعض الخطوط لعلها تكون شكلا آدميا مبسطا عثر عليه في انقاض الغرفة ٠٤٣ طوله ٢.٢سم وقطره ١سم « ١٠٨ش٢ » .

٢٥- تمثال من الطين غير مفخور لشخص آشوري واقف مرتد لباسا طويلا خال من الزخرفة وقد وضع يديه على صدره ممسكا بما يشبه السيف الذي وضح بوجود خطين محفورين على جسم التمثال لعلهما كانا مطعمين بالنحاس وقد فقدت اليد اليسرى وجزء من اليد اليمنى اما الرأس فهو بدون غطاء وقد تدلى الشعر على الكتفين وكذلك ظهر الذقن بشكل مستطيل. والتمثال هو من نوع التماثيل التي توضع عادة في زوايا القاعات الرئيسة في البناء لحمايتها من الشرور وقد تم العثور على عدد من هذه التماثيل. وهي محفوظة داخل حفر صغيرة في زوايا الغرف في المنطقة « ب » تحت مستوى ارضية الغرف بمسافة ٥٠ سنتمترا تقريبا وتختلف التماثيل المكتشفة عن بعضها في التفاصيل وفي زخرف اللباس كما ان لبعضها قاعدة صغيرة مستطيلة او مربعة من الطين منفصلة عن التمثال كما ان معظمها خال من آثار وجود السلاح الذي يحمله الشخص يبلغ متوسط طول التمثال ١١سم وعرضه ٣.٥سم « ٤٦ش١. ٧٢. ١٦٠. ١٦١. ١٦٢. ١٦٣. ١٦٤، ١٦٥. ١٦٦. ١٦٧. ١٦٨ش٢ » .

٢٦- مجموعة كبيرة من الاقراص الطينية ذات شكل كروي مفلطح مثقوبة من مركزها تتراوح اقطارها بين ٣سم و٧سم لعلها كانت تستعمل كمغازل لغزل الصوف والقطن عثر عليها في انقاض غرف المنطقة « أ » « ١٨ش١. ٧١ش٢. ١٨٤ش٢. ١٩٣ش٢ » .

٢٧- قطعة من الطين مستطيلة الشكل وعليها ما يشبه الثعبان طولها ٩.٥سم

وعرضها ٢,٥سم عثر عليها على ارضية الممر المؤدي الى بناء المسبح المقدس في المنطقة « أ » « ٤٧ ش١ » .

٢٨- عين تمثال كبير الحجم دائرية الشكل قليلة السمك وفي وسطها شكل دائري اصغر من القاعدة بقليل وقدلون هذا الجزء باللون الابيض. يبلغ قطر العين ٣.٥سم « ١٠٣ش٢ » .

٢٩- عين تمثال من الطين تتألف من قطعة مستديرة منبسطة قليلة السمك يعلوها شكل دائري محدب بني اللون محاط بازرار بيض. قطرها ٣.٥سم « ١٠٤أش٢ » .

٣٠- كسرة من الحجر الاسود تمثل نصف راس صولجان كروي مفلطح مصقول وخال من النقوش ومثقوب من الوسط قطره ٦سم « ٢٨٠ش٦ » .

٣١- ثلاثة مدقات من الحجر الاسود على شكل اسطواني احدها مصقول متوسط ارتفاعه ٧سم وقطره ٦سم « ٧٤.٣. ٧٥ » .

٣٢- كسر من الرخام الاسود والابيض وحجر البازلت تكون اجزاء من أوان فخارية الشكل مفلطحة ذات حافة مشطوفة الى الخارج وقد نقش بعضها بخطوط متقاطعة ومائلة وبدوائر متداخلة « ٧٦. ٧٧. ٧٨. ٧٩. ٨١. ٨٢. ٨٣. ٨٦. ش٢ » .

٣٣- مدق من الحجر شبيه بالمسامير الفخارية السومرية ذو قاعدة مستديرة يخرج منها مقبض مخروطي الشكل يبلغ طول المقبض ٨سم وقطر القاعدة ١٥ سم « ٩١ش٢ »

٣٤- شاقول من الرخام الاسود صغير الحجم يشبه في شكله شكل الزقورة ذات الطبقات الثلاث وينتهي الشاقول بشكل نصف اسطواني مثقوب افقيا لتثبيت الخيط . « ٨٤ش٢ »

٣٥- ثلاثة مدقات من الحجر سمجة الصنع ومكسورة ذات قاعدة يخرج منها مقبض « ٢٢٢-٢٢٤ش٣ » .

٣٦- ثلاث كتل من الحجر اسطوانية الشكل قليلة الارتفاع متساوية الاحجام تقريبا لعلها كانت تستعمل كمساند لاناء او كثقل للوزن «٩٣ش ٢»

٣٧- ثقل للوزن على شكل بطة معقوفة الرقبة « ٩٥ ش ٢ ».

٣٨- دلاية من الحجر الابيض على شكل راس حيوان لعله رأس قـرد مثقوب من عند الرقبة لتثبيته بالخيط « ١١٤ ش ٢ ، ٨٧ ش ٢ » .

٣٩- قطعة من العاج بيضوية الشكل تشبه الختم المنبسط وقد نقش على وجهها صورة لثلاثة مخلوقات تشبه الادميين « ٥٨ ش ٢ ».

٤٠- كسر عاجية مختلفة عليها اثار الزخرف . كالوردة الاشورية وما يشبه الصرح المدرج ودوائر متداخلة « ٥٩ ش ٢ ».

٤١- كسر عاجية تكون شريحة مستطيلة الشكل مزخرفة بخطوط سـوداء عميقة تكون مربعات صغيرة « ٥٠ ش ٢ ».

٤٢- مسامير عاجية وكسر مسامير مختلفة الاحجام لعلها كانت تستخدم لتثبيت القطع العاجية مع بعضها البعض. « ٥١ ش ٢ » .

٤٣- قطع عاجية مختلفة الاحجام تكون اجزاء من اوان عاجية وشرائح « ٥٢ . ٥٣ . ٥٤ . ٥٥ . ٥٦ . ٥٧ . ش ٢ » .

٤٤- ثماني جرار فخارية كبيرة ومتوسطة الحجم. عثر عليها على ارضية الغرفة ١٠ النقطة « أ » وهي بحالة جيدة باستثناء بعضها يمكن وصف احداها بانها اسطوانية الشكل تقريبا منتفخة من الوسط وذات فوهة دائرية وحافـة صغيرة. قاعدتها محدبة. لعلها كانت ترتكز على قاعدة فخارية اسطوانية الشكل كالتي عثر عليها بكثرة في اجزاء مختلفة من الموقع. متوسط ارتفاع الجرة ٤٠ سم ومتوسط القطر ٣٠ سم ومتوسط قطر الفوهة ١٫٥ سم . « ٢١ – ٢٨ ش ٢ » « انظر اللوحة » .

٤٥- اناء من الفخار على شكل ابريق ذو مقبض واحد وقد رصعت الفوهة لتكون مصبا للماء . الارتفاع ٢٨ سم. القطر ١٥٫٥ سم، قطر الفوهة ٧٫٥ سم » « ٢٩ ش ١ » .

٤٦- اناء فخاري على شكل جرة كروى الشكل ذو قاعدة دائرية وقد فقد العنق والفوهة . الارتفاع ١٠ سم. القطر ١٠ سم . « ٣٠ ش ١ ».

٤٧- قنينة صغيرة ذات شكل كروى مفلطح وقاعدة مدببة وعنق طويل

نسبيا وقد فقد جزء من العنق والفوهة . الارتفاع ٧ سم، القطر ٦ سم « ٣٢ ش ١ ».

٤٨- مشربة فخارية دقيقة الصنع اسطوانية الشكل ذات قاعدة مستوية مع قليل من التحدب وفوهة مفتوحة الى الخارج قليلا . الارتفاع ٥ر٦ سم القطر ٥ر٤ سم . « ٣٣، ٣٤ ش ١ » .

٤٩- انبوب من الفخار اسطواني الشكل ،تضيق فوهته من احد الطرفين ذو فوهتين دائريتين كشف عنه في نهاية مجرى الماء في بناء المسبح المقدس حيث انه يصل بين مجرى الماء المرتفع واحدى قاعات المسبح المقدس . الارتفاع ٥٠ سم . والقطر ١٥ سم « ٣٦ ش ١ » .

٥٠- اناء من الفخار على شكل حب صغيرة ذو بدن مفلطح وحافة مفتوحة الى الخارج وقاعدة صغيرة مستديرة . الارتفاع ١٩ سم. ١٧سم. قطر الفوهة ٥ر٢٥ سم . « ٣٧ ش ١ » .

٥١- مجموعة من القواعد الفخارية كانت تستعمل لارتكاز الانية الفخارية الكبيرة والصغيرة ذات القواعد المحدبة. تتالف كل قاعدة من بدن قصير اسطواني الشكل ينتهي من الاعلى والاسفل بفوهة دائرية ذات حافة سميكة مشطوفة الى الخارج ويغلب ان تكون احدى الفوهتين اكبر من الفوهة الاخرى وقد سد وسط البدن الاسطواني في بعض القواعد بينما ترك مفتوحا في القواعد الاخرى.

ويلاحظ في القواعد ذات البدن المسدود من الوسط وجود ثقب في الجدار الذي يصل بين نصفي البدن الذي يكون عادة محدبا . ومقعرا وكأنما حدث هذا الثقب نتيجة تآكل الفخار من السائل المتسرب من الاناء الفخاري المرتكز على القاعدة . عثر على كثير من هذه القواعد على ارضية الغرف التابعة للمقر الملكي وقرب الجدارن الفخارية الكبيرة الحجم ولا سيما في الغرفة١٠٥، ١٠٦، ١٠٩ كما ان احجام هذه القواعد تختلف عن بعضها فمنها الكبيرة التي يبلغ

قطر فوهتها ١٩ سم وارتفاعها ١٢ سم» ومنها الصغيرة التي قطر فوهتها ١٠سم وارتفاعها ٥ سم فقط « ١١ش ١، ٣٨ ش ١، ٦٢ ش ١، ٢٢١ ش ٣ » .

٥٢- مؤخرة حيوان من الطين المفخور ومقدمة حيوان آخر من الفخار عثر عليهما في انقاض مدخل القاعة الرئيسة في المعبد « ٤٤، ٤٥ ش ١. ١٩٧ ش ٣ »

٥٣- مجموعة من القناني الفخارية الصغيرة دقيقة الصنع مخروطية او كروية الشكل ذات فوهات ضيقة « ٦٠ ش ١. ٦١ ش ١ » .

٥٤- مجموعة من الشكل وتنتهي ببدن شبه كروي محزوز من الوسط وذات قاعدة محدبة ومثقوبة من الوسط بثقب معدل قطره ١ سم او اقل. وجميع القارورات المكتشفة ذات صناعة غير دقيقة طينها يميل الى الاصفرار كما انها خالية من الزخرف وقد وجد على الجزء الاسفل من احدى القارورات اثار مادة سوداء لعلها مادة النفط الاسود. وقد فقدت اجزاء من هذه القارورات اما احجامها فمنها الكبيرة حيث يبلغ ارتفاع الواحدة ٣٣ سم وطول العنق ٢٧ سم وقطر الفوهة ٥ر٧ سم ومحيط البدن ٤٧ سم ومنها الصغيرة التي يبلغ ارتفاعها ٢٣ سم وطول العنق ٥ر١٣ وارتفاع البدن ٥ر٩ سم وقطر الفوهة ٤ سم. ولا يعرف ماهية هذه القارورات والغاية من صنعها او طريقة استخدامها « ٦٣ ش ١، ٦٤ ش ١ » ٢١٧ ش ٢. ٢١٨ ش ٣. ٢٢٠ش ١».

٥٥- اجزاء من قنان وجرار فخارية كروية ومفلطحة واسطوانية الشكل وذات قاعدة مستديرة بارزة فقدت بعض اجزائها . « ٦٥. ٦٦. ٦٧. ٦٨. ٧٠ ش ١ ١٩٩ ش ٣. ٢٠٠. ٢٠١ ش ٣ ».

٥٦- كتلة من الاجر المفخور على شكل قبضة حيوان مفترس وقد علمت الفواصل بين الاصابع بحزوز عميقة . الطول ١٣ سم. العرض ٥ر٧ سم . « ١٩٤ ش ٣ ». عثر عليها في انقاض ساحة المعبد .

٥٧- كتلة فخارية بيضوية مكسورة محزوزة من الوسط لعلها كانت تستعمل لوضع الحبل وتثبيته على الخيل . الطول ٥ر٦ سم. القطر ٥ر٣سم . عثر عليها في انقاض ساحة المعبد « ١٩٥ ش ٣ » .

٥٨– كتلة من الاجر المفخور على شكل مستطيل سميك يخرج من وسطه ما يشبه القبضة مثقوبة من الوسط وشكل الكتلة العام يشبه الدمغة وقد حفر على الوجه الثاني من المستطيل بعض النقوش السمجة لعلها كانت تستخدم لزخرف بعض الاواني الفخارية السمجة بطريقة الدمج . الطول ٥ر٨ سم. العرض ٥ر٥ سم، السمك ٢ سم . ارتفاع القبضة ٣ سم . « ١٩٦ ش ٣ ».

٥٩– كاس من الفخار متوسط الحجم على شكل اسطواني ينتفخ قليلا من الجزء الاسفل وقد فقدت بعض اجزائها . ارتفاع بدن الكاس ١٧ سم. قطر الفوهة ١٤ سم، ارتفاع القاعدة ٦ سم. القاعدة ٧ سم . «٢٠٢ ش ٣».

٦٠– اناء فخاري كروي الشكل مفلطح يرتكز على قاعدة دائرية صغيرة وينتهي برقبة عريضة دائرية ويصل الرقبة وكتف الاناء عروة واحدة. ارتفاع البدن ١٠ سم طول الرقبة ٤ سم. قطر الفوهة ٤ سم . « ٢٠٣ ش ٤ ».

٦١– اوان فخارية مختلفة الاشكال معظمها كامل ومنها الكروية المفلطحة والاسطوانية الشكل ولبعضها عروة واحدة على الكتف « ٢٠٤–٢٠٩ ش ٣ . ٢١١ – ٢١٤ ش ٣. ٢١٩ ش ٣.

٦٢– رأس كبش من الفخار على شكل مصب لاناء فخاري عثر عليه في انقاض ساحة المعبد « ٢١٠ش٣ » .

٦٣– رأس حيوان من الفخار يشبه رأس الكلب لعله يمثل مصبا لاناء فخاري عليه في انقاض ساحة المعبد « ١٩٠ش٢ » .

٦٤– مجموعة كبيرة من الخرز مختلف الاحجام والاشكال قسم منها بيضوي الشكل من الرخام الاسود ومنها الصغير الكروي من حجر الكلس والتي يميل لونها الى الازرق وقد زخرفت بعض هذه الخرزات بخطوط ودوائر متداخلة وبحزوز افقية « ٤٣ش١. ١١١–١١٣ش٢. ١١٥. ١١٧–١١٨ش٢ ١٣٥–١٣٧. ١٤١–١٤٥ش٢ . ١٧٥. ١٨٢».

٦٥– كسر جبسية مختلفة تكون اجزاء من آنية جبسية دقيقة الصنع ومزخرفة باشكال هندسية مختلفة ودوائر متداخلة « ١٢٤–١٣٠ش٢ » .

نشأة المسرحية العربية

الدكتور عمر الطالب

ارتبط المسرح بتصور خاص لدى بعض الكتاب من انه فن عربي انتشر في اوربا عن طريق الاندلس ثم ضعف حتى تلاشى في البلاد العربية، ثم استعادوه ثانية من اوربا «١» وهذا التصور لا يصمد امام البحث، فالمصادر العربية لم تقدم لنا ما يفيد وجود المسرح في المجتمع العربي والاسلامي اذا ما اخرجنا «خيال الظل» كعمل مسرحي متكامل. وما يعنينا من هذا التصور هو تقبلهم للمسرح على انه تراث عربي يريدون استعادته مرة ثانية والنتيجة المترتبة عليه في مفهومهم لوظيفة المسرح تهديفه نحاه غاية محدودة هي انه من اكبر العوامل على بث الحكمة والادب. وتعظم المسرحية عندهم فيما تمنحه من الحكمة والموعظة. وجعلوا من شخوص المسرحيات رموزا ترمز الى هذه الغاية.

ان المسرح. بمعناه الاصلي. فن جديد. «٢» ولج باب حضارتنا في النهضة الحديثة التي اعقبت الحملة الفرنسية على مصر. واذا اردنا الحديث عن المسرح كفن له اصوله وادبه فعلينا ان نسقط من حديثنا الوان الملاهي الشعبية التي قد تحتوي على مشابه لهذا الفن ولكنها تختلف عنه اختلافا كبيرا. اذ لا بد من التحديد الدقيق الذي يهيئ لنا تمييز هذا الفن عن غيره من الوان التسلية الشعبية كخيال الظل والقره قوز واعمال المقلدين والشعراء الشعبيين. فمثل هذه الالوان لا تندرج

«١» محمد زكي. مجلة الاستاذ ج ٢١ سنة ١٨٩٢.

«٢» محمد يوسف نجم. المسرحية في الادب العربي الحديث ١٧. انظر: محمد مندور. مسرحيات شوقي. المسرح النثري. المسرح. محمود حامد شوكت. المسرحية في شعر شوقي. الفن الفن المسرحي. نجيب سعد. تراثنا الادبي المعاصر: محمود تيمور. في القصص. عادل ابو شنب. مسرح عربي قديم.

في سجل هذا الفن وان حوت بعض عناصره الشكلية. «٣»

ولم تكتمل الصورة المسرحية في العصور الاسلامية في الادب العربي رغم وجود الجذور التي تطور منها المسرح في اوربا «٤» . فقد وجدت الاسواق التي تبارى فيها الشعراء بالخطب والقصائد في مواسم معينة، وهذه مناسك الحج التي تمثل ذكريات ابراهيم الخليل وسيرة زوجته هاجر ام اسماعيل. وقد كان العرب في الجاهلية يقومون بهذه الشعائر. ثم اقرها الاسلام بعد ذلك على انها مناسك لحج بيت الله الحرام .

وقبل ذلك ، اثبت علماء الاثار والمنقبون في العراق عن مواضع الحضارات السومرية والبابلية القديمة ان وادي الرافدين قد عرف نوعا من التمثيل او المشاهد التمثيلية الدينية التي كانت تقام في بعض الاعياد الدينية البابلية. ولا سيما اعياد راس السنة البابلية التي كانت تقام فيها حفلات ومراسيم وطقوس مختلفة تختلف كثيرا عن طبيعة المشاهد الدينية التمثيلية الاولى التي كان اليونانيون القدماء يقيمونها للاله ديونيسوس ،والتي تطورت الى شعر تمثيلي وعمل مسرحي بفضل رواد هذا الفن الاوائل مثل ثيسبس واسخلوس وسوفوكليس ويوربيدس وارستوفان وميناندر وغيرهم من ادباء اليونان. كما يعرف المهتمون بتاريخ الفن والادب المسرحي . «٥»

وكانت اعياد راس السنة البابلية تستغرق اثنى عشر يوما– كعدد اشهر السنة– وكانت الايام الاربعة الاولى تخصص لمراسيم تقديم القرابين وتوزيع

«٣» رجاء النقاش، في اضواء المسرح ٨٤ . وكتب توفيق الحكيم رسالة الى طه حسين يقول فيها : " كنت اقرأ للجاحظ منذ عامين فانتهيت منه كلاما كالحوار التمثيلي ..او مثله في الاغاني وقد بدا لي ان انقل هذا الحوار على شكل " منظر صغير . دون تغيير في الالفاظ والمعاني . انما سمحت لنفسي ببعض الحذف وبعض الملاءمة بين وضع الحوار الاصلي والوضع المسرحي بغير ان امس جوهر الموضوع حتى يبقى النص للجاحظ وللادب العربي ان عناصر كل نوع من انواع الادب والفكر موجودة عند العرب لكنها مجرد عناصر . "

«٤» محمود حامد شوكت . الفن المسرحي ١٠ . عبدالمحسن عاطف سلام . عن مسرحيات عزيز اباظة ٣٨ .

«٥» اكتيو او اعياد راس السنة البابلية، محمود الامين . مجلة كلية الاداب العراقية ج ٥ سنة ١٩٦٢

اعمال وواجبات الكهنة حسب طبقاتهم ومراتبهم الدينية . وكان رئيس الكهنة يبدأ بتلاوة قصة الخليقة البابلية في اليوم الرابع. وفي اليوم الخامس تقام مراسيم تطهير معبد الاله « نابو » وتقديم القرابين اليه قبل ان يسافر بسفينته الذهبية الى بابل .

وبعد ان تجرى طقوس اخرى في اليوم السادس يشترك فيها الملك، تمثل في اليوم السابع دراما بدائية دينية محزنة تدور حول وفاة الاله مردوخ وصعوده الى السماء حسب اعتقادهم . وكانت المشاهد التمثيلية تشخص كيف يجرح هذا الاله ويموت في الوقت الذي يبحث فيه الناس عنه في كل مكان مولولين منتحبين. ويقوم الكهنة في خلال ذلك وبعده باعداد مشاهد تمثيلية تمثل حالة الفوضى والاضطراب ليصوروا ما يحل بالبلاد من شرور نتيجة لفقدان الاله مردوخ المذكور. وكان من جملة تلك المشاهد شد حصان شموس الى عربة وتركه يعدو بها على غير هدى في شوارع المدينة محدثا انواعا من عمليات العنف والفوضى والاضطراب. ويمعن الكهنة في تجسيم وتهويل ما يحدثه فقد الاله من فوضى فيختارون احد عتاة المجرمين ويعهدون اليه بالملك في ذلك اليوم ويسمحون له باختيار عدد من الاوغاد والمجانين ليساعدوه في حكم البلاد وينطلق الملك المنصوب بالعربة ومعه حاشيته الغريبة فيقتلون ويدهسون وينهبون ويفعلون ويسلبون كل ما طاب لهم من اعمال الفوضى طيلة ذلك اليوم حتى اذا جاء المساء قتلوا واستمرت الطقوس الدينية المعتادة . وكانت الطقوس ممزوجة بالمشاهد التمثيلية التي تصور رجوع الاله مردوخ الى الحياة في اليوم الثامن. وعودة الحياة في المدينة الى مجاريها الطبيعية. وبعد اجراء طقوس اخرى تستغرق اليومين التاسع والعاشر تقدم في اليوم الحادي عشر مشاهد رمزية تمثل بعض احداث قصة الخليقة البابلية ثم تختتم في اليوم نفسه بزواج الاله مردوخ من غادة حسناء يختارها له الكهنة الخاصون من بين اجمل فتيات بابل.

وتنتهي الاحتفالات في اليوم الثاني عشر بمغادرة الاله مدينة بابل وعودة الكهنة والناس الى اعمالهم الاعتيادية.«٦٠»

«٦٠ انظر : علي الزبيدي « المسرحية العربية في العراق ، ص ١٦، ١٧

ان هذا الوصف الموجز لاعياد راس السنة البابلية يثبت ان البابليين قد مارسوا انواعا من المشاهد التمثيلية في طقوسهم الدينية. ولا ريب في ان هذه المظاهر قد استمرت مئات السنين خلال فترات او حقب سبقت الحضارة اليونانية بزمن طويل.

ولكن هذه المشاهد شأنها شأن المشاهد التمثيلية الفرعونية عن اسطورة اوزوريس لم يكتب لها التطور ولعل السبب في ذلك انها لم تخرج من المعابد ولم تنتقل من ايدي رجال الدين الى الاهالي ولهذا لم تعرف حضارات وادي الرافدين ووادي النيل الفن المسرحي والادب التمثيلي لان هذه المظاهر التمثيلية الدينية من بابلية وفرعونية قد انقرضت بانقراض تلك الحضارات والاديان . ويمكن الافتراض ان طقوسا من هذا النوع الديني التمثيلي قد وجدت عند الاقوام والحضارات التي تلت وان اشكالا او اصداءا منها قد دخلت في القصص والاساطير الشعبية او تسربت الى الفولكلور «٧».

ومنذ سنين كشفت الحفريات في بابل عن اثر يشبه المسارح اليونانية «امفتياتز» ولكن الاستاذ «لنزن» الذي قام بتنقيبات ودراسات عن هذا المسرح اكد ان الاسكندر المقدوني هو الذي امر بتشييده من انقاض برج بابل. وكان يتألف من مدرجات على شكل نصف دائرة وامامها ساحة . وقد اعيد بناؤه وترميمه في عهد البارثيين «٨» وهذا يعني ان اليونان قد استعملوا هذا المسرح للقيام باحتفالاتهم وربما تراجيدياتهم وان ابناء العراق القدماء قد شاهدوا ذلك وتأثروا به . ولكن عهد الاسكندر لم يطل ومع هذا فان عمليات الترميم والاصلاح التي جرت بعد ذلك تدل على انه قد استعمل لاغراض شتى.

هذا مجمل ما يذكره المؤرخون عن الطقوس الدينية والمظاهر التمثيلية او الدرامية التي كانت ترافقها في عراقنا القديم. ويمكن ان نقرر انها تناظر

«٧» علي الزبيدي ، المسرحية العربية في العراق ١٦ - ١٨

«٨» انظر : مجلة (سومر) التي تصدرها مديرية الاثار العراقية ج ١ ، ٢ سنة ١٩٥٦ .

او تشابه من بعض الوجوه الطقوس اليونانية التمثيلية الاولى التي تطورت بعد ذلك الى الشعر التمثيلي والتمثيل اللذين عرفهما اليونان منذ القرن السادس «ق.م» ولكن المشاهد او المظاهر التمثيلية الدينية البابلية لم تبق لتتطور وترتقي بل اندثرت مع الحضارات العراقية السالفة ، ولم تصل الينا منها نصوص مدونة، ولذا كان. قد بقيت لها ذيول وآثار في الحكايات والاساطير والمراسيم والاحتفالات الشعبية في وادي الرافدين في عهود ما قبل الاسلام وبعده فان هذا لايغير من الحقيقة التي تؤكدها المعلومات التاريخية المتوفرة لدينا حتى الان وهي ان تلك المظاهر التمثيلية الدينية لم تكن سوى نوع من التمثيل الديني وانها لم تتطور فتصبح مسرحيات شبيهة بمسرحيات اليونان والرومان من قريب او بعيد «٩»

كما «١٠» وجد ان الشيعة من انصار علي بن ابي طالب كانوا يحتفلون في يوم عاشوراء من كل عام بذكرى مقتله. والفوا في هذه الذكرى تمثيلية تمثل خروج الحسين من المدينة حتى وصوله الى كربلاء ومقتله فيها، وتمثل القصة في ساحة نصبت فيها الخيام وبدت عليها شارات الحداد ،وفي نهاية التمثيل يروى شيخ قصة مقتل الحسين بصوت حزين يثير عواطف السامعين . وفي نهاية الحفل تشعل النار في اكواخ مقامة حول الساحة ممثلة كربلاء . ويشهد في هذه الساحة شخصيات تمثل ادوار الحسين وآله والعباس وجعفر وزينب وسكينة وام ليلى وكلثوم وعمر ابن سعد وعائشة . «١١» ويتكرر تمثيل هذه المأساة كل سنة في محرم ولا زالت تمثل حتى الان في المدن المقدسة عند الشيعة. «١٢» ولهذا السبب كان العراق من اسبق البلدان

«٩» علي الزبيدي (المصدر السابق) ص ١٩ ، ٢٠ .

«١٠» علي احمد باكثير ، فن المسرحية من خلال تجاربي .

«١١» الحسن السائح . من تاريخ القصة والمسرحية في الأدب المغربي ص ١٢ . وجاء في كتاب علي الوردي ، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي ص ٢٣٧. وفي اليوم العاشر تخرج (مواكب التطبير) حيث يلبس اصحابها الاكفان وتسيل الدماء من رؤوسهم ثم يجرى بعدئذ تمثيل الواقعة التي قتل فيها الحسين في كربلاء ، وبذلك يبلغ هياج العواطف اقصاه .

«١٢» في كربلاء والكاظمية وبعقوبة وسامراء وغيرها من المدن التي يكثر فيها الشيعة.

العربية الى التمثيل، فقد كان البويهيون اول من حاول تمثيل حادثة مقتل الحسين في القرن الرابع الهجري ليتقربوا بها الى الناس لاسباب سياسية ودينية . «١٣» كما وجد الوعظ الديني بطريق التمثيل في العصور الاسلامية فقد كان في زمن المهدي رجل صوفي يدعى « عبد الرحمن بن بشر » لا يترك اسلوبا ولا سبيلا للامر بالمعروف والنهى عن المنكر وتهذيب الاخلاق الا وسلكه فقد كان يخرج كل يوم اثنين وخميس الى جهة بخارج بغداد فتجتمع عليه الخلائق من رجال ونساء وصبيان فيصعد تلا وينادي باعلا صوت: ما فعل النبيون والمرسلون؟ اوليسوا في اعلى عليين؟ فيقولون نعم فيقول: هاتوا ابابكر الصديق . فيتقدم رجل فيجلس بين يديه فيقول جزاك الله خيرا يا ابابكر عن الرعية فقد عدلت فقمت بما ارض الله وخلفت محمد «ص» فاحسنت الخلافة ووصلت حبل الدين بعد حل وتنازع وفرغت منه الى اوثق عروة واحسن ثقة وفعلت وفعلت ويذكر ما قام به من جليل الاعمال ثم يقول اذهبوا به الى اعلى عليين وينادى هاتوا عمر ويتقدم رجل اخر فيقول: جزاك الله خيرا. وهكذا ياتي عثمان ومعاوية وعلي ويزيد وعمر بن عبد العزيز ثم العباس ويحاكم كلا بفعله. وما اشبه هذه البذور المسرحية الاخلاقية بالبذور التي نشأ منها المسرح الاوربي الوسيط حين مثل القصص قصصا مستمدة من السير الدينية لتهذيب النفوس والحث على الفضيلة.

ويسجل المؤرخون انه كان في عصر « المعتضد العباسي » رجل اسمه « ابن المغازلي » ممن يقصون على الناس ويشفعون قصصهم بمحاكاة الصفات والخصائص وكان حاذقا في صناعته لا يستطيع من يراه ويسمعه ان يمسك عن الضحك وقد مثل بين يدى « المعتضد » شخصيات من اجناس وطبقات مختلفة للاعرابي والمكي والتركي والنحوى والزنجي فكان الخليفة يضحك حتى يفحص الارض بقدميه «١٤» .

«١٣» جميل سعيد ، (نظرات في التيارات الادبية الحديثة في العراق) .

«١٤» الفن المسرحي ص ٣١٢ ، عن مسرحيات عزيز اباظه ص ٣٩ ، توفيق البكري ، صهاريج اللؤلؤ ص ٢٨٥ .

وكانت هناك ايضا ظواهر درامية تمثلها روايات خيال الظل «١٥» التي كان يمثل فيها فعل القصة عن طريق الحوار المكون من الشعر والزجل والسجع وقد اثر الشيخ مسعود وعلى النحلة وداود العطار الزجل .

اما ابن دانيال الموصلي «١٦». فاثر الشعر والسجع. وقد دارت موضوعات خيال الظل حول حوادث واقعية وصورت شخصيات معاصرة فقد صورت رواية « غريب وعجيب » لابن دانيال ثلاثين شخصية لاصحاب الحرف الذين زخرت بهم اسواق القاهرة ووصفت لكل امرىء مهنته وصفا فكاهيا. ولابن دانيال رواية مشهورة « طيف الخيال » وبطلها الامير وصال وتابعه طيف الخيال الاحدب القصير القامة ويحلل الكاتب هاتين الشخصيتين تحليلا

"١٥" خيال الظل من ملاهي القصر منذ العصر الفاطمي وقد ورد ذكرها بكثرة في العصر الايوبي وان (طومان باى) اخر سلاطين المماليك طلب الى صاحب خيال الظل ان يمضي معه الى اسطنبول وذكر المؤرخ ابن اياس ان السلطان (جقمق) اصدر امره بحرق خيال الظل عام ١٤٥١ . ويقول صاحب (شفاء الغليل) تثبت الشواهد التاريخية انهم كانوا يطلقون اسم (الشخوص) على الرسوم التي تمثل الشخصيات او الابطال وكانوا يطلقون كلمة (البابة) على كل فصل من فصول الروايات التي يمثلها خيال الظل وكانوا يطلقون كلمة (المخايل) او (الخيالي) على من يدير شان هذه اللعبة التمثيلية ، وكان خيال الظل معروفا في العراق قبل مصر فقد ورد عن مظفر الدين صاحب اربل بالعراق المتوفى عام ٦٣٠ هـ انه كان يستعد كل عام للاحتفال بذكرى المولد (فاذا كان اول صفر زينوا تلك القباب بانواع الزينة الفاخرة المتجملة وتعد في كل جوق من الاغاني وجوق من ارباب الخيال واصحاب الملاهي فكان مظفر الدين ينزل كل يوم بعد صلاة العصر ويقف على قبة ويسمع غناءهم ويتفرج على خيالاتهم وما يفعلون في القباب) عن ابن خلكان في ترجمته لمظفر الدين صاحب اربل العراق ، عادل ابو شنب ، مسرح عربي قديم ص ٢٧ – ٢٨ . وخيال الظل لعبة تتخذ شخوصها من جلود وتحرك بعصا من وراء ثوب ابيض مشدود فيظهر خيالها فيه .

"١٦" هو الشيخ شمس الدين ابو عبد الله محمد بن يوسف الحراني الموصلي الحكيم الكحال كان كثير النوادر والرواية . ولد في الموصل عام ١٢٤٩ وتوفي عام ١٣١٠ (عباس العزاوي تاريخ الادب العربي في العراق ٢٦٣ – ٢٦٤) .

واشهر رواياته " طيف الخيال " و " عجيب وغريب " و " المتيم " وهي تتعلق بعشق المتيم للمتيم ، وقد اشتملت على اشياء ممتعة منها تحريش الديوك على القتال ونطاح الكباش والثيران بقصد الفرجة والتسلية (محمد بن دانيال الموصلي ، ثلاث مسرحيات عربية ص١١).

طريفا ولا سيما ما في الشخصية الاولى من مواطن الضعف وما في الشخصية الثانية من شذوذ مصوّراً ذلك في اطار اجتماعي معاصر وتتلخص القصة في خاطبة تخدع الامير وتحدثه عن عروس ذات جمال ومال وبعد ان يتزوجها الامير يجدها شوهاء قبيحة .

وكانت هذه القصص ذخيرة شعبية بسيطة في موضوعها بسيطة في تشخيصها طريقة في حوارها لتلائم الذوق الشعبي المعاصر. وكانت تهدف من حيث المبدأ الى الاضحاك فان ذلك لم يمنعها من ان تتعرض للحياة السياسية والاجتماعية بل الاقتصادية اليومية تعرضا مباشرا وكان تعرضه للقضايا السياسية بصورة صريحة وجريئة. ويلتزم في بعض الاحيان وبعض الاقطار جانب الحاكم الا انه في اقطار اخرى يلتزم الجانب المضاد. واكثر ما تعرض له خيال الظل . الناحية الاجتماعية وتناولت المشاكل والعيوب والناس تناولا كاريكاتوريا حينا وناقدا حينا اخر وبطريقة ولغة ارتفعتا عن البذاءة مرة وانخفضتا اليها مرات .

واذا كانت السياسة والنقد الاجتماعي هدفين من اهداف خيال الظل فأنهما لم يكونا هدفين مجردين وضعا في قالب نصح ووعظ ممجوجين بل انهما وضعا في قالب من الضحك والنكتة والهزل والموسيقى والاغاني ويشكلان احيانا تطورا بالقصة المروية.

وتشكل حوادث خيال الظل تتابعا منطقيا على الرغم من عدم منطقية الانتقال من حادث الى حادث ومن شخصية الى اخرى وغالبا ما تشكل الاحداث بتتابعها ارتباطا عضويا. «١٧»

واصطنع ابن دانيال لغة بين الفصيح والعامي واستغل التورية والجناس والمقابلة وسائر انواع الزخارف اللفظية والمعنوية فحقق بذلك شاعريته وساير في الوقت نفسه امزجة الاوساط والعوام جميعا وكان يترخص في قوانين الاشتقاق

«١٧» يروي جاكوب لاندوفي كتابه. Studiesim the Arabe Theatre and Cinema:
(ان مسرح خيال الظل كان يرافقه اثنان على الايقاع وواحد على الزمار وواحد على الطبل)
عادل ابو شنب ، مسرح عربي قديم ؟ ص ١٨٧ .

والتصريف ويتحرر الى حد ما من قواعد النحو واصول النظم ولعله جرب المزاوجة بين الاطر التقليدية الفصيحة وبين الاشكال العامية الغلابة في عصره وبابات ابن دانيال تشبه الى حد ما المقامة في طورها الاخير والباعث على هذا التشابه هو ان التمثيل تقوم به شخصيات مصورة او مشكلة الى جانب الحديث البشري . كما اننا نجد في المقدمات التي وضعها ابن دانيال لتمثيلياته ما ينبئ ولو بطريق غير مباشر بان هذا المؤلف التمثيلي لم يغفل عن التدوين أي ان باباته يمكن أن تقرأ ويمكن أن تمثل واصبحت تمثيلياته المدونة ادنى الى المسرحيات المكتوبة «١٨». وبعد، هل تدخل بابات خيال الظل في اطار المسرحية الفنية؟«١٩» يقول ارسطو:«٢٠» انشعر الملحمة والمأساة ومعظم اللعب بالناي والعود كلها بشكل عام وسائل للتقليد ولكنها تختلف فيما بينها في الاداة التي تستخدمها للتقليد فبعضها يستخدم الشكل واللون وبعضها يستخدم الاصوات وبعض ثالث يستخدم اللغة والايقاع والنغم وغير ذلك . ومعنى هذا ان كل تقليد لافعال مصورة لعواطف الانسان واخلاقه لا يعد مسرحية فالتقليد اشكال مختلفة يأخذها واحد هذه الاشكال، هو المسرحية. ثم ان المسرحية تقليد لاشياء انسانية مثل العواطف والاخلاق والانفعالات والافعال وهي تتخذ لها اشخاصا حقيقيين وهم الممثلون - ادوات بجانب اللغة - لكي يعرضوها حتى يبدو الفعل المسرحي كانه فعل حقيقي يحدث في واقع الحياة. اما خيال الظل فتنقصه هذه الصفة ولان الاداة العارضة له ليست الشخصية الانسانية التي تعرض الفعل المسرحي على المسرح والنظارة. كما تنقصه صفة اخرى من صفات المسرحية فهو قصص ممتعة مسلية ولكنه ليس صراعا ينتهي الى نتيجة اوحل ويؤدي

«١٨» عبد الحميد يونس ، خيال الظل ص ٦١ - ٦٢ .

«١٩» لو اننا تمعنا قليلا فيما قاله الايطالي بيلزوني من انه (حضر مسرحيات في القاهرة عام ١٨١٤ كان الممثلون فيها يمثلون مسرحية (الحجي والجمل) وكان حوار هذا المسرح بذيئا للغاية وشبيها لما يعرض في خيال الظل) في ذلك الوقت لاستطعنا ان نجد الخيط الذى يصل ما بين مسرحيات العادى الذى ورثه العرب عن فرنسيي حملة نابليون بايجاد هذا الخيط يمكن ان يتصل الارث المسرحي عند العرب ويتكامل .
جاكوب لاندو ، المصدر السابق ، عن عادل ابو شنب ، مسرح عربي قديم ص ٢٠٨ .

«٢٠» ارسطو ، فن الشعر ، الفصل الاول ، ترجمة عبد الرحمن بدوى .

كل ذلك شخصيات انسانية .

اما « القرقوز » فهن اقرب الى التهريج الشعبي من خيال الظل والظاهر ان تمثيلياته لم تكن إلا مرتجلة او محفوظة ولذلك لا نظن انه قد دون منها شيء او الفت تمثيليات تكون كل منها وحدة متماسكة على نحو ما هو موجود في بابات خيال الظل «٢١» .وهو فن لم يكن يثير غير الضحك ولا نظن انه كان يسعى ان يحرك مشاعر أو بنية تفكيرا.

وذا كنا لم نستطع ان ندخل خيال الظل وباباته في مجال المسرح او الادب التمثيلي فاننا من باب اولى لا نستطيع ان نفعل ذلك مع تهريج القرقوز. وقد عرف العرب ايضا انواعا من الالعاب الدرامية التي تعتمد على الفعل والحوار والقصة مثل لعبة علم وتعادير ولعبة السماح» ولعبة ابي جعفر ولعبة الشوني ولعبة الاوحدى ولعبة الحجية «٢٢» .ولعبة ولعبة التياترو وهي لعبة مستحدثه تقترن بالاعراس وما يصاحبها من البهجة والسرور . والالعاب ايضا نوع من القصص يشترك بعض الناس في تشخيص بعض احداثها وعرضها على الناس في اماكن اجتماعهم عندما يفرغون من اعمالهم ويخلصون الى انفسهم من عناء الحياة ولكن احداثها لا تستطيع ان تكون كلا مترابطا تتحكم فيه حبكة وتتصل مواقفها اتصالا منطقيا وتؤدى هذه الافعال والمواقف شخصيات تقوم بافعالها وبأداء الفعل المسرحي كما هو الحال في المسرحية. كل هذه البذور المسرحية التي نشأت في ميدان القصص او كانت وسيلة من وسائل الوعظ الديني والاخلاقي لم تستقل بنفسها وتتطور في مجال مسرحي تمثيلي بالمعنى الحديث. حقا وجدت في الجاهلية عبادة الاوثان ولكن الاوثان الجاهلية لم تكن آلهة توحي كما كانت ربات الالهة عند الاغريق.

حقا لقد اتصلت الحضارة الاسلامية بالحضارة الهيلينية في العصر العباسي مثلا ولكن الادب المسرحي لم يستهو نفوس العرب.

«٢١» محمد مندور ، المسرح ص ٢٤ .

«٢٢» راجع . عبد الحميد يونس ، خيال الظل ص ٨٢ — ٩٢ . احمد تيمور ، خيال الظل واللعب والتماثيل المصورة عند العرب ص ٢٣ — ٢٩ .

ولعل اسباب الانصراف عن هذا الفن عند العرب يعود الى طبيعة الجنس العربي والبيئة التي عاش فيها واثرت في تكوينه وتوجيه نشاطه الفني. فبيئة العربي بسيطة منبسطة تشجع فيه الاهتمام بالجزئيات ولا تثير فيه حب التركيب والتاليف والخلق «٢٣».

كما يعود الى دينهم فالوثنية الجاهلية بدائية في جوهرها ولم تتطور خلال الزمن تطورا يصل بها الى مثل الكمال الذي وصلت اليه في الوثنية اليونانية وخاصة في علاقتها بالانسان وتصرفاته ومن ثم لم يكن من الممكن ظهور مسرح ديني ثم مسرح دنيوي يصور هذه العلاقات بين الالهة والناس . كما ان قسوة الطبيعة وفقرها شغلت الناس بشؤون معاشهم من مأكل ومشرب عن حاجات الفكر ومتع الروح ودراسة الشخصية الانسانية والعوامل التي تتحكم فيها . كما شغل المسلمون في اول امرهم بالقضاء على الوثنية واثارها فحرم صنع التماثيل وان خلق الشخصيات الوثنية يشبه صنع التماثيل المحرمة .

ثم شغل بعد ذلك بدراسة دينهم ومناهضة اعدائه فانصرفوا عن دراسة الانسان واخلاقه وعواطفه الى دراسة ميتا فيزيقية لمصدر الانسان والطبيعة. وهذا يفسر انصراف العرب عن الادب اليوناني الانساني في عهد الترجمة «٢٤» الى الفلسفة والعلوم لانهما عالميان بينما الادب قومي ولان الفلسفة والعلوم نتاج العقل والعقل قدر مشترك بين الافراد والامم وان اختلفوا في انطباعهم عنه. والمنطق الذي يضبط هذه العلوم يستسيغه عقل الناس جميعا اما الادب فلغة العواطف وليس للعواطف منطق يضبطها .

وبالاضافة الى ان الادب اليوناني ادب وثني فيه الهة متعددة ، وفيه عبادة ابطال والذوق العربي حين ترجمت هذه الكتب ذوق مسلم لم يستسغ هذا

«٢٣» محمد مندور ، مسرحيات شوقي ص ٤٥.

«٢٤» زكي طليمات ، التمثيل ولماذا لم يعالجه العرب ، مجلة الكتاب نوفمبر ١٩٤٥ ص ١٠١.

النوع من الادب الوثني «٢٥»

ان التمثيل وادبه بضاعة جديدة استوردناها في نهضتنا مع ما استوردناه من فنون الادب والوان الحياة اذ لم يعرف العرب القدامى هذا الضرب من الادب بمد لوله الفني الحديث وان وجدنا في بعض اثارهم بذورا له نجد هذه البذور في بعض الطقوس الدينية كتلبية «عك» اذ روى «الكلبي» «٢٦» ان قبيلة عك اذا خرجت للحج قدمت امامها غلامين اسودين من غلمانها يقولان « نحن غرابا عك . فتقول عك من بعدهما :

عك اليك عانيه عبادك اليمانيه

كـــيما نحج الـــثانيه

وفي تشبيه مقتل الحسين عند الشيعة وفي غيرهما مما اورده مؤرخو الادب العرب .

وخارج الحقل الديني لا نجد الا ما عرفه العراقيون والمصريون من خيال الظل واشهر من الف له ابن دانيال الموصلي . وما كان يقوم به بعض الندماء والمضحكين في مجالس الخلفاء لتسليتهم .

واذا رجعنا الى الشعر العربي وجدنا بعض الحوار في قصائد بعض الشعراء ومن هؤلاء « امرؤ القيس وعمر بن أبي ربيعة وجميل بثينة ووضاح اليمن وابو نواس وابن الرومي وابو فراس وغيرهم » الا انها لا تحتوي من الادب التمثيلي الا الحوار وليس فيها من مقومات هذا الفن شيء اخر .

ولا يخلو القران من الحوار واشهر ماجاء منه كان في قصة مريم ويوسف وقصة موسى وفتاه وحديث ابراهيم وابيه .

ولا تخلو المقامات من بعض المواقف الحوارية الا انها بعيدة كل البعد عن ان نعتبرها مسرحية بالمعنى الحديث وان غلا بعض المؤرخين في تقدير قيمتها التمثيلية .

«٢٥» احمد امين ، ضحى السلام ، ج ٢٥٩١ .

«٢٦» الكلبي ، الاصنام ص ٧ ، الطبعة الثانية .

وقد كان لفن المقامة شان مهم في تطوير الادب القديم فقد احس الكتاب بضعفهم اما هجمات اللغة العامية التي شاعت في السير الشعبية كأبي زيد الهلالي وسيرة عنترة والاميرة ذات الهمة وعلي الزئبق وغيرها فحرصوا جهدهم على ان يكتبوا فصيحا فاندفعوا ينتقون الكلمات انتقاءا ويتخيرون الاساليب تخيرا وتمادوا في ذلك كثيرا ومن هنا شاعت المحسنات اللفظية وظهرت قواعد جديدة في البلاغة تعتمد على التزويق والبرقشة وتعشقوا الالفاظ المهجورة والاساليب الغريبة . في ذلك الجو نشأت المقامة وكان العصر عصر قلق واضطراب وفتن وحروب فجاءت المقامة صورة صادقة معبرة عن هذا كله . نجد فيها تعقيدا لغويا يعبر عن التعقيد السائد في المجتمع ونجد تكلفا في الاكثار من المحسنات البديعية ليعبر عن روح التكلف وعدم الاكتفاء بالمحدود في حياة السكان ونجد السخرية اللاذعة بين السطور تعبيرا عن الالم الذي ساد طبقات المجتمع من جراء الفوضى التي كانت سائدة عندما تسلط الاتراك وغيرهم على العرب كما نجد النفاق في حياة بطل المقامة يعبر عن نفاق المجتمع كله حاكمه ومحكومه . «٢٧»

ومنذ نشأة المقامة في القرن الرابع الهجري هي عبارة عن لوحة لها اربعة اضلاع لاتستغنى عن واحد منها بأحد هذه الاضلاع تمثل الرواية والشكل معا والثاني يمثل السجع والمحسنات البديعية والثالث يمثل معالجة المشاكل الطبقية والاقتصادية والفقهية واللغوية والنحوية والادبية والرابع يمثل الموضوع . وهذا الضلع الرابع هو الذى يتغير فمرة يكون الموضوع الكدية كما في مقامات الهمداني والحريرى ومرة يكون الموضوع وعظيا بحتا كما في مقامات الزمخشرى وقد يكون الموضوع علميا اوجدليا كما في بعض مقامات السيوطي .

ويقوم الشكل الفني للمقامة على حادثة قصيرة يتخللها حوار . وتقص مغامرة

«٢٧» شوقي ضيف : المقامة ص ٨ - ١٠ .

يرويها راو عن بطل ويصف تنقلاته ومشاهداته واعماله ويحكي اقواله كل ذلك في اسلوب جزل انيق مسجوع. والراوي والبطل يتكرران في كل مقامة وهما الرابط الوحيد او الوحدة الواحدة بين المقامات كلها. والبطل في معظم المقامات محتال يمتاز بسرعة وسعة علمه غير مستقر في مكان واحد وعليه تقوم حوادث المقامة. والبطل في مقامات البديع والحريري يتخذ اشكالا ويظهر في احوال مختلفة قد يكون ناقدا اجتماعيا او سياسيا او ادبيا او لغويا ولكنه اديب بليغ حاضر البديهة يرتجل الكلام المطابق لمقتضى الحال منثورا ومنظوماً ويستشهد بالمأثورات من ايات واحاديث وحكم وامثال واشعار.

ويعطينا كل من ابي فتح الاسكندري بطل البديع وابي زيد السروجي بطل الحريري نموذجا للاديب البائس في ذلك العصر الذي يحتال على كسب الرزق بالادب والشعر وبغيرهما فهو يرى ان الزمان قد حرمه واعطى غيره ممن لا يستحقون فلا بأس عليه ان يحتال ويلبس لكل حال لبوسها ويدور مع الزمان وتشتمل المقامات على وصف للعادات واحوال الناس في عصرها.

وتوجد الحركة في المقامة كما يوجد الحوار الذي يتم بينهما في صورة من الصور فيدفع بالحدث الى الامام. ويمكن ان نلاحظ في المقامة ايضا التصميم في الشكل والفكرة – وخاصة عند الحريري – كما نعثر على العقدة والاسلوب والمفاجاءة والعرف القائم على التشويق مع ارتباط وثيق بالحياة الاجتماعية كل ذلك يقربها من القصة في شكل من اشكالها «٢٨». هذه بعض بذور المسرحية في ادبنا العربي القديم الاننا لا نستطيع ان ندعى انها كانت أثاراً مسرحية واضحة تتفق وشروط هذا الفن في عرف النقد الحديث. واذا فرغنا من تقدير هذه الحقيقة فليس لنا الا عصر النهضة نبحث فيه عن تاريخ هذا اللون من الادب. ففي هذه الحقبة من الزمن كانت الظواهر

«٢٨» شوقي ضيف، المقامة ص ٨.

المسرحية قد نضجت نضجا تاما وقربت قربا شديدا من العرض المسرحي فالاشكال الشعبية التي كانت سائدة كالقرقوز. وخيال الظل وصندوق الدنيا والقصاص «٢٩» والاحتفالات الدينية المعروفة كحلقات الذكر والاناشيد والاغاني ورقص السماح كانت كلها تقوم مقام المسرح فهي بمثابة تمهيد ضروري لظهوره.

وقد ظهر المسرح بالمعنى الحديث في الوطن العربي أول ماظهر في مصر في اوائل القرن التاسع عشر في عهد الحملة الفرنسية التي وصلت الى مصر عام ١٧٩٨ فقد جلب نابليون معه من كبار الموسيقيين الفرنسيين – فيكتور ريجل – وعني نابليون بشؤون التمثيل ترفيها لجيشه الفرنسي ومثلت روايتا «الطمأنينة» و «زليس وفللكور». ولما رحل نابليون عن مصر عام ١٨٠١ انطوت صفحة هذا المسرح الغريب ولم يؤثر تاثيرا ملحوظاً في الحياة القومية او الفكرية العربية. «٣٠»

وتكاد اراء الباحثين تجمع على ان اول من حاول هذا الفن في نهضتنا الحديثة محاولة جدية مارون النقاش «٣١». ١٨١٧–١٨٥٥ اذ قدم في بيروت اول مسرحية له عام ١٨٤٧م باسم «البخيل» ثم قدم عام ١٨٤٩ مسرحيته الثانية «ابو الحسن المغفل –او هارون الرشيد» في بيروت ايضا واتبعها بمسرحية «الحسود». وكان مارون يؤلف المسرحية ويلحنها تلحينا يلائم مواقفها المختلفة. وقد وقد وصف سليم النقاش الذي حمل رسالة مارون فيما بعد الى مصر عمله هذا بقوله

«٢٩» القصاص : كانوا يجلسون في المقاهي على مرتفع خشبي صغير ويتحلقهم رواد المقهى يستمعون اليهم وهم يروون قصة عنترة او الزير او حمزة البهلوان او غيرهم باسلوب خطابي تمثيلي يجسد المقروء قدر الامكان ويتحزب الرواد لابطال الحكاية وكثيرا ما كان يحدث الشجار بينهم بسبب انفعالهم بلهجة القاص المؤثرة وما زالت بعض المقاهي في العراق تستضيف القاص وله عدد كبير من الرواد.

«٣٠» محمود حامد شوكت، الفن المسرحي ص ١٤ . محمد يوسف نجم . المسرحية في الادب العربي الحديث ص ١٨ . زكي المحاسني . نظرات في ادبنا المعاصر ص ٧٩.

«٣١» المصادر السابقة ،عبد الله الجبوري ، نقد وتعريف ، محمود تيمور ،المسرح العربي .

« من ادخله – الفن المسرحي – الى بلاد الشرق في اللغة العربية وهو المرحوم عمي مارون النقاش. فانه حين ساح في اوربا ودوخ اقطارها راى حال الروايات عندهم وما تجنى منها بلادهم من الفائدة والانتفاع فحملته الغيره الوطنية على ادخاله الى بلاده فعاد اليها وألف روايات لا ينتظر مثلها من مؤلف في فن لم يكن يعرفه غيره من ابناء وطنه. ولما رأىّ عدم ميل ابناء وطنه الى هذا الفن المفيد نظرا لعدم معرفتهم بمنافعه زاده فكاهة فجعل في الرواية الواحده شعرا ونثرا وانغاما عالما ان الشعر يروق للخاصة والنثر تفهمه العامة والانغام تطرب ولا حاجة الى ذكر ما تكبده من المصاعب والاتعاب في بادئ الامر حتى حمله الاعياء الى القول في احدى رواياته: ان دوام هذا الفن في بلادنا امر بعيد على انه اجهد نفسه فى جعل رواياته ادبيه محضه قاصدا بذلك تهذيب ابناء وطنه فاتى بالمطلوب من الروايات لانها انما تفيد اذا كانت ادبيه ترغب في الفضائل وتنهى عن الرذائل . » «٣٢».

ان القارىء لهذه المسرحيات يدرك ان مارون لم يستهدف الترجمة وانما التعريب لما يلائم الذوق المحلي وقد برز ذلك في تلك المقطوعات الغنائية التي اوردها في التمثيل ليغنيها المغني ارضاء للجمهور.

وقدم المهاجرون الشوام الى مصر بعض الفنون الادبية التي لم تكن البيئة المصرية قد تعرفت عليها بعد وقد اتجهت اغلب جهودهم في هذه الناحية الى ميدان المسرح وكانت الروايات التي قدموها تكشف عن كون هذه الظاهرة لم تتأصل بعد فيها واغلب هذه الروايات كانت مترجمة بصورة مشوهة لتلائم ذوق عصرهم .

واغلب الظن ان سليم النقاش الذي انتقل الى مصر بعد انشاء دار الاوبرا هو الذي نقل التمثيل من سوريا الى مصر ففي المسارح اخرجت فرقته مسرحيات فرنسية ممصره في مقدمتها « اندروماك » و « الظلوم » . وابرز شخصية في

«٣٢» سليم النقاش ، فوائد الروايات او التياترات ، مجلة الجنان ١٨٧٥ ص ٥٢١ . لبنان.

التاليف المسرحي في تلك الفترة هي شخصية يعقوب بن روفائيل «الملقب بسانوا ابو نظاره» الذي اسس اول مسرح مصري بالقاهره واشتهر بأسم مولير مصر وقد وضع اثنين وثلاثين رواية هزلية اكثرها من فصل واحد ومنها ما وضع في خمسة فصول وقد مصر فيها لا مسرح مولير فحسب وانما المسرح الكلاسيكي الفرنسي وبعض المسرحيات الاوربية وحور في شخصياتها وحوادثها تحويرا كبيرا بما يتفق والذوق الشعبي المصري ممثلا في ألف ليله والمقامه بل استعمل اللغة الدارجة في التمثيل ولكنه نجح في اجتذاب الجمهور الى مسرحه اذ صور عيوب المجتمع الذي عاصره وبذلك يكون ابو نظاره مؤسس المسرح الفكاهي الشعبي الناقد «٣٣» .

ولا نعرف للتمثيل تاريخا في سوريه قبل ظهور احمد ابي خليل القباني فيها عام ١٨٦٥م «٣٤» وان كنا نعرف انه كان من عاده مدارس الارساليات في القرن الماضي ان تقدم مسرحيات عربية يمثلها الطلبة في نهاية العام الدراسي ولا بد ان دمشق شهدت شيئا من هذا التمثيل ونحن نقدر ذلك تقديرا رغم اننا لم نعثر على خبر يقطع بوجوده في سورية .

ونبني تقديرنا على شيوع هذا التقليد في مدارس الارساليات في لبنان ولا يستبعد ان يكون الامر كذلك في مدارسها في سورية وقد كانت ترمي من وراء ذلك الى اهداف تربوية وثقافية ودينية . «٣٥»

اما في العراق فقد كان العثمانيون يحكمونه انذاك وكانوا قد عرفوا المسرح ومارسوا التمثيل منذ اواخر القرن الثامن عشر . وكانت عاصمة العثمانيين قد شهدت نشاطا مسرحيا ملحوظا في القرن الماضي وذهب العراقيون الى

«٣٣» عبد المحسن طه بدر ، تطور الروايه العربية الحديثه ، ٣١.

«٣٤» محمد يوسف نجم ، المسرحية في الادب العربي الحديث ، زكي المحاسني ، نشرات في ادبنا المعاصر .

«٣٥» علي الزبيدي ، المسرحية العربية في العراق ، الاقلام العدد ٩ ، ١٩٦٦.

أسطنبول للدراسة ثم عادوا الى العراق وقد تاثروا بمشاهداتهم هناك. «٣٦» كما ان العلاقات السياسية والتجارية والفنية كانت وثيقة بين بغداد والموصل وحلب ودمشق ووردت من بلاد الشام الى العراق فرق قامت بالرقص والغناء وقدمت بعض المشاهد التمثيلية. «٣٧» وكانت حلب والشام تعرف التمثيل في اواخر القرن التاسع عشر كما كانت بيروت سابقة في هذا المضمار في النصف الاول من القرن الماضي. كما مر بنا سابقا.

اضف الى هذا كله وجود علاقات ثقافية ودينية بين الكنائس والمدارس المسيحية «٣٨» في الموصل وبغداد والاوساط الدينية المسيحية في لبنان وروما وباريس. وكان بعض العراقيين يذهبون للدراسة في اوربا ثم يعودون للعمل والتدريس في المدارس المسيحية العراقية. وقد عنيت المدارس المسيحية ولا سيما المدرسة الاكليركيه التي اسسها الاباء الدومنيكان «٣٩» في الموصل عام ١٧٥٠م بالفن المسرحي في الاطار المدرسي. وكان طلاب المدارس المسيحية يقدمون المسرحيات التي يؤلفها زملاؤهم اللبنانيون في مدارس بيروت ويؤلفون هم انفسهم البعض الاخر من المسرحيات التي يمثلونها.

«٣٦» متن اوند، تاريخ المسرح والمسليات في تركيا. عن علي الزبيدي، المصدر السابق.

«٣٧» عبد الكريم العلاف، بغداد القديمة.

«٣٨» اول بعثة ارسلها البابا غريغوس التاسع عام ١٢٣٧م من الرهبان الدومنيكان يترأسهم الاب فيليب ثم قدم الاباء الفرنسيون. ومنذ عام ١٦٢٢ اتى العراق الرهبان الكرمليون. رفائيل بابو اسحق، تاريخ نصارى العراق ص ١٢٤ - ١٢٥.

«٣٩» اتى الاباء الدومنيكيون الموصل عام ١٧٥٠ م يتقدمهم الابوان الايطاليان فرنسيس طورياني وعبد الاحد ديكنشيّ واخذا يتعلمان لغة البلاد ويطببان الاهلين وبعد متاعب جمه وشدائد وافره شيدت في الموصل كنيستان كاثوليكيتان احداهما كلدانية والاخرى سريانية. المصدر السابق ١٢٩ - ١٣٠ كما ان المرسلين الدومنكين اسسوا مطبعة سنه ١٨٦٠م لطبع الكتب المدرسية بالعربية والكلدانية والفرنسية وفتحوا مدارسهم لمختلف الطوائف وكان للراهبات المعروفات باخوات المحبة اثر في تعلم المرأة بالموصل اذ فتحت مدارس للاناث عام ١٨٧٣ وكن يتقبلن المسلمات والمسيحيات. (ابراهيم الوائلي، الشعر السياسي في القرن التاسع عشر، ص ٩٩.)

ومن الطبيعي ان يتأثروا بالاتجاه الذي سار عليه اؤلئك المؤلفون وبالاسس الفنية والادبية التي بنوا عليها انتاجهم المسرحي وتاريخ المسرحية العربية في مصر والشام يبين لنا ظهور المسرحية العربية التاريخية وتقدمها على سائر الانواع الاخرى منذ التفاتة مارون النقاش رائد المسرح العربي الى تراثنا العربي يوم وضع مسرحية هارون الرشيد. وهذا الالتفات العام نحو التاريخ الذي كان من بواعثه حالة التدهور التي تردى بها العرب في عهد الحكم العثماني اصبح وسيلة من الوسائل التي اصطنعها بعض الكتاب لاثاره العداء ضد الاتراك العثمانيين. كما كان اكبر جانب من التراث المسرحي الاوربي متمثلا في المسرح الكلاسيكي الذي كان يعتمد على تاريخ اليونان والرومان وياخذ منه موضوع مسرحياته ولم يتغير هذا الاتجاه في القرن الثامن عشر بل وسع الكتاب المسرحيون الدائرة التاريخية التي يعتمدون عليها واستقوا موضوعاتهم من تواريخ الامم الاخرى وكان الهدفان الديني والاخلاقي هما اللذان دفعا القسس في العراق الى وضع المسرحيات التي تدور في اطار الاحداث الدينية التاريخية المنتزعة من العهدين القديم والجديد. وقد عثرنا على مخطوطه «٤٠» تحتوي على ثلاث مسرحيات قصيرة كتبها القسيس « حنا حبش » في الموصل عام ١٨٨٠ .

والمسرحيات هي كوميدية«٤١»ادموحواء وكوميدية يوسف الحسن وكوميدية طوبيا ». كما الف الخوري هرمز نورسو الكلداني الماردينلي مسرحية نبوخذ نصر «٤٢» عام ١٨٨٦ م ومثلت على مسرح المدرسة الاكليركية في الموصل عام ١٨٨٨ م وهي اول مسرحية حديثة تمثل على المسرح في العراق. وتوالت المسرحيات التي ألفها قسيسو الكنائس العراقية منذ ذلك التاريخ وكانت البذرة

---

(٤٠) عثرت على هذه المخطوطة في مكتبة الاب توما عزيزو .

(٤١) المسرحيات الثلاث القصار ليست كوميدية ولكنها مأسوية ويظهر ان المؤلف عندما اطلق عليها اسم "كوميديه" لم يعرف معنى هذه الكلمة ، وأنه يريد بها " مسرحية " .

(٤٢) النص مفقود ولم اعثر عليه رغم محاولاتي العديدة . وقد طبعت المسرحية في لبنان من قبل الكنيسة الكلدانية هناك .

الاولى في التأليف المسرحي العراقي ولكنها لم تخرج عن نطاق التمثيل في المدارس المسيحية الاهلية التابعة لهذه الكنائس. واخر مسرحية تؤلف في العراق وفي اطار ديني مسيحي ومن قبل قسس مسيحيين مسرحية « المجزرة الاولى » للأب يوسف سعيد عام ١٩٥٧ م؛

بالاضافة الى عدد غير قليل من المسرحيات المترجمة عن الفرنسية والتي قام بترجمتها رعايا هذه الكنائس من العراقيين او اللبنانيين والتي مثلت في المدارس المسيحية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر وحتى الثلث الاول من القرن العشرين وانحصر نشاط القسس في التأليف والترجمة في نطاق مدينة الموصل مدة طويلة ولكن هذا النشاط سرعان ما انتقل الى بغداد خلال العقد الاول من القرن العشرين. « ٤٣ »

ان هذه التمثيليات الكنسية تطور طبيعي للطقوس والقداس الكنسي. ففي بادى الامر كانت المسرحية الدينية مجرد جزء من قداس الكنيسة. وهو نفسه تصوير رمزي مسرحي للعشاء الاخير. وقد ادخلت الكنيسة الكاثوليكية الاناشيد في القداس وكان هدف الكنيسة تثبيت عقيدة الشعب الأمي وتقويتها لذا فكروا في تصوير احدى الحوادث لجماهيرهم بتلك الوسيلة البراقة وسيلة تشخيصها. ومن امثالها المسرحية الدينية التي تناولت ميلاد المسيح اذ يدخل الملوك الثلاثة من شرق وشمال وجنوب الكنيسة على التوالي ويسيرون حتى يتلاقوا عند مذبح الكنيسة ثم يرتلون كلمات تصف اعمالهم وهم ينشدون، ويتكون موكب يسير قدما الى صحن الكنيسة بينما ترتل جوقة الترتيل وتضع نجمة على المذبح ويقترب منها الملوك الثلاثة ويتبع ذلك حوار بينهم. وينام الملوك ويوقظهم ملك يخبرهم بان يعودوا الى ديارهم من طريق اخر. ثم يتجمع الموكب من جديد ويتبع ذلك القداس ولقد كانت صلوات الكنيسة تشتمل ومنذ نشأتها تقريبا على العناصر المساعدة التي تسهم في تكوين المسرحية من حركة طقسية مرسومة وتنظيم مسرحي

(٤٣) علي الزبيدي، المصدر السابق.

اخاذ ومصاحبات موسيقية بل اقتراب نحو الحوار في انشاد ترتيلي يجرى بالتناوب بين قسمين « الكورس » حين يجاوب احدهما الاخر ثم يتلاشى الغناء او الانشاد ليحل محلهما الكلام العادى وتتحول الحادثة المفردة، فتصبح سلسلة من الحوادث الى ان تهئ مجموعة مواد عيد الفصح ، جميع المواد اللازمة لمسرحية الالام الحقيقية ومجموعة مواد عيد الميلاد .

وكانت الفترة التي ظهرت فيها المسرحية الكنسية في العراق فترة استفحال ظلم العثمانيين وسيطرتهم عليه وتاخر الشعب العراقي عن موكب الحضارة الحديثة . فقد كان الحكم العثماني في العراق يعاني من ازمة تردى الجهاز الادارى ومن كيد الدول الاوربية بغية الاستيلاء على اسلاب الامبراطورية . وكان نظام الاقطاع في العراق يعاني نفس الازمة التي يعانيها اسياده الحكام العثمانيون فقد كان يلفظ انفاسه الاخيرة . امام تزايد اهمية التجارة والصناعة وتطورهما، وامام ظهور الطبقة المتوسطة التي اخذت تطالب بمكانها تحت الشمس . وكما كان تسعة وتسعون في المئة عبيدا من الناحية السياسية فقد كانوا عبيدا من الناحية الفكرية والدينية . فقد ازداد الصراع الديني والمذهبي في العراق . وكان المسيحيون يعاملون بقسوة وتعال من قبل المسلمين ولا سيما في الموصل التي كانت تضم اكبر عدد من مسيحيي العراق . مما زاد في التفاف المسيحيين حول كنائسهم وزاد من عدد الجاليات التبشيرية التي قدمت العراق وراحت تصرف الاموال الطائلة في محاولة يائسة لنشر الديانة المسيحية بين الاقليات اليزيدية والصابئة .

وقد شجعت الكنيسة على الايمان بان هذه الحياة ليست الا مجرد ممر قصير وسط واد من الدموع يجب على الانسان خلاله ان يستعد لما هو بالمكان الاعظم من الاهمية الا وهو الحياة بعد الموت . اضف الى ذلك ما كان يلقنهم رجال الكنيسة من ان رسل الشيطان وعيونه في الجحيم ورسل الله وعيونه في الجنة . كانت دائما اقرب الى الانسان من حبل الوريد فحاول الشياطين دفعه الى تلك الطرق التي تؤدى به الى الهلاك بينما تحاول ملائكة الرحمن في شئ من الوني والضعف ان تمسكه فلا يحيد عن طريق الحق والصدق . والشياطين

هم الاكثر نشاطا وهم يبدون كأنهم يملأون كل فج حتى داخل الانسان وهم الذين يغرونه بالشهوة ويستثيرونه الى الغضب ويوقعونه في الكفر والالحاد ولا يستطيع الانسان ان يستيقن من الخلاص الا اذا تشبث باهداب الكنيسة واطاعتها اطاعة راسخة لا تتزعزع . ومن هذه الافكار استخلص الاباء المسيحيون موضوعات مسرحياتهم التي انتزعت احداثها من الكتاب المقدس وامتلأ حوارها بالخطب والتعاليم المسيحية . ومثل هذه المسرحيات الدينية ذات اهمية من الناحية التاريخية كما انها مهمة في حد ذاتها لانها تمثل نشاطا اجتماعيا صادقا يبين التعاون والتعاطف بين الطوائف المسيحية المختلفة فقد كانت كل طائفة تستخدم اعضاءها كهواة وتبين الوقائع ان هذا النشاط المسرحي كان واسع الانتشار ولو ان عدد المسرحيات الدينية التي لدينا محدود الأنه يصور لنا طبيعة النشاط المسرحي في تلك الفترة وأنه من الصعب فعلا ان نقدر تأثير هذه المسرحيات على الجمهور غير المسيحي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لان التعصب الديني كان يمنع المسلمين في مدينة الموصل من حضور المسرحيات التي تمثل في المدارس المسيحية .

اما قبيل اعلان الدستور العثماني فقد اختلفت الحال «٤٤» . كما اتسع مجال

(٤٤) قالت جريدة الرقيب بتاريخ ١٥ رمضان ١٣٢٧هـ . (١٩٠٧م): جرى الاحتفال ليلة الاربعاء بتشخيص رواية (الوطن) سلسترا في كنيسة الكلدان فكان باهرا فوق العادة واعجب عموم الحاضرين حسن التمثيل الذي قام به طلبة هذه المدرسة وتمام الاتقان بما هو فوق المتصور . والظاهر من اطلاق اسم الوطن على المسرحية انها كانت مترجمة . وفي ٢٧ ربيع الاول من السنة نفسها ١٩٠٧ تحدثت جريدة الرقيب عن تقديم مسرحية اخرى في مدرسة السريان الكاثوليك ببغداد تحت عنوان (تشخيص رواية شهيد الدستور - مدحت باشا) سيمثل شبابنا الوطنيون هذه الرواية التأريخية العصرية في مكتب السريان الكاثوليك مساء الخميس ٩ نيسان ١٩٠٧ وهي الرواية الفريدة التي تمثل مقتل ابي الاحرار المرحوم مدحت باشا وتحتوى على خمسة فصول يتخللها تمثيل فكاهي هزلي باللغة الفرنسية واغاني رخيمة موقعة على الات الطرب الشعبية الشرقية . وقالت جريدة الرقيب بتاريخ ١٨ رجب ١٣٢٧ تحت عنوان (الرقص بدل التمثيل) : كيف لا تنفطر قلوبنا اسفا على حالتهم - يقصد الاهلين عندما نراهم بهذه الاحوال بينما جرائد سوريا تعلن عن تمثيل الروايات الادبية التي تروق العين ويستحسنها القلب وتزداد فيها الآداب ويعتبر بها المعتبرون ولعل ما نراه من الاهلين واقبالهم على هذه الملاهي لا يجعل لهم ميلا للنظر الى تلك - يقصد المسرحيات - .

الثقافة والتعليم عن ذي قبل وكثر الاقتباس من فنون الغرب وعلومهم . ووحد الشعور بالاضطهاد قلوب العراقيين ضد الحكم العثماني الغاشم ثم انتقل النشاط المسرحي الكنسي الى بغداد وكان طلاب مدرسة الكلدان وقساوستها في بغداد مركز هذا النشاط الفني الجديد . وقد اصبحت هذه المسرحيات جزءاً من التراث القومي الذي لم يلق التقدير الواجب . وقامت المؤسسات الدينية المسيحية بتنظيم هذه المسرحيات كما قامت بدور الرقابة من حيث العرض وطريقته .

هذه المسرحيات الدينية اخلاقية تجسد شخوصها رذائل وفضائل مجردة وتحتوي على حوار طبيعي انساني يشبه الحوار المعاصر ويتجلى ذلك اثناء العرض الحي «لزوجة» العزيز » في مسرحية « يوسف الحسن » التي تظهر كامرأة شهوانية لا يوقفها شئ امام تحقيق رغباتها . كما ان الكاتب المسرحي يظهر براعة واتزانا في الوقت نفسه في فقرات الحوار بين يوسف واخوته ويظهر مهارة في استخدامه المقاطع الشعرية «٤٥» . وفي استخدام الغناء عن طريق الكورس . «٤٦»

وقد تفاعل العراق مع الاقطار العربية الاخرى تفاعلا فكريا واجتماعيا وسياسيا . وكانت فكرة القومية هي الفكرة التي تبلورت في نفس المواطن العراقي كما تبلورت في نفس المواطن العربي على حد سواء . وليست ثورة العشرين في العراق وثورة عام ١٩١٩ في مصر الا انتصارا للفكرة القومية في المجال السياسي وكان قيام هاتين الثورتين يبعث في نفوس المفكرين املا بتحقيق الشخصية العربية واستقلال هذه الشخصية في شتى المجالات الفكرية والادبية .

وقد دارت محاولات حول الاتجاه الى الواقع بصورة مباشرة بحيث اصبح على الفكر ان يحل مشكلات هذا الواقع وعلى الفن والادب ان يستمد تجاربه منه . ولكن تحقيق هذه الامال لم يكن سهلا وذلك لطبيعة الظروف التي احاطت بهذه الرغبة والتي جعلت هذه المحاولات لا تحقق الكثير من اغراضها في مختلف المجالات .

---

(٤٥) (كوميدية ادم وحواء ، كوميدية يوسف الحسن ، كوميدية طوبيا) ، ص١٠،١١،١٢، ١٤،١٧،١٩

(٤٦) حنا حبش ، ص ١٨ ، ٢١ ، ٢٢ .

فقد كانت الحياة الفكرية تتجلى في الحفاظ على التراث الديني العريق المخطوط في الكراريس لدى رجال الدين من علوم القران والحديث واللغة العربية وما تبع ذلك من تاريخ . على ان هذا العلم التقليدى كان محدود النطاق سواء في موضوعاته وطرائقه او في الرجال الذين يحملونه او الاماكن التي يشيع فيها .

ولا يقتصر التفاعل بين الاقطار العربية من ناحية سياسية واجتماعية فقط بل كان الاثر الفكرى هو الاثر الاعم والاشمل فقد وجد القارىء العربي في مؤلفات الكتاب العرب وخاصة المصريين واللبنانيين غذاءه الفكرى والروحي. ولعبت الصحافة العربية دورا كبيرا في هذا التفاعل الفكرى. وبينما كانت هذه الصحافة مزدهرة في الاقطار العربية تديرها ايد قديرة كان العراق يعتمد على صحافة رسمية تفرضها السلطات العثمانية المحتلة. واول جريدة اهلية عرفها العراق جريدة « بغداد » التي انشأها فرع حزب الاتحاد والترقي العثماني الذى قام بالانقلاب الدستورى صدرت ثلاث مرات في الاسبوع باللغتين العربية والتركية ورأس قسمها العربي الشاعر العراقي «معروف الرصافي » وكتب فيها الادباء البارزون انذاك كالزهاوى وفهمي المدرس ويوسف غنيمة. ومن الصحف البارزة التي اهتمت بالادب وافردت له محلا في صفحاتها جريدة « بين النهرين » ١٩٠٩ وجريدة « صدى بابل » ١٩٠٩ وكان صاحب امتيازها المعلم داؤد صليوه ومدير ادارتها يوسف غنيمة واستمرت في الصدور حتى الحرب العالمية الاولى وقد عنيت بتنبيه الرأى العام الى ما ينقص المجتمع من منظمات وجمعيات . ونلمس فيها مدى النشاط الذي كانت تقوم به المدارس الطائفية في حقل التمثيل اذ كانت تنشر خلاصة وتعلق عليها« ٤٧ » كما نشرت بعض المحاولات البدائية في المسرح والتي كتبها كتاب عراقيون فقد نشرت الصحيفة اول محاولات بدائية للمسرحية

---

(٤٧) انظر الاعداد ٣١ كانون الاول ١٩١٠، ١١٢ في ٨ شباط ١٩١٢ ، ١٢٨ في ٣١ اذار ١٩١٢ ، ١٣١ في ٢١ ايار عام ١٩١٢؛١٣٧في ٣١ ايار ١٩١٢ ، ١٩٢ في ٢٢ حزيران ١٩١٣ ، ٣١ العدد ١١٢.

الصحفية القصيرة تحت عنوان « رسالة من كربلاء » « ٤٨ » محاورة تمثيلية بين شخصين «الباحث ابن الحقيقة » و « المخبر الصادق » . وتدور المحاورة حول شؤون كربلاء الاقتصادية والسياسية يبدؤها بقوله : « الباحث : اهلا وسهلا يا صديقي العزيز من اين قدمت الى ولايتنا ومتى قدمتها ، الصادق : قدمت اليوم من بلد كربلاء وقصدت ناديك توا »

كما نشرت صدى بابل تحت عنوان « مسامرة بين عمي منصور وجارته خاله شموني الطحانة » « ٤٩ » وفي اعداد مسلسلة محاولة بدائية لمسرحية قصيرة.

وتبدأ هذه المسرحية القصيرة عندما يذهب العم « منصور » الخباز ذات ليلة الى بيت جارته خاله « شموني » الطحانه ليقضي سهرته عندها. تستقبله معاتبة على انقطاعه عن زيارتها - من دلك على الطريق حتى زرتنا هذه الليلة هل اكسر لك الجرة ام الحب ام اذبح البغلة؟ وبعد ان يجد الاعذار لنفسه يلومها على عتابها قائلا :

- حسنا تقولين يا خالة شموني ولكن هل تريدين ان « يفش » التنور كل يوم وابني جديدا وينقطع رزقي لكي اجي ازورك كل ليلة ماعدا المصاريف التي تقتضي للجديد فتعتذر وتدعو له بكثرة الرزق فيشكرها على لطفها ويشكو لها حاله وكثرة عياله وقلة ماله لانه لم يغش في الوزن ويسألها عما في جعبتها من الاخبار . وترد عليه بالأخبار لديها لانها لاتخرج من بيتها الا لماما (« لا اهب ولا ادب »

وهنا ينطلق العم منصور في الحديث ويروي لها مشاهداته عندما ذهب لبيع الخبز ذلك اليوم وقد اعجب بغناء متسول يترنم باغنية مطلعها :

اذا كنت لاتدري ولم تك بالذى ... درى انه لم يدر فهى البلية

ويسأله العم منصور عن امره فيشرح له المتسول ما حل بالبلاد من ارتفاع في الاسعار وما فعله «رئيس البلدية» من تحديد الاسعار لا يقاف الغلاء عند حده.

---

(٤٨) جريدة صدى بابل العدد -٩- في ٨ تشرين اول ١٩٠٩.

(٤٩) صدى بابل الاعداد ٧٨ - ٨١ - في عام ١٩١١.

ثم تحدثه الخالة شموني عن الرجل الذى مر بها واعطاها ورقة دون ان يفوه بكلمة ، وتناول العم منصور الورقة فاذا بها جريدة «الاخاء» التي تصدر في لبنان ويقرأ لها منصور وهي منصتة . ويعلقان على الاخبار التي ترد في الصحيفة المذكورة . وهكذا تستمر المسرحية في نقد الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والادارية للعراق انذاك . ورغم ان هذه المحاولة بدائية ، ويغلب عليها طابع المقالة المكتوبة باسلوب تمثيلي الا انها محاولة رائدة لا يجوز للباحث ان يسهو عن ذكرها فقد تطورت هذه المحاولات البدائية بعد اعلان الحكم الوطني الى فن مسرحي متكامل . اهتمت بنشره صحف ومجلات عراقية مختلفة كمجلة الهاتف ومجلة الفنون ومجلة السينما ومجلة الصبح ومجلة الثقافة الجديدة ومجلة المثقف وغيرها .

واستمرت جريدة صدى بابل في نشر امثال هذه المحاولات البدائية . واخبار التمثيليات التي تقيمها المدارس الطائفية . وسارت على منوالها بعض الصحف العراقية التي ظهرت بعد ذلك وعنيت بشؤون الادب والفن مثل جريدة «العرب» ١٩١٩ «٥٠» وجريدة «العالم العربي» ١٩٢٤ «٥١» ومجلة «النادى العلمي» ١٩١٩ «٥٢» ومجلة «الحاصد» ١٩٣٠ «٥٣» وجريدة «العراق» ١٩٢٢ «٥٤» وجريدة «البلاد ١٩٣٦ «٥٥» وغيرها من الصحف «و المجلات «٥٦».

---

(٥٠) انظر الاعداد ٢٣ كانون الثاني ١٩١٩ ، ٢٩ كانون الثاني ١٩١٩ -١- شباط ١٩١٩-٧- شباط - ١٩١٩ - ١٧ شباط ١٩١٩ وغيرها من الاعداد .

(٥١) انظر الاعداد ٨ ايار ١٩٢٤ - ٨ تموز ١٩٢٤ - ٢٧ تموز ١٩٢٤ - ١٧ آب ١٩٢٧ وغيره .

(٥٢) انظر العدد ٦ - ٣١ اذار ١٩١٩ وغيرها .

(٥٣) انظر العدد ٢٠ - ١٩٣١ - العدد ٢٨ - ١٩٣٢ وغيرهما .

(٥٤) انظر الاعداد ١ كانون الثاني ١٩٢٢ - ٣١ كانون الثاني ١٩٢٢ - ٣١ آذار ١٩٢٢-٢٥ نيسان ١٩٢٢ - ١ تموز ١٩٢٢ - ٦ آب ١٩٣٢ .

(٥٥) انظر الاعداد - ٧ كانون اول ١٩٣٦ - ٢٧ كانون اول ١٩٣٦.

(٥٦) مجلة المعلمين العدد ١ ١٩٢٤ (بين فتاتين) المؤلف مجهول - مجلة المعلم الجديد العدد ٣ عام ١٩٤٠ ، استحضار الالمنيوم ، لناجي عبد الصاحب ، المعلم الجديد العدد ١ ١٩٤٠. الحرب ، بديع شريف .

التغيير الاقتصادي والمالي
في خلافة عمر بن عبد العزيز .

الدكتور عماد الدين خليل

غدت كلمة «الاقتصاد» في العصر الحاضر . أمراً مخيفا يجثم على وجود الناس ويوجههم كما يشاء هو لا كما يشاءون .. وإن تقييم «الاقتصاد» ووضعه في مكانه الذي يجب ان يحتله في ميدان الحياة البشرية. اضبح من الصعوبة بمكان .. فما دام هذا القطاع اشد القطاعات حسية. واكثرها قربا من وجود الانسان المباشر الملموس. فسوف يعطيه الوضعيون قيمة اكبر من قيمته الحقيقية. ويفردون له مساحة اكبر بكثير من مساحته الحقيقية. ولقد ظل هذا التقييم الخاطىء للاقتصاد ينمو ويتضخم حتى بلغ الامر . باصحاب المدرسة المادية. الى القول بانه الحتمية الوحيدة في تاريخ البشرية. وانه هو ـ وحده ـ الذي يتحكم في صنع وجود الناس وتشكيل مصيرهم. اما من يتحكم به «هو» . ومن يجعله ينتقل من مرحلة الى مرحلة، ومن تكوين الى تكوين. فيقولون ان ديناميكيته الذاتية وحركته الجبرية هي التي تنقله عبر هذه المراحل والتكوينات...

والإنسان؟ الانسان ليس الاسنا في عجلة الاقتصاد الكبيرة التي تدور وتدور. ومن المحتم أن يدور معها الانسان، سرعة وابطاء. بناء على طبيعة الوجود القائم. والروح؟ والارادة؟ والعقل؟ والقيم الاجتماعية؟ والرغبات الذاتية؟ والطموح الانساني.. اين هي؟ يجيبون ان هذه جميعا ليست سوى نتائج او صور وقتية تعكسها مرآة الاقتصاد التي تحيط بالكون من أقطاره الاربعة!!

وليست خلافة عمر بن عبد العزيز إلامثلا من التاريخ المشهود للرد على هذا التقييم الخاطىء.. سنتان وخمسة اشهر تمكن عمر خلالها ان يبين للعالم كيف يتمكن المسؤول المسلم من توجيه الاشياء والاحداث كما يشاء، وان يحرك مجريات التاريخ بالاتجاه الذي يريد.. وان يضع القيم والموازين لكل الاشياء

والموجودات والفاعليات التي هيأها الله سبحانه للانسان كي يسعد ويتطور. وينسجم مع نواميس الكون.

إن عمر ينظر في ميدان الاقتصاد. فلا يرى في حياة الناس الاقتصادية وتنظيماتهم المادية سوى جانب واحد من جوانب التعبير عن مدى قدرة الانسان المسؤول على التمسك بقيم الحق والعدل ومدى تجرده للكفاح من اجل هذه القيم. أو الانسياق وراء الرغبات الذاتية. والمصالح القريبة. والملذات العابرة حيث تسقط فكرتا الحق والعدل هاتان.. ومن ثم فان اعادة الامور الى نصابها في هذا المجال كما في غيره من المجالات – سوف تتحقق بمجرد التزام المسؤول مسؤوليته. وتجرده. وتأميم وجوده من اجل تحقيق هذه القيم. ومطاردة الظلم والباطل الممثلين بالاستغلال والاضطهاد والتحكم والاثراء على حساب الآخرين. والتزلف الى ذوي السلطان.. وغيرها كثير من الدوافع «الداخلية» التي تدفع الانسان الى «تشكيل» النظام الاقتصادي بالشكل الذي يحقق له هذه الرغبات وتلك الامتيازات. «١»

وإذن، فان عمر – كأي حاكم راشد – سيعرف الطريق الى تشكيل النظام الاقتصادي الكفيل باعادة الحق والعدل الى نصابهما. وتوزيع الطاقات الكونية المادية على أبناء الامة بالحق والعدل. ونشر السعادة والرفاهية على مدى المجتمع

---

(١) لا بد ان نفرق ، في أية دراسة اقتصادية ، بين جانبين : جانب النظام ، والجانب الفني التطبيقي ، وقد تبين ان «النظام» هو وليد رغبات الانسان الداخليه ، وتخلي المسؤولين عن واجبهم او التزامهم به . أما الجانب الفني التطبيقي ، كانتقال وسائل الانتاج من الشكل الاقطاعي الزراعي الى الرأسمالي التجاري الى الصناعي .. الخ فلا يعدو ان يكون جانبا من جوانب التطور العلمي الدائم الذي تشهده البشرية ، والذي يشكل حصيلة تجارب البشرية في تاريخها الطويل . هذا التطور الذي لا علاقة له بالنظم والمبادئ . كما أنه لا يحمل – في ذاته – أية حتمية مذهبية اللهم إلا حتمية التطور العلمي القائم على تجميع التجارب .. وإلا فأية حتمية دفعت جيمس واط الى اكتشاف الطاقة البخارية ، واندرسون الى اكتشاف الكهرباء وكريستوفر كولومبس الى الانطلاق الى امريكا؟ إن لم تكن الرغبة في (الاكتشاف) وتطوير الوسائل القديمه . وإضافة منجزات علمية جديدة، وهي امور لا تعدو ان تكون دوافع غريزية داخلية .

الاسلامي ، بدلا من الظلم والاستغلال والتحكم.. وهذا الطريق واضح، لان معالمه محددة بالقرآن وسنة الرسول العظيم عليه السلام وسوابق الخلفاء الراشدين.. وليس على عمر بن عبدالعزيز–اذن– إلا أن يكشف من جديد عن روح هذا النظام، ويعيده الى توجيه هذا الجانب الحيوي من وجود الامة.. ليس عليه سوى أنْ يستلهم الروح التي هيأت لهذا النظام تطبيقا عمليا رائعا قدم للبشرية أروع مثل للعدالة والسعادة الاجتماعية والرفاهية، وقضى على كل مظاهر الاستغلال والاضطهاد.. وما دام عمر يمتلك الايمان العميق والبصيرة النافذة، فقد تهيأ له اذن ان يستلهم تلك الروح وان يستعيد ذلك النظام، وان يحدث انسجاماً عجيبا بينه وبين الواقع الذي اثقلته انحرافات المسؤولين السابقين وملأته بالعقبات. وسنستعرض في هذا البحث بعض جوانب منجزات عمر في هذا الميدان، ثم نتفحص نتائجها بعد ذلك.

. . . .

يبدأ عمر خطوته الاولى في هذا الميدان، كما في الميادين الاخرى، من الداخل، من داخل نفسه ووجدانه اولا، وداخل بيته واهله ثانيا، وداخل مقر حكمه ثالثا، طارحا شعار « إنه لينبغي أن لا أبدأ بأول من نفسي »«٢» ثم ينتقل بعد هذا الى « الخارج » لينشر العدل على الجميع بعد أن كان قد اجتاز امتحاناً قاسيا في التجرد الكامل عن الاهواء والاستغلال والمصالح القريبة باي شكل كانت.. فهذا هو الطريق الذي سلكه الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون من بعده: كانوا يبيتون الليالي الطوال جائعين، يشدون الحجارة على بطونهم الخاوية، من اجل ان تشبع أمة المسلمين.. كانوا في ايام الضنك والمجاعة لا يأكلون الا ما يأكل الناس جميعا، كي يشعروا بشعورهم، ويذوقوا تجربتهم، ويسرعوا في ايجاد الحلول لبؤسهم وشقائهم.. ويطلب الصحابة من عمر بن الخطاب يوم المجاعة، ان يتخلى عن أكل الزيت فقد اضعفه وبسر وجهه، وهو الخليفة الذي يجب ان يطعم ما يمكنه من تحمل أعباء مهامه التي لا تنتهي ..فيجيبهم « وكيف يعنيني أمر الرعية اذا لم يمسني ما يمسهم »؟.. ومرة اجتاز النبي– عليه السلام– طريقا من طرق المدينة، فتقدم اليه بعض

---

(٢) ابن الجوزي ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ١١١ ، ابن سعد ، الطبقات ٥/ ٢٥١ – ٢٥٢.

الصحابة مصفري الوجوه. مرهقي الخطوات. يشكونه الجوع.. ولكي يؤكدوا له مدى فعله باحشائهم يكشفون عن بطونهم فاذا بكل واحد منهم قد شد على بطنه قطعة من حجارة يسكت بها جوعة الاحشاء.. فيبتسم الرسول العظيم ويكشف عن بطنه فاذا به قد سبقهم وشد عليها قطعتين من الحجارة !! .. ومراراً عديدة كان كبار الصحابة يتخلون عن ثرواتهم التي كدحوا من أجلها سنين طوال. يتخلون عنها كليا ويستأنفون نشاطهم من نقطة الصفر.. ويسأل الرسول أبا بكر ، هذا الذي أنفق في سبيل الدعوة « الاربعين الف درهم » التي كان يملكها. يسأله: ماذا ابقيت لعيالك؟ فيجيبه: أبقيت لهم الله ورسوله!!.. وعثمان بن عفان يشتري بئر « رومة » من أحد اليهود بآلاف الدراهم كي يشرب المسلمون. ويتبرع في عام مجاعة قاسية بقافلة كاملة تحمل شتى البضائع .. ويجهز جيش العسرة بالف من وسائط الركوب ...

ينظر عمر بن عبد العزيز الى هذه الصور النادرة. وغيرها كثير. فيعرف الطريق.. أن يبدأ الانقلاب.. في ميدان العدل الاجتماعي .. من الداخل.. وحينذاك سيعرف كيف يعلم اجهزة الدولة واداريها الطريق الذي يجب عليهم أن يسلكوه لتحقيق العدل. والغاء الاضطهاد والاستغلال الغاء.. ومن لم يستجب منهم. فان عمر سيعرف كيف يفطمه عن الملذات !!

عاش عمر بن عبد العزيز. قبل الخلافة. مترفاً يجر اثوابه على الارض بخيلاء. وتفوح رائحة عطره عبر الطرقات التي يمر بها. ويمشي مشيته « العمرية » التي كانت الجواري يتعلمنها من حسنها وتبختره فيها.. وكانت الحلة تشترى له بالف دينار فاذا لبسها استخشنها ولم يستحسنها. وكان يتأخر عن الصلاة احيانا لكي يتم تصفيف شعره.. وكان العنبر يرى على لحيته كالملح وكان يقول: لو ضافني اهل قرية لوجدت ما يطعمهم. ويقول: لقد خفت ان يعجز ما قسم الله لي عن كسوتي. وما لبست ثوبا قط فرآه الناس، حتى

خيل الي انه قد بلي.. ووصفه المؤرخون بانه كان من اعظم الامويين ترفهاً وتملكاً. وأنه غذي بالملك ونشأ فيه.. وعرف بأنه « شامة بين الناس » وحرص على تقليده الظرفاء والمتنعمون .

فماذا بعد الخلافة؟ ان المجال لا يتسع هنا لعرض صور تجرده الفذ العجيب وبطولته النادرة في حمل أمانة الحكم والتزام مفاهيم العدل على اروع ما تكون هذه المفاهيم «٣».. ولكنا نكتفي هنا بعدد من شهادات اولئك الذين عاصروه وشهدوا تجربته النادرة عن كثب .. علماء كبار . ورجال حاشية. ومواطنين. وملوك. وامراء. وأبناء. وأقرباء. ومتصوفين. ومؤرخين.. كل منهم يقص شهادته عن الخليفة الذي آثر الجوع والحرمان لكي تشبع أمته. وتطوى صور الفقر والظلم والألم.. وها هم الشهود :

رجاء بن حيوة: لما استخلف عمر قوموا ثيابه. اثنا عشر درهما: كمته وعمامته وقميصه وقباءه وخفيه ورداءه.«٤»

مواطن من اهل الشام: رأيت عمر بخناصرة يخطب الناس. عليه قميص مرقوع .«٥»

امبراطور الروم: اني لست اعجب من الراهب إن أغلق بابه. ورفض الدنيا. وترهب وتعبد. ولكن اعجب ممن كانت الدنيا تحت قدميه فرفضها.«٦»

مواطن من اهل المدينة: رأيت عمر بالمدينة وهو أحسن الناس لباساً. ومن اطيب الناس ريحا. ومن أختل الناس في مشيه. ثم رأيته. بعد. يمشي مشية الرهبان!

---

(٣) انظر : فصل (المنحى النفسي) من كتاب (ملامح الانقلاب في خلافة عمر بن عبد العزيز) الذي سيصدر للمؤلف قريبا .

(٤) ابن الجوزي ، سيرة ، ص ١٦٤ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٥٣ .

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٨٩ .

فمن حدثك ان المشي سجية فلا تصدقه، بعد عمر !! «٧» .

خادم عمر: ان عمر لم يتملأ من الطعام. من يوم ولي حتى مات «٨».

مواطن من دمشق: ولي عمر بعد صلاة الجمعة، فانكرت حاله في العصر«٩».

يونس بن ابي شبيب: شهدت عمر بن عبد العزيز، وان حجزة ازاره لغائبة في عكنه. ثم رأيته بعد ما استخلف ولو شئت ان أعد أضلاعه من غير أن امسها لفعلت «١٠» !!

عبد العزيز بن عمر: كانت غلة أبي حين افضت الخلافة اليه اربعين الف دينار، فلما توفي غدت اربعمائة دينار. ولو بقي لنقصت «١١»!!

عبد الله بن دينار: لم يرتزق عمر من بيت مال المسلمين شيئا. ولم يرزأه حتى مات «١٢» .

مسلمة بن عبد الملك: رحم الله عمر. والله لقد هلك وما بلغ له ابن قط شرف العطاء «١٣» .

عمرو بن ميمون: اتيت سليمان بن عبد الملك فرأيت عنده عمر. وهو كأشد الرجال واغلظهم عنقا. فما لبثت بعد ما استخلف. سنة. الا اتيته. فخرج يصلي بنا الظهر وعليه قميص ثمنه دينار. وقد نحل ودقت عنقه«١٤».

مالك بن دينار: يقولون مالك زاهد اي زهد عندي؟ انما الزاهد هو عمر بن عبد العزيز أتته الدنيا فاغرة فاها فتركها جملة «١٥» !!

---

(٧) ابن سعد، طبقات ٥/٢٤٤.

(٨) المصدر السابق ٥/٢٥٤.

(٩) المصدر السابق ٥/٢٥١.

(١٠) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ١٥٥.

(١١) المصدر السابق، ص ١٥٥.

(١٢) ابن سعد، طبقات ٥/٢٩٦.

(١٣) ابن الجوزي، سيرة ص ٢٧٤.

(١٤) ابن سعد، طبقات ٥/٢٩٧.

(١٥) ابن كثير، البداية والنهاية ٩/٢٠٢.

ابو سليمان الداراني: كان عمر ازهد من اويس القرني، لان عمر ملك الدنيا بحذافيرها وزهد فيها، ولا ندري حال اويس لو ملك ما ملكه عمر، كيف يكون؟ ليس من جرب كمن لم يجرب !! «١٦»

° ° ° ° ° ° ° ° °

إن روعة امتحان التجرد الذاتي هذا، لتبدى في حياة عمر بن عبد العزيز بالذات، كعجيبة من عجائب الايمان الذي يصنع البطولات .. فقد رأينا كيف كانت حياته قبل تحمله مسؤولية الحكم: تدللا وترفها وتنعما وتأنقا وتظرفا .. حياة محاطة بكل أنواع النعيم المباح .. وها هو اليوم ينقلب على هذه الحياة، ويختار الطريق الصعب، والتجرة المرة .. إن هذا «الاختيار» كان لابد منه في نظر خليفة راشد كعمر بن عبد العزيز، اذا ما اريد لمبادئ العدل الاجتماعي ان تتحقق .. وتسود .

ولكن ايكتفي عمر باجتياز هذا «الامتحان» وحده؟ فاين هي اجهزة الدولة الاخرى اذن؟ وماذا سيفعل حزب بني امية الحاكم. والولاة. وكبار الموظفين ببرنامج عمر. اذا لم يجتازوا – هم ايضا كمسؤولين – ذات الطريق الصعب الذي اجتازه عمر؟ إن اجهزة الدولة ستصاب بالتصدع والخلل لو حدث وان بقي هؤلاء جميعا دون اجتياز امتحان التجرد هذا .. وان برنامج الخليفة سوف لن يجد مجاله الطبيعي. قبل ان يتمكن كل المسؤولين في الدولة من أن يفطموا نفوسهم وينجحوا في الامتحان.. والذين سيفشلون منهم. فان في الامة من الطاقات ما يتيح لعمر استبدالهم. فلم يكن تورع عمر – اذن – كما يقول ابو الحسن الندوي «مقتصرا على ذاته – كما يفعل كثير من الزهاد – بل كانت سياسة عامة كان يريد ان يطبقها تطبيقاً دقيقا على الدولة ورجالها. فكان يطلب منهم ويعزم عليهم ان يكونوا متورعين في اموال المسلمين، لا ينفقون منها الا القدر اللازم. وان يكونوا اشحة على انفسهم اسخياء على المسلمين.. وكان حريصا على أن يوفر على المسلمين أموالهم. ويعتقد أن الدرهم دم. فلا يجوز ان يجري في غير عروقهم. ولا يرى ان يضيع في «الكماليات»

---

(١٦) المصدر السابق ٩/٢٠٨.

و « الشكليات » «١٧» .

الدرهم دم!! فلا يجوز ان يجري في غير عروقهم.. ذلك اذن هو شعار الخليفة العادل. وهذا هو تقييمه لكدح الامة، وحرصه على الا يعود الا اليها وليبدأ — اولا — بالاقربين من بني امية اولئك الذين استنزف بعضهم الكثير من اموال الدولة لحسابهم الخاص.. ليبدأ بهم اولا. فهذا هو منطق العدل الاجتماعي في الاسلام: ان يبدأ الانسان بنفسه واهله ثم ينتقل مباشرة الى عشيرته وقومه.. قبل ان يضع خطوة واحدة في الخارج ..

وتشهد الايام الاولى من خلافة عمر تجريدا واسع النطاق لكثير من اموال واملاك بني امية. ظلت تنمو وتتضخم في الماضي.. وها هي الان ترد الى بيت مال المسلمين .لكي ياخذ العدل الاجتماعي مجراه. وتغدو اموال الامة للامة. لا يستأثر بها أحد دون أحد.. أموال وأملاك من شتى الصنوف والانواع . ومن مختلف الطرق وسائر الاساليب. جرد عمر بني امية منها. ومزق مستنداتها واحدا واحدا. وردها الى مكانها الصحيح: مظالم وجوائز وهدايا ومخصصات استثنائية وضياع وقطائع. تجمعت كلها على شكل ممتلكات ثابتة ونقود سائلة. بلغت في تقدير عمر شطرا كبيرا من اموال الامة جاوزت النصف «١٩»

ولا تمضي سوى فترة قصيرة. حتى يجد امراء بني امية انفسهم مجردين الا من حقهم الطبيعي المشروع .فيضجون ضد سياسة عمر هذه، ويعلنون معارضتهم الصارمة لها. فماذا يكون جواب عمر ؟ لنستمع اليه : « والله لوددت ان لا تبقى في الارض مظلمة الا رددتها. على شرط الا ارد مظلمة الا سقط لها عضو من اعضائي أجد الله. ثم يعود كما كان حيا!!فاذا لم تبق مظلمة الا رددتها سالت نفسي عندها !! » «٢٠»الا ان بني امية لم ييأسوا من

---

(١٧) رجال الفكر والدعوة في الاسلام . ص ٣٥.

(١٨) ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ٥٨ — ٥٩ ، ١٤٧ — ١٥١.

(١٩) ابن الجوزي ، سيرة ، ص ١١٥.

(٢٠) ابن عبد الحكم ، سيرة ، ص ١٤٧ — ١٥١.

هذه الفدائية النادرة ازاء حقوق الامة. وهم الذين ما خطر ببالهم يوما ان يجردوا هذا التجريد.. ومن ثم يجتمعون ويدفعون احد ابناء الوليد الى كتابة رسالة شديدة اللهجة ضد سياسة عمر..

ويجيء رد عمر على الرسالة حمماً من نار الحق تتفجر من كل كلمة فيها «...ويلك وويل امك.ماا كثر طلابكما وخصماءكما يوم القيامة .. رويدك فانه لو طالت بي حياة . ورد الله الحق الى اهله ، تفرغت لك ولاهل بيتك فأقمتكم على المحجة البيضاء.. فطالما تركتم الحق وراءكم، ومما وراء هذا ما أرجو ان يكون خير رأي ابته: بيع رقبتك فان لكل مسلم فيك سهما في كتاب الله !!«١»

وما أن ييأس امراء بني أمية من صمود عمر إزاء معارضتهم الجماعية الشديدة هذه. حتى يلجأوا الى اساوب الحوار الهادئ. علهم يصلون . عن طريقه— الى ما يشتهون ..فيتكلمون معه يوما. مستثيرين فيه نزعة القربى . وعاطفة الرحم. فيجيبهم «لن يتسع ما لي «الخاص» لكم.واما هذا المال «العام» فحقكم فيه كحق رجل بأقصى برك الغماد ...والله اني لارى ان الامور لو استحالت حتى يصبح اهل الارض يرون مثل رأيكم ، لنزلت بهم بائقة من عذاب الله ».«٢٢» ويدخل هشام بن عبد الملك على عمر يوما ويقول: يا أمير المؤمنين اني رسول قومك اليك، وان في انفسهم ما جئت لاعلمك به. انهم يقولون : استأنف العمل برأيك فيما تحت يدك. وخل بين من سبقك وبين ما ولوا بماعليهم ولهم. وبديهة كخطف الشهاب يجيب عمر: ارأيت اناتيت بسجلين احدهما من معاوية والاخر من عبد الملك. فبأي السجلين آخذ ؟ فيقول هشام بالاقدم. فيرد عمر: فاني وجدت كتاب الله الاقدم. فانا حامل عليه من أتاني ممن تحت يدي وممن سبقني. «٢٣»

---

(٢١) ابن عبد الحكم ، سيرة ، ص ١٤٧ – ١٥١ .
(٢٢) ابن الجوزي ، سيرة ، ص ١١٤ .
(٢٣) المصدر السابق ، ص ١١٨ – ١١٩ .

واذ يعجز رجال بني أمية عن جعل عمر يعزف أويلين عن سياسته ازاءهم. يلجأون الى النساء. ويدفعون اليه عمته فاطمة بنت مروان. وما أن تدخل هذه عليه حتى يدعو عمر بدينار من ذهب. وبجمرة من نار . وقطعة من لحم. ثم يلقي الدينار في النار وينفخ فيه حتى يغدو قطعة من نار. ثم يرفعه ويلقيه على قطعة اللحم فتنش وتقتر . ثم يلتفت الى عمته قائلا : اي عمة. اما تأوين لابن اخيك من مثل هذا..«٢٤» وتؤخذ العمة بهذا المشهد المؤثر . وتلتفت الى عمر طالبة منه أن يتكلم.. واسمعوه يقول. وكأنه يرسم لوحة فنية رائعة للعدالة الاجتماعيةالتي جاء الاسلام لكي يجعلها تنفجر الخير والنعيم على الجميع «ان الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة ولم يبعثه عذابا.. الى الناس كافة. ثم اختار له ما عنده وترك للناس نهرا شربهم سواء! !ثم ولي ابو بكر فترك النهر على حاله. ثم ولي عمر فعمل عملهما. ثم لم يزل النهر يستقي منه يزيد ومروان وعبد الملك ووليد وسليمان حتى افضى الامر الي وقد يبس النهر الاعظم. فلم يرد اصحابه حتى يعود الى ما كان عليه». «٢٥» وها هو عمر بن عبد العزيز يرفع المعول لكي يعمق المجرى ويعيده الى ما كان عليه: نهرا دفاقاً يوزع العدل والخير على كل انسان.. وينقل الثمار الحلوة الى كل بيت..

ولم تشأ العمة أن تغادر المكان قبل أن تطالب عمر بجراياتها التي كانت تتسلمها من الخلفاء السابقين . ويجيبها الخليفة بنبرة اسى : انهم كانوا يعطونك من مال المسلمين . ليس ذاك المال لي فاعطيكه . ولكني اعطيك مالي ان شئت ! ! فتسأله عمته : وما ذاك ؟ فيجيبها : مائتا دينار . فهل لك بها ؟ فتقول : وما يبلغ مني عطاؤك ؟ فيجيب : لا املك غيره يا عمه ! ! . . . وتنصرف عمته . كما انصرف من قبل رسل بني مروان . «٢٦»

---

(٢٤) المصدر السابق ، ص ١١٧.

(٢٥) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ٥: ٦٤.

(٢٦) ابن عبد الحكم ، سيرة ص ٦٣ - ٦٤.

أعيت بني مروان كل الحيل إزاء صلابة عمر في تنفيذ برنامجه الاجتماعي معهم . وقرروا أخيراً أن يستخدموا سلاحهم الاخير : المقاطعة والرفض . فاستدعوا احدهم وطلبوا منه ان يدخل على عمر ويعلمه انه لولا الخوف من غضبه لرد عليه كل منهم مبلغ العشرة دنانير التي اجراها عليهم .. ولكن رد عمر الحاسم سرعان ما يجيء كحد السيف « ... لا والله العظيم ، لا اعطيكم درهما الا ان يأخذ جميع المسلمين ... » . وخرج الرسول ليقول لهم : انتم فعلتم بانفسكم ! ! تزوجتم الى عمر بن الخطاب بنت عاصم ابنه فجئتم بمثل عمر بن عبد العزيز .! ! «٢٧»

وسرعان ما تتلاشى السمة الجماعية لمعارضة بني امية . بعد ما رأوا من صلابة عمر ازاء أموال الامة . وقالوا : «ليس بعد هذا شيء» «٢٨». واخذ كل منهم يسعى -- على انفراد -- ليسترد ما يستطيع ان يسترده من امواله . ولكن عمر الذي وقف ضد رغباتهم مجتمعين . لا يعجزه ان يتصدى لكل واحد منهم على انفراد . ويعلمه ان حق الامة لا يمكن ان يكون في يوم من الايام موضعاً للمساومة .. وهذا عنبسة بن سعيد بن العاص يدخل عليه يوماً . ليطالبه بمال كان قد كتب له به سليمان بن عبد الملك . مقداره عشرون ألف دينار . فيسأله عمر بلهجة بلغت في استنكارها حد السخرية : عشرون الف دينار تغني اربعة آلاف بيت من المسلمين وادفعها الى رجل واحد ؟ والله مالي الى ذلك من سبيل . فيسلمه عنبسة كتاب سليمان الذي يضم «صكا» بالمبلغ المذكور . فيقول عمر : لا عليك ان يكون معك فلعله ان يأتيك من هو أجرأ على هذا المال مني فيأمر لك به . «٢٩» ورحم الله الامام احمد بن حنبل الذي كان يقول عن عمر : ما كان أشده على بني أمية !! «٣٠»

---

(٢٧) المصدر السابق ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .
(٢٨) المصدر السابق ، ص ٥٨ - ٥٩ .
(٢٩) المصدر السابق ، ص ٥٨ - ٥٩ .
(٣٠) ابن الجوزي ، سيرة ، ص ١٢٠ .

ولا يقف عمر عند حد استرداد الأموال من بني أمية وردها الى بيت المال . بل يخطو خطوة اخرى ويعلن لابناء الامة الاسلامية ان كل من له حق على أمير او جماعة من بني امية . او لحقته منهم مظلمة . فليتقدم بالبينة لكي يرد اليه حقه .. وتقدم عدد من الناس بظلاماتهم وبيناتهم ، وراح عمر يعيدها واحدة بعد الاخرى : اراض ومزارع واموال وممتلكات . «٣١» ومرة بعث اليه واليه على البصرة برجل اغتصبت ارضه . فرد الخليفة اليه ارضه ثم قال له : كم انفقت في مجيئك الي ؟ قال : ياأمير المؤمنين تسألني عن نفقة وانت قد رددت علي ارضي . وهي خير من مائة الف ؟ فاجاب عمر : — انما رددت حقك . ثم امر له بستين درهما . كتعويض له عن نفقات سفره «٣٢».

بعد ان ينهي عمر كفاحه على جبهة الحزب الحاكم من بني امية. ينتقل الى الخارج ويبدأ اول ما يبدأ بعماله وموظفيه. فهم —من جهة— القدوة التي يحذو حذوها ابناء الامة جميعا. وهم —من جهة اخرى— المسؤولون الذين يجب ان يتحملوا مسؤوليتهم كاملة. والا يستغلوا مناصبهم لحسابهم الشخصي مهما ضؤلت قيمة هذا الاستغلال . يبدأ عمر . طالبا منهم ان يقدروا اموال الامة حق قدرها. والا يضيعوها في «الكماليات » و «الشكليات». الادارية. وان يتبعوا سياسة التقشف في اجراءاتهم المختلفة. كتب الى ابي بكر بن عمرو بن حزم. واليه على المدينة. وكان هذا قد ارسل الى الخليفة السابق سليمان يطلب اوراقا لتمشية اموره الادارية «اما بعد: فقد قرات كتابك الى سليمان تذكر انه قد كان يجرى على من كان قبلك من امراء المدينة من القراطيس «الاوراق» لحوائج المسلمين كذا وكذا. فابتليت بجوابك فيه. فاذا جاءك كتابي هذا فأرق القلم واجمع الخط . واجمع الحوائج الكثيرة في الصحيفة الواحدة فانه لا حاجة للمسلمين في فضل قول اضر مالهم ...»«٣٣» . وكتب رسالة اخرى اليه يقول « اما بعد فقد قرات كتابك الى سليمان تذكر فيه انه كان يقطع لمن كان

---

(٣١) المصدر السابق . ص١٠٤؛ ابن عبدالحكم . سيرة، ص ٦٠-٦١ ، ١٤٦-١٤٧.

(٣٢) ابن عبد الحكم . سيرة ص ١٤٦ - ١٤٧.

(٣٣) المصدر السابق ص ٦٥.

قبلك من امراء المدينة من الشمع كذا وكذا يستضيئون به في مخرجهم. فابتليت بجوابك فيه. ولعمري لقد عهدتك يا ابن ام حزم وانت تخرج من بيتك في الليلة الشاتية المظلمة من غير مصباح!! ولعمري أنت يومئذ خيرمنك اليوم. ولقد كان في فتائل اهلك ما يغنيك... » «٣٤». وكتب وهب بن منبه الى عمر : اني فقدت من بيت مال اليمن دنانير. فكتب اليه: اني لست أتهم دينك ولاامانتك ولكني أتهم تضييعك وتفريطك. وانما انا حجيج المسلمين في مالهم «٣٥».

لم يكتف عمر بفرض سياسة التقشف على عماله وموظفيه بل اتخذ اجراءات عديدة اخرى. كضمانات عملية لا لزامهم حدود وظائفهم كخدام مسؤولين امام الخليفة والامة. وعدم استغلال مراكزهم لكل مامن شأنه ان يحقق مصلحة خاصة ويلحق بالامة. ظلما واستغلالا. فمنعهم من مزاولة النشاط التجاري قائلا : « لايحل لعامل تجارة في سلطانه الذي هو عليه. فان الامير متى يتجر يستأثر ويصيب أمورا فيها عنت. وإن حرص على الايفعل ». «٣٦» وبعد سبعة قرون جاء ابن خلدون وكتب في مقدمته. بعد تجارب طويلة ودراسة واسعة ما يصدق فراسة عمر بن عبدالعزيز وحكمته البالغة. حيث قال « ان التجارة من السلطان مضرة بالرعايا مفسدة للجباية ». «٣٧» كما منع عمر عماله وموظفيه من قبول الهدايا لان فيها شبهة رشوة ومجالا لاستغلال المنصب لتحقيق مصلحة ذاتية. كما ألغى هدايا النوروز والمهرجان الفارسية لنفس السبب «٣٨». والغى السخرة بانواعها لانها ظلم اجتماعي سافر وطريق للموظفين الى استغلال ابناء الامة لحسابهم الخاص «٣٩»

---

(٣٤) المصدر السابق ص ٦٤ - ٦٥.

(٣٥) المصدر السابق ص ٦٩.

(٣٦) المصدر السابق ص ٩٩.

(٣٧) عن الندوي : رجال الفكر ص ٢٧.

(٣٨) الطبري ، تاريخ ٦/٥٦٩.

(٣٩) ابن عبد الحكم ، سيرة ص ٩٩.

وبتلفت– خلال مطاردته الظلم وتعزيزه العدل– فيرى ان مساحات واسعة من اراضي الدولة ومراعيها قد اغتصبت من قبل امراء الدولة وكبار موظفيها، فيحطم هذا الاحتكار ويعلن « ونرى ان الحمى يباح للمسلمين عامة....وانما الامام فيها كرجل من المسلمين، انما هو الغيث ينزله الله لعباده فهم فيه سواء» «٤٠».

إزاء هذه الشدة والصرامة التي اخذ عمر بها نفسه واهله وحاشيته وعماله وموظفيه. نجد صورة اخرى لعمر، صورة الخليفة الأب الذي ينظر الى ابناء امته نظرة ملؤها الشفقة والرحمة والحرص على نشر العدل على الجميع. وعدم ذهاب قطرة واحدة من عرق مواطن أو دمعه أو دمه عبثا... إنه مسؤول عن كل قطرة تذهب جفاء لاي مواطن في اي مكان... فما هذه القطرة الا الجهد والكدح والنصب الذي يبذله ذلك المواطن من اجل ان يحيا حياة اكثر رخاء، وان ذهابها يعني بوضوح اغتصاب هذا الجهد لمصلحة انسان او فئة ما. وان عمر لا يكتفي بالقاء نظرة الحنو هذه، ولكنه وهو المسؤول الذي يتميز بالايجابية والفاعلية. يتخذ الخطوات الكفيلة بتحويل هذه النظرة الى واقع عادل يعم خيره على الجميع:

اولاً: إنه يعمل على ازالة كل الضرائب المجحفة التي كانت قد فرضت على الامة الاسلامية من اجل تنمية موارد الدولة دون وجه حق. فيلغي « الضرائب اللاشرعية » «٤١». ويشير الطبري الى عدد من هذه الضرائب التي امر عمر بالغائها كالآيين «٤٢» واجور الضرابين وهدايا النوروز والمهرجان اللتين غدتا اشبه بالضرائب الاجبارية، واجور الفيوج: اي رسول السلطان الذي يسعى بالكتب –واجور البيوت ودراهم النكاح «٤٣». واصدر عمر كتابا وزعت نسخه على العمال ليقرؤوه على الناس مؤكدين الغاء

---

(٤٠) المصدر السابق ص ٩٧ ، ابن سعد : الطبقات ٥/٢٨١.

(٤١) المصدر السابق ص ٩٨ .

(٤٢) الآيين معناها (العادة) ، والمقصود بها الضرائب على تنوعها ، وهو ما تدل عليه الكلمة الانكليزية Custom : فلهاوزن ، الدولة العربية وسقوطها ص ٢٩٣.

(٤٣) الطبري ، تاريخ ٦/٥٦٩.

هذه الضرائب المجحفة «٤٤» كما الغى عمر العشور عن كافة الفئات من غير المزارعين وحدد دافعي الضرائب من غير المسلمين بقطاعات ثلاث : المزارعين ، والصناع واصحاب الحرف . والتجار . اما المسلمون من التجار والصناع .والحرفيين فليس عليهم ان يؤدوا لبيت المال سوى الزكاة . واما مزارعيهم فعليهم ان يدفعوا – ايضا – الضريبة العشرية او الخراجية بناء على زمن تملكهم الارض «٤٥» . والغى الخمس عن المعادن واخذ الصدقة بدلا عنها «٤٦». كما اسقط المكوس قائلا «اما المكس فانه البخس الذي نهى الله عنه «ولا تبخسوا الناس اشياءهم ولا تعثوا في الارض مفسدين» غير انهم كنوه باسم اخر .«٤٧» وقرفع الجزية عن اعناق الذين اسلموا احديثا . والذين لم تشأ السلطات الاموية السابقة ان تسقط عنهم هذه الضريبة حرصا على استنزاف مزيد من الاموال .

ثانيا: ويؤكد عمر على عماله باتباع اكثر الاساليب عدلا في جباية الضرائب المشروعة ويشدد عليهم في ان يراعوا ظروف المزارعين ودافعي الضرائب كي لا يلحقهم اذى او يصيبهم حيف . ويأمرهم بان يتحلوا بالمرونة الكافية التي تتيح لهم تقليص نسبة الضرائب في المواسم التي يقل فيها مستوى الانتاج الزراعي لسبب من الاسباب . واننا نلمح لهجة الوعيد والتهديد التي يخاطب بها الخليفة عماله في كل مكان. طالبا منهم التزام الحق والعدل في اساليب الجباية فعن هذا الطريق بالذات «اي اسلوب الجباية» كان بامكان العمال والموظفين – لو لم يجابهوا بهذا الوعيد والتشدد – ان ينسفوا كل المكتسبات التي جنتها الامة من الانقلاب الاقتصادي الذي احدثه عمر. ففي رسالة بعث بها الخليفة الى عامله على اليمن يقول «... انك قدمت اليمن فوجدت على اهلها ضريبة من

---

(٤٤) ابن عبد الحكم ، سيرة ، ص ١٦٠ .
(٤٥) المصدر السابق ص ٩٨.
(٤٦) ابن سعد ، الطبقات ٥/٢٦٠.
(٤٧) ابن عبد الحكم ، سيرة ص ٩٨ ، ٩٩.

الخراج مضروبة، ثابتة في اعناقهم كالجزية، يؤدونها على كل حال: ان أخصبوا أو أجدبوا، وحيوا أو ماتوا، فسبحان الله رب العالمين ثم سبحان الله رب العالمين ثم سبحان الله رب العالمين! إذ اتاك كتابي هذا فدع ما تنكر من الباطل الى ما تعرفه من الحق، ثم إئتنف الحق فاعمل به بالغاً بي وبك. وان احاط بمهج انفسنا. وان لم ترفع الي من جميع اليمن الا من حفنة من كتم، فقد علم الله اني بها مسرور اذا كانت موافقة للحق» «٤٨».

وكتب اليه رسالة اخرى يعلمه فيها ان من سبقه من عمال على اليمن كانوا يأخذون مقادير ثابتة من الزكاة من أهاليها، سواء زادت رؤوس اموالهم ام نقصت ثم يقول «... ولعمري ان هذا للجور حق الجور. فاذا جاءك كتابي هذا فخذهم بما ترى عليهم — من الحق ثم أقسم ذلك على فقرائهم ... فوالله لو لم يأتني من قبلك إلا كفا لرايته من الله قسماً عظيما «٤٩».

وكتب الى عامل آخر له يقول «بلغني ان عمالك يخرصون—اي يتكهنون ويحكمون بالظن—الثمار على اهلها ثم يقومونها بسعر دون سعر الناس الذي يتبايعون به، فيأخذونها فرقاً — اي بثمن بخس — على قيمتهم التي قوموها» ثم أمر برد فرق السعر الى أصحابه «٥٠». كما أصدر أمره الى جباة الخراج. الايأخذوا من الاهالي من الدراهم ما زاد وزنه على اربعة عشر قيراطاً وهو. ماامر به عمر بن الخطاب. وقد رأى ان العمال كانوا يأخذون دراهم اثقل وزنا من تلك التي فرضها ابن الخطاب رضي الله عنه مما كان يؤدي الى زيادة فاحشة في الضرائب التي كان يدفعها الاهالي «٥١» وكي يقطع الطريق على اية محاولة للتلاعب، أمر بتوحيد المكاييل والموازيين في جميع انحاء الدولة الاسلامية «٥٢».

---

(٤٨) المصدر السابق ص ١٢٣.

(٤٩) المصدر السابق ص ٦٥ - ٦٦.

(٥٠) ابن سعد، الطبقات ٥/٢٦٠.

(٥١) فان فلوتن، السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات ص ٢٩.

(٥٢) ابن عبد الحكم، سيرة ص ٩٨.

كما كتب الى عامله على خراج خراسان يقول : «... استوعب الخراج في غير ظلم، فان يكن كفافا لاعطياتهم فسبيل لك. والا فاكتب الي حتى احمل اليك الاموال فتوفر لهم اعطياتهم» «٥٣».

ثالثا: يتجه عمر الى تطبيق وتوسيع فكرة الضمان الاجتماعي ، بحيث تشمل كافة طبقات الامة رجالا ونساء واطفالا وفقراء وعاجزين ومرضى ومسافرين . عربا وغير عرب. مسلمين وغير مسلمين. اعتقادا منه بان هذا الضمان-الذي شهده عصر الرسول عليه السلام وخلفائه الراشدين رضي الله عنهم- أمر ضروري إذا ما أريد للعدل الاجتماعي أن يأخذ مجراه. وفي سبيل جعل هذا الضمان اكثر «عملية» والمسؤولين اكثر قدرة على الحركة والعطاء أقر عمر نظاماً لا مركزياً مفتوحاً في جمع الاموال وتوزيعها ، فقد جعل كل ولاية من ولايات الدولة الاسلامية تسعى الى نوع من الاكتفاء الذاتي في جمع الضرائب وتوزيعها على احتياجاتها المحلية . وكي يعزز الخليفة هذا الاجراء جعل تبادل المعونات المالية بين الاقاليم والمركز امراً مفتوحاً لسد العجز المالي في اي من الطرفين في حالة حدوثه.

وفي الحوار التالي الذي يسوقه لنا الطبري صورة واضحة لهذه السياسة المرنة المفتوحة « قال ابو مجلز أحد العمال لعمر: انك وضعتنا بمنقطع التراب « اي في منطقة جرداء قليلة المحصول » فاحمل الينا الأموال . فقال عمر: يا ابا مجلز قلبت الامر !! قال : يا امير المؤمنين اهو لنا ام لك ؟ قال: بل هو لكم اذا قصر خراجكم عن اعطياتكم. قال ابو مجلز : فلا انت تحمله الينا ولا نحمله اليك. وقد وضعت بعضه على بعض. قال عمر : احمله اليكم ان شاء الله ». « ٥٤ »

كما نجد هذه السياسة واضحة في رسالته الى عقبة بن زرعة الطائي عامله على اخراج خراسان حيث يقول « . . . إن كان الخراج كفافاً لاعطياتهم فسبيل ذلك . والا فاكتب الي حتى احمل اليك الاموال فتوفر لهم اعطياتهم »

---

٥٣) الطبري ، تاريخ ٥٦٨/٦ - ٥٦٩.

(٥٤) المصدر السابق ٥٧٠/٦.

فقام عقبة باحصاء الخراج فوجده يفضل على اعطياتهم . فكتب الى عمر بذلك فأجاب: أن أقسم الفضل في اهل الحاجة. « ٥٥ »

وتبرز هذه السياسة مرة اخرى في كتابه الى عدي بن ارطأة الفزاري عامله على البصرة « . . اني كنت كتبت الى عمرو بن عبد الله ان يقسم ما وجد بعمان من عشور التمر والحب في فقراء اهلها ومن سقط اليها من اهل البادية. ومن اضافته اليها الحاجة والمسكنة وانقطاع السبيل. فكتب الي انه سأل عاملك -على عمان- عن ذلك الطعام والتمر فذكر انه قد باعه وحمل اليك ثمنه. فاردد الى عمرو ما كان حمل اليك عاملك على عمان من ثمن التمر والحب ليضعه في المواضع التي أمرته بها ويصرفه فيها » « ٥٦ » وفي العراق تلقى العمال امراً من عمر برد كافة المظالم الى اهلها فردوها. وكلف ذلك مالية العراق عسراً. فاسرع عمر يمدهم بالاموال من الشام « ٥٧ ». ويتحدث ابن حجذم عامل عمر على صدقات بني تغلب [illegible] يأتي الى الحي ويدعوهم بأموالهم فيقبضها. ثم يأخذ فقراءهم ويقسمها فيهم حتى انه ليصيب الرجل الفريضتين او الثلاث. فما افترق الحي وفيهم فقير. ثم اتى الحي الاخر فاصنع بهم كذلك. فما انصرف اليه - اي الى عمر - بالدرهم « ٥٨ ».

وبلغ من تاكيد عمر على توزيع العطاء وهو الاساس الاول للضمان الاجتماعي آنذاك - ان الرجل لا يلغي عطاؤه بمجرد وفاته بل ينتقل سهمه الى ورثته ويوزع عليهم . « ٥٩ » وخصص للمعتملين ديواناً توزع بموجبه اعطياتهم عليهم. وكتب عمر الى عامله على المدينة بشان العطاء أن « من كان غائبا قريب الغيبة فاعط اهل ديوانه. ومن كان منقطع الغيبة فاعزل عطاءه الى ان يقدم أو يأتي نعيه او يوكل عندك بوكالة مبينة على حياته فاد

---

(٥٥) المصدر السابق ج ٥ ص ٣٦٩.

(٥٦) البلاذري ، فتوح البلدان ص [illegible].

(٥٧) ابن سعد ، الطبقات ٥/٢٥٢.

(٥٨) ابن الجوزي ، سيرة ص ٨٦ - ٨٧.

(٥٩) البلاذري ، فتوح البلدان ص [illegible].

عطاءه الى وكيله » « ٦٠ ». ويتحدث شاهد عيان قائلا « اخرج عمر ثلاث اعطيات لاهل المدينة في سنتين وخمسة اشهر » « ٦١ ». وقال شاهد اخر « سمعت كتاب عمر يقرأ علينا: ارفعوا كل منفوس نفرض له. وارفعوا موتاكم فانما هو ما لكم نرده عليكم ». « ٦٢ »

إتخذ الضمان الاجتماعي في دولة عمر بن عبد العزيز صوراً فريدة وعجيبة، وسعى الخليفة الى توزيع العدل على الجميع ما داموا مواطنين في دولة واحدة تحكم بعدل الله وشرعه. فنراه يكتب الى عماله ان يقيموا الخانات ومراكز الضيافة في بلادهم كي يستضيفوا المسافرين ويقروهم. ويتعهدوا دوابهم ويدلوهم اذا ما فقدوا الطريق « فمن كانت به علة فأقروه يومين وليلتين، فان كان منقطعاً به فقووه بما يصل به الى بلده » « ٦٣ ». ونراه يوزع العطاء على جميع محاربي الدولة بالعدل دون تفريق بين عربي وغير عربي مادام الجميع يحملون راية « لا اله الا الله » . وعزل واليه على خراسان لانه منع ألوفاً من الموالي كانوا يغزون، من العطاء والرزق«٦٤». ويتحدث شاهد عيان قائلا: حضرت قسمتين قسمهما عمر على جميع الناس. كلهم ساوى بينهم « ٦٥ ». وخطب عمر يوماً في الغرباء الذين قدموا دمشق قائلا: ايها الناس الحقوا ببلادكم فاني انساكم عندي واذكركم في بلادكم«٦٦». ولا يكتفي عمر بهذا بل يتعهد بكفالة الدولة لابناء المقاتلين وأهليهم.«٦٧». وخصص الاعطيات للمرضى المزمنين الذين لا يرجى شفاؤهم. وساوى

---

(٦٠) ابن سعد ، الطبقات ٥/٢٥٧.

(٦١) المصدر السابق ٥/٢٥٥.

(٦٢) المصدر السابق . نفس الصفحة .

(٦٣) الطبري ، تاريخ ٦/٥٦٧.

(٦٤) المصدر السابق ٦/٥٥٩ ، ابن سعد ، الطبقات ٥/٢٦٧.

(٦٥) ابن سعد ، الطبقات ٥/٢٥٤.

(٦٦) ابن عبد الحكم ، سيرة ص ٤٢ — ٤٣.

(٦٧) الطبري ، تاريخ ٦/٥٦٩ — ٥٧٠.

كلا منهم بالرجل الصحيح. ولام احد عماله لانه اعترض على هذه المساواة. «٦٨» واتخذ داراً خاصة سماها «دار الطعام» لاطعام المساكين والفقراء وابناء السبيل. وتقدم الى المسؤولين عنها يحذرهم ان يصيبوا منها شيئاً «٦٩». وينساح عدله بعد هذا الى كل مكان حتى يبلغ الاطفال في سن الفطام. ويروي شاهد عيان كيف ان الخليفة اراه السجلات التي حددت فيها ارزاق الاطفال «٧٠».

وتشدد عمر في جمع اموال الزكاة باعتبارها الضريبة الاساسية المفروضة على المسلمين. وانها حق الفقراء والمشردين والمستعبدين والمنقطعين والعاطلين... الحق الذي لا يجوز التهاون فيه ابداً. واهتم بتوزيعها على مستحقيها. باحثاً عنهم في كل مكان. موزعاً عماله في كل الاقاليم. وفي الحالات التي لم يكن هؤلاء العمال يجدون فيها الفقراء. يشترون بهذه الاموال رقاب المستعبدين ويعتقونها «٧١». وقد شمل الخليفة بضمانه الاجتماعي هذا كافة الذميين. فرفع الجزية عن الرهبان في مصر. والغى الضريبة على املاك الكنيسة والاساقفة فيها «٧٢». وامر بتوزيع الاموال الفائضة في بيوت الاموال على الذميين وتسليف مزارعيهم لكي يتمكنوا من تنشيط اعمالهم الزراعية «٧٣». واسقط عن اهالي قبرص من الذميين الزيادة النقدية التي كان الخليفة عبد الملك قد فرضها عليهم «٧٤». وكتب الى عامله على البصرة ان «انظر اهل الذمة فارفق بهم. واذا كبر الرجل منهم وليس له مال فانفق عليه... كما لو كان لك عبد فكبرت سنه. لم يكن

---

(٦٨) ابن سعد، الطبقات ٥/٢٨١.

(٦٩) المصدر السابق، ٥/٢٧٩.

(٧٠) الطبري، تاريخ ٦/٥٦٩ – ٥٧٠، ابن سعد، الطبقات ٥/٢٥٥.

(٧١) ابن عبد الحكم، سيرة ص ٦٩، ١٢٤ – ١٢٥. وانظر: الطبري، تاريخ ٦/٥٦٩ – ٥٧٠.

(٧٢) عبد العزيز الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ص ٣٣ – ٣٤.

(٧٣) ابن عبد الحكم، سيرة ص ٦٨.

(٧٤) البلاذري، فتوح البلدان ص ١٨٣.

لك بد من ان تنفق عليه حتى يموت او يعتق » « ٧٥ ». وقد بلغت رعايته لاهل الذمة حداً جعلت احد كتاب النساطرة يضيف كلمات التبجيل الى اسم الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين كلما عرض لذكرهم ويستنزل رحمة الله على عمر بن عبد العزيز « ٧٦ ».
ويخطو الخليفة خطوات اخرى لتعزيز الضمان والتكافل بين الدولة ومواطنيها. ويصل حداً عجيباً في رسم وتنفيذ معالم العدل الاجتماعي حينما يقرر التزام الدولة بتطمين الحاجات الاساسية للمواطن. حداً عجيباً بلغ فيه - في ذلك الزمن السحيق ! - كل ما رسمه وحلم به ماركس. وكل ما عملت الشيوعية على تنفيذه في عالم الواقع. فبعد رسالة بعث بها عمر الى احد عماله يامره بالقضاء عن المدينين! تلقى جواباً من العامل يترك فيه: انا نجد الرجل له المسكن والخادم وله الفرس. وله الاثاث في بيته. فكتب عمر: لابد للرجل من المسلمين من مسكن يأوى اليه راسه. وخادم يكفيه مهنته. وفرس يجاهد عليه عدوه. واثاث في بيته. ومع ذلك فهو غارم. فاقضوا عنه ما يمكنه من الدين «٧٧».
وكتب الى عامله على الكوفة يقول « كتبت تذكر انه قد اجتمعت عندك اموال بعد اعطية الجند فاعط منهم من كان عليه دين في غير فساد. او تزوج فلم يقدر على نقد ». « ٧٨ » وقد خصص عمر مبلغا في بيت المال لمساعدة المدينين والقضاء عنهم. « ٧٩ » ومن جهة اخرى امر عماله ان يسددوا ديون الاشخاص الذين يموتون وهم مدينون رغبة منه في ضمان حق الدائنين « ٨٠ ». وفضلا عن ذلك امر بتعويض من يلحق به ضرر لا طاقة له به. فقد جاءه مرة احد المزارعين واوضح له كيف انه زرع زرعاً وكيف ان

---

(٧٥) ابن سعد . الطبقات ٥/٢٨٠.

(٧٦) توماس ارنولد ، الدعوة الى الاسلام ص ٤٦٦.

(٧٧) ابن عبد الحكم . سيرة ص ١٦٤.

(٧٨) المصدر السابق ص ٦٨.

(٧٩) ابن سعد . الطبقات ٥/٢٥١.

(٨٠) ابن عبد الحكم . سيرة ص ٦٨.

بعض جند الشام الحقوا الخراب به. فامر عمر له بعشرة الاف درهم « ٨١ ».

ان الضمان الاجتماعي لدى عمر لا يقتصر فقط على الجوانب المعاشية والحاجات الضرورية بل يمتد ليعين المسلمين على اداء شعائر الله ومطاردة الظلم اينما وجد. والامر بالمعروف والنهي عن المنكر. فيكتب الى احد عماله ان : « انظر من اراد من الذرية ان يحج فعجل له مائة يحج بها » « ٨٢ ». ويكتب الى عامله على اليمن : ان اقعد على طريق الحاج قوما ترضاهم. وترضى دينهم وامانتهم . يقوون الضعيف ويعينون الفقير . « ٨٣ » ويكتب الى اهل المواسم « اما بعد : فايما رجل قدم الينا في رد مظلمة او امر يصلح الله به خاصا او عاما من امر الدين. فله ما بين مائة دينار الى ثلاثمائة . بقدر ما يرى الحسبة وبعد السفر. لعل الله يحيى به حقا او يميت باطلا او يفتح به من ورائه خيرا » « ٨٤ ». وتلك هي القمة التي ركز عليها عمر راية العدل الاجتماعي .

ولقد تميز عمر وهو ينشر جناحي العدل والمساواة على ابناء الامة. تميز. ببصيرة ثاقبة وحس عميق بالعدل الاجتماعي . كانا ينأيان به دائما عن مواطن الزلل والشبهات. [illegible] هذه الحاجة. فعذره عمر وامر له بمبلغ من المال « ٨٥ ». عين موقف جده العظيم من العصبة التي سرقت ناقة لسيدها. يومها وقف عمر بن الخطاب منددا بالسيد معلما إياه ان ظالمه هو الذي قاد خدامه الى السرقة. ويوما كتب الحجاب الى عمر بن عبد العزيز يطلبون كسوة لبيت الله الحرام. اسوة بما كان يفعله من سبقه. فكتب اليهم : اني رأيت ان اجعل ذلك في اكباد جائعة فانه اولى بذلك من البيت « ٨٦ ».

---

(٨١) [illegible]

(٨٢) [illegible]

(٨٣) [illegible]

(٨٤) [illegible] ص ١٣١.

(٨٥) ابن الجوزي ، سيرة ص [illegible]

(٨٦) المصدر السابق ص [illegible]

ترى هل الحق عمر بسياسته السخية هذه على الجماهير. اذى ببيت المال. او اصاب خزينة الدولة بعجز مريع وكسر لا يجبر؟ ام انه اعاد الامور المالية الى ما يجب ان تكون عليه. واحدث توازنا مكينا بين موارد الدولة ومصارفها؟ المستشرقون -بدافع من علمانيتهم - ليس بمستطاعهم ان يتصوروا ان عالم الاقتصاد يمكن ان تحكمه القيم والمثاليات. والا تعرض للتصدع والانهيار. انهم يعتقدون ان تضحية كهذه بمصالح الخزينة المركزية لصالح جماهير الامة. والغاء كهذا لكثير من الضرائب التي تشكل موارد كبيرة تصب في بيت المال. من أجل توسيع نطاق الدعوة ورفع شعار الهداية لا الجباية. لا يمكن الا ان ينتج اختلالا في السياسة المالية. وتقلصا مريعا في موارد الدولة وعجزاً تاما ازاء ما يستجد من حاجات.

ولنستمع الى احد المستشرقين يعبر بوضوح عن وجهة النظر هذه «لا ريب في ان سياسة عمر بن عبد العزيز لم توقظ الا آمالا لم تستطع الحكومة تحقيقها فقد كانت الحال تتطلب علاجا اخر غير تلك السياسة التي سار عليها عمر بن الخطاب. ففي العراق انضبت الاعطيات السنوية بيت المال بعد ان تأثرت موارده تأثرا محسوسا من جراء الغاء الجزية في خراسان. وهكذا اعقبت تلك الفوضى في الشؤون المالية بعد موت عمر سياسة خراجية اقصى ما تكون جوراً وعسفاً» «٨٧». ويقول فان فلوتن في مكان اخر معززا رأيه «لم تكن غلطة عمر بن عبد العزيز سوى رجعيته ومحافظته الدينية وتمسكه الشديد بالنظام الذي سنه عمر بن الخطاب الذي كان يقتفي أثره لما كان يكنه له في اعماق نفسه من الاحترام والاكبار. والذي لم يكن الا صورة صادقة منه رغم ما كانت تتطلبه الحالة من العدول عن ذلك النظام عدولا تاماً» «٨٨».

وهناك الكثير مما قاله المستشرقون تعليقا على سياسة عمر المالية بالذات. ليوحوا للقراء والباحثين ان التئاما بين الواقع والقيم لا يمكن ان يحدث. وان

---

(٨٧) فان فلوتن . السيادة العربية ص ٤٨.

(٨٨) المصدر السابق ص ٤٩.

تكاملا بين برامج الاسلام ومصلحة دولته المالية يستحيل ان يتوجد. ونحن نكتفي -الان- بهذين الشاهدين من فان فلوتن. لان كل ما قاله رفاقه ليس الا صدى لهذا الهراء. والحكم بالظن. و التخمين. وعدم استكمال الوقائع التاريخية... وهل يغني الظن من الحق شيئا؟ لذا فاننا سينتقل بسرعة الى جانب «الحق» نفسه الذي لا يقوم بحث تاريخي الا به. ونلقي نظرة-اوسع مدى- على وقائع التاريخ لنرى بوضوح زيف ادعاءات كهذه لا رصيد لها من وقائع التاريخ .

صحيح ان عمر بن عبد العزيز رفع شعار الهداية لا الجباية. وسد كثيرا من موارد الدولة غير المشروعة. وانفق بسخاء على جماهير المسلمين. الا انه لم يرتجل ابدا خطوة خطاها في يوم من الايام. انه -كخليفة مسؤول عن دولة فضلا عن كونه مسؤولا عن امة- كان يحسب حسابا لكل خطوة يخطوها. ويضع الضمانات والممهدات لكل سياسة يعتزم تنفيذها. انه كخليفة راشد ذكي. حاد البصيرة. يعرف يقينا ان ارتجالا كهذا سوف يعرض مصالح الدولة. بل وجودها ذاته للخطر. وانه لا بد لدرء هذه الاخطار من ايجاد برنامج عملي يضمن للدولة بقاءها واستمرارها ونموها وقابليتها على تأدية واجباتها تجاه الامة وتجاه العالم كله. انه كاي خليفة راشد. كان يضع امام الامة ومسؤوليها الافاق التي يجب ان يتحركوا اليها . لان الانسان مشدود دائما الى واقعه الراهن. والارض التي ولد عليها. ولا بد لتحريكه الى امام ان توضع نصب عينيه وفي مدى رؤياه معالم هذه الافاق... ولكن هذا لم يكن يعني ابدا. بالنسبة لاي خليفة راشد نوعا من الاتكالية او الزهد الاداري الذي يحيل الدولة الى جهاز عطل ينتظر صدقات المحسنين ... هذه هي الصورة. المشوهة. القلقة. التي يريد عدد من الباحثين ان يعرضوها عن الخلافة الراشدة ان كلا من هؤلاء الراشدين كان يتمتع بحسن نية. وتقوى شديدة. ورغبة عميقة في نشر الاسلام وخدمة جماهيره. ولكنهم كانوا يفتقدون البصيرة والذكاء والحدس الاداري الذي يمكنهم من احداث توازن بين مصلحة الدولة ومصلحة الشريعة ومصلحة الامة ... وهذه الترهات لا رصيد لها من الواقع . لان كل

خليفة من هؤلاء، كان يمتلك الى جانب تقواه وورعه وحرصه: ذكاء نادرا وحدسا دقيقا وواقعية ايجابية، وبصيرة نافذة. يخرج عن طريقها بالدولة من اشد الازمات ظلمة، واكثر المشاكل تعقيدا... والا لما كان عمر بن الخطاب قد أرسى قواعد اروع جهاز اداري في قلب صحراء لم تعرف عن الادارة والاجهزة المركزية من قبل الا لماماً ... ولما كان ابو بكر الصديق قد أرسى دعائم وحدة من مئات القبائل التي كانت تشدها تقاليد قرون طويلة الى الانفصال والتمزق... ولما استطاع عثمان من الوقوف ازاء اشد المخاطر الدولية عنفا، حيث تعرضت الدولة الاسلامية لاكبر حركتي تمرد من الفرس والروم لضرب منجزات الخلفاء السابقين... وها هو عمر بن عبد العزيز يتخذ من اجراءات « الموازنة » ما يدل على هذا، وينفي ترهات اولئك الباحثين ..

اولا: فتح عمر باب التجارة الحرة في البر والبحر واعلن : « اما البحر فانا نرى سبيله سبيل البر « الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بامره ولتبتغوا من فضله » فاذن فيه ان يتجر فيمن شاء. وارى ان لا نحول بين احد من الناس وبينه. فان البر والبحر لله جميعا سخرها لعباده، يبتغون فيهما من فضله. فكيف نحول بين عباد الله وبين معائشهم؟ » «٨٩» .

فعن طريق حرية التجارة، وفي المرحلة التاريخية التي كان العالم يجتازها، أقر عمر اسلوبا حيويا لتنمية الثروة والدخل القومي. ورفع مستوى المعيشة، وتهيئة شتى صنوف البضائع بارخص الاسعار. وعلى الرغم من ان عمر الغى ضرائب المكوس– التي كان يمكن ان تنمو عن طريق حرية التجارة– الا ان الدولة كانت تعتمد على طريق اخر لجني ثمار هذه السياسة: الزكاة، تلك الضريبة التي لم يتهاون عمر في جبايتها وتنظيمها وتوزيعها وفق ما امر الله ورسوله. وجاء في احدى تاكيداته عنها «...ان الله فرضها وسمى اهلها ... فتؤخذ، لا يحابى بها قريب ولا يمنعها اهلها. ثم تجعل الى مرضيين من اهل الاسلام.

(٨٩) ابن عبد الحكم ، سيرة ص ٩٣ – ٩٤ ، ٩٨ .

فيجعلونها حيث امرهم الله، يحملهم الامام من ذلك على ما حمل ... «٩٠» ومقدار ٢.٥٪ من اصل راس المال وارباحه على السواء بشكل دخلا محترما في مجتمع يسوده النشاط التجاري والتنمية المستمرة للثروة. ولم تكن ضريبة الزكاة هذه تجبى ارتجالا، وانما كان لها عمالها واجهزتها الدقيقة. ومن هنا يمكن ان نتصور مقدار الدخل الذي ستجنيه الدولة من هذا المورد، ونتوقع النتيجة المحتمة لرفع مستوى الطبقات الفقيرة ومنحها قدرة شرائية تؤثر بدورها على الدورة العامة لنمو الدخل القومي في الدولة الاسلامية. وسنرى فيما بعد كيف سيؤدي هذا الى نشر الرفاهية. وارتفاع مستوى المعيشة. وتضاؤل الفقراء في انحاء واسعة من الدولة.

ثانيا: عمل عمر على اتباع سياسة زراعية سليمة، فاشار على عماله بان الاهتمام بالاصلاح والاعمار واحياء الاراضي واقامة المشاريع يجب ان يسبق التاكيد على الجباية. يتضح هذا في عدد من كتبه منها ذلك الذي ارسله الى عبد الحميد واليه على الكوفة حيث يقول «...لا تحمل خرابا على عامر. ولا عامرا على خراب. انظر الخراب فخذ منه ما اطاق واصلحه حتى يعمر. ولا يؤخذ من العامر الا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لاهل الارض «٩١». كما يتضح في كتاب اخر الى أحد عماله يأمره ان يعتمد على ما لديه من فائض نقدي. في تقديم سلف مالية للمزارعي اهل الذمة كي يتقووا بها على اعمالهم الزراعية.«٩٢» وقد كتب اليه عامله على البصرة يعرض عليه رغبة اهاليها في حفر نهر لهم. فاذن له عمر. ومن ثم قام العامل بحفر النهر المعروف باسمه «نهر عدي» «٩٣». كما امر بني امية ان يقيموا في ضياعهم ويعملوا على اصلاحها «٩٤».

وقد سبق وان راينا كيف انه عزز سياسته هذه باعطاء ضمانات للمزارعين

---

(٩٠) المصدر السابق ص ٩٦ - ٩٧، وانظر: ابن سعد، الطبقات ٥/٢٧٧.
(٩١) الطبري، تاريخ ٦/٥٦٩.
(٩٢) ابن عبد الحكم، سيرة ص ٦٨ وهوامشه.
(٩٣) البلاذري، فتوح البلدان ص ٤٥٤.
(٩٤) ابن عبد الحكم، سيرة ص ١٦٤ - ١٦٥.

وعدم ارهاقهم بضرائب خراجية ثابته على اعناقهم سواء كان المحصول جيدا ام رديئا. ومن السهولة ان نتنبأ بنتائج سياسة كهذه تؤكد على تنشيط الزراعة واستغلال الطاقات الانتاجية، وتطمين المزارعين.

فلا ريب ان ضريبة الخراج النامية هذه كانت تشكل المورد الرئيس الاخر للدولة الى جانب الزكاة ،خاصة بعد ان اوقف عمر الغزو وما يعقبه من غنائم. وبعد ان الغى ضريبة الجزية عن اعناق المسلمين من غير العرب. واولئك الذين يعلنون اسلامهم من اهل الذمة. ولذا فان عمر، بما له من بصيرة نافذة، اخذ يلقي ثقلا كبيراً على ضريبة الخراج ولا يتهاون باي شكل من الاشكال ازاء اولئك الذين تخلوا عن دفع هذه الضريبة من بني امية او المقربين اليهم واعلن: ان ارض الخراج هي في الاصل ملك مشترك بين المسلمين، ولكنها تركت بايدي المغلوبين لقاء ايجار يدفعونه للامة الاسلامية هو الخراج، ولذلك فلا يجوز لاي شخص ابطال هذا الايجار . فاذا اصبحت الارض الخراجية في ملك مسلم فعليه ان يؤدي عنها حق الامة وهو الخراج. واذا اسلم ذمي اعفي من الجزية وله امواله المنقولة، اما ارضه فاما ان يدفع عنها الخراج او يتركها لغيره فيدفع زارعها الجديد الخراج عنها. اما هو فيستطيع الذهاب أنى شاء «٩٥». وقد اعتبر عمر سنة ١٠٠ هجرية نقطة البدء في تطبيق قراره. وعندما لاحظ رغبة العرب في الاستحواذ على الاراضي الخصبة، مما يعني توسع الملكية الكبيرة على حساب الملكيات الصغيرة. وما يثيره ذلك من شكوى ونقمة، حاول الحد من هذا الاتجاه تلافياً لما ينجم عنه من اضطراب. وكره شراء الارض الخراجية وحاول ان يوقف بيعها «٩٦».

ويقول فلهاوزن في هذا الصدد: نستطيع ان نصدق ان عمر بدأ بمقاومة ما قد وقع في عهد من تقدمه من الخلفاء من تمزيق صوافي الدولة «اي اراضيها

---

(٩٥) عبد العزيز الدوري ، مقدمة ص ٣٣ - ٣٤ ، وانظر : ابن عبد الحكم ، سيرة ص ٩٤، ٩٩.

(٩٦) الدوري ، مقدمة ص ٣٣ - ٣٤ . وانظر : ابن عبد الحكم ، سيرة ص ٩٩.

التابعة لها » وانتقاص الممتلكات الشائعة للمسلمين وذلك بان منع بيع ارض الخراج. اما ان يكون عمر قد حافظ على جملة ارض الصوافي ولم يهب شيئاً منها لاحد فيمكن ان نفترضه مطمئنين « ٩٧ ». وفي الاندلس قام واليها السمح بن مالك الخولاني باتباع سياسة تتمشى وعدالة عمر وبتكليف منه. وذلك بان قام باعادة تنظيم اراضيها بقصد فرض الخراج. وكان العرب هناك قد احتفظوا بالضياع والعقار المنقول ونحوه. مما لم يكن قد قسم من قبل فقسمه السمح بالقرعة على الاصحاب بعد ان ضم جزء من كل شيء ثابت ومنقول الى بيت المال «٩٨».

وهكذا تمكن عمر، بتأكيده على الضريبة الخراجية وحمايته لاراضي الدولة من التفكك والضياع، تمكن من احداث توازن مالي منتظم دعا فلها وزن الى القول بأنه: لما كانت الارض المزروعة هي اهم ما يدفع عنه الخراج فان اسقاط الجزية عن الداخلين في الاسلام لم يكن في الحقيقة – من جانب بيت المال – تضحية كبيرة. وهكذا امكن ان يفي بيت المال بحاجة الدولة الاسلامية من غير مشقة «٩٩». هذا فضلا عن ان عمر احدث توازنا منطقيا في مسالة الجزية حيث جعل الحد الادنى للقادرين على دفعها عشرة دنانير» وهذا ما قضى به ابو حنيفة» «١٠٠» ازاء كفالة الدولة للضعفاء منهم. ورفع الجزية عمن اسلم. هذا الى تأكيد عمر على الخمس والفيء مما يشكل مورداً مهما من موارد الخزينة «١٠١».

ثالثاً: كما ان عمر تمكن من توفير مبالغ طائلة لمالية الدولة. كانت الحكومات السابقة تستنفذها في القضاء على الفتن والمنازعات الداخلية والحروب. فان اية حكومة سابقة كانت – على سبيل المثال – ستشهر السيف بوجه ثورة الخوارج

---

(٩٧) الدولة العربية وسقوطها ص ٢٨١.

(٩٨) المصدر السابق، ص ٢٨٥ – ٢٨٦ وهوامشه.

(٩٩) المصدر السابق ص ٢٧٢.

(١٠٠) أ.س. ترتون، اهل الذمة في الاسلام ص ٢٦٢.

(١٠١) ابن عبد الحكم، سيرة ص ٩٦ – ٩٧.

التي قادها بسطام اليشكري - شوذب - وعلى الرغم من انها كانت ستضمن النصر على الاغلب لتفوق قوتها على قوة الخوارج، الا ان ذلك كان سيكلفها الكثير الكثير من نفقات الحرب: ميرة وعتاداً ووسائل نقل ورجالا. . . ولكن عمر بلجوئه الى الاسلوب السلمي تجاه الخوارج وفر على الدولة ولاشك مبالغ كبيرة . . وهكذا بالنسبة لكل ما كان يمكن ان يحدث من ثورات تتطلب حلا حربياً وبالتالي مصاريف بلعظة لولا تمكن عمر. بسياسته وبعد نظره، من توحيد الامة الاسلامية بمختلف كتلها واحزابها وابعادها عن استنفاد طاقاتها بالصراع الداخلي. واغلب الظن ان ايقاف مصرف ضخم كهذا لا يقل في قيمته عن المورد الذي كانت الدولة تستمد منه من جراء عمليات الفتح والتوسع . وهكذا فاننا نجد ظاهرة التوازن والمقابلة المادية واضحة في كل ناحية من نواحي السياسة المالية التي اختطها عمر بن عبد العزيز.

ولكن الاهم من هذا وذاك هو ان عمر اوقف بشكل جاد اعمال الابتزاز التي كان يتعرض لها بيت مال المسلمين ابتداء من الخليفة وحتى صغار الجباة. وبين هذين معظم موظفي الدولة وعمالها. وغدا بيت المال الان. سواء في المركز ام في الولايات، محاطاً بايد امينة تحرسه وتسهر عليه. وتقطع الايدي التي تحاول ان تمتد اليه لتختلس منه بليل.

ان هذا الحرص وهذه الحماية تفسر لنا. فضلا عن العوامل الاخرى. ذلك التوازن العجيب بين موارد الدولة ومصارفها الكثيرة . . . ولا مجال هنا لاستعادة صور ذلك الحرص العجيب على اموال الامة. والمراقبة الدقيقة لتصرفات العمال. اذ يمكن متابعتها في الصفحات السالفة. ونكتفي بايراد الاشارة التي قدمها فلها وزن في كتابه عن الدولة العربية حيث يقول « عنى عمر بالحيلولة بين الولاة وبين ان يكون همهم الاول من مناصبهم جمع الاموال لانفسهم. والاغلب ان ذلك عوض النفقات التي اقتضتها اصلاحاته ضعفين» «١٠٢» ولم يكتف عمر باحاطة بيت المال بهذه

(١٠٢) الدولة العربية وسقوطها ص ٢٩٦.

الحماية ، بل اعاد تنظيمه فنياً بشكل يتيح للموارد ان تنأى عن الفوضى والاضطراب والتداخل، فجعل بيت مال خاص، وعلى حدة، لكل من الخمس والصدقة والفيء «١٠٣».

رابعاً : ثم ان عمر اوجد بوقفه للفتن والمنازعات والعصبيات القبلية والحروب . واجتثاثه لكل انواع الظلم من جذورها، مناخاً رائعاً من الامن والاستقرار هيأ للمجتمع الاسلامي بكافة فئاته العمل المستمر المطمئن المثمر النشيط. معتقدين ان نشاطهم هذا سوف لن تعصف به رياح الفتن والمنازعات . ومضاعفين نشاطهم اعتمادا على حماية دولة قوية متمكنة، وخليفة يقظ، يتتبع ببصيرة نافذة. كل صغيرة وكبيرة يمكن ان تلحق بنشاط احد من المواطنين وحقه وامنه. اي اذى او خوف من المستقبل . .

ان عدلا كهذا وأمناً واستقراراً ينشران جناحهما على كل أقاليم الدولة لا بد ان تؤتي اكلها باذن الله على الجميع: امة وحكومة ودولة ... فيزداد النشاط، ويتفجر الوازع الذاتي بالمعطيات، وينمو الدخل القومي. وتجد اجهزة الدولة مواردها الكافية . كي تعود بدورها لتوزعها على نقاط الضعف في جسد الامة. وترفع مستواها الى الافق الحر الكريم الذي يرجوه لكل المواطنين خليفة راشد يرى فيهم جسدا واحدا. اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

* * *

ولا يمضي سوى وقت قصير على تطبيق هذا البرنامج الاقتصادي المالي العادل المتزن. حتى يجد المسلمون انفسهم في رفاهية تعم الجميع ، وتجد الدولة «اليتها قد استندت الى موارد نامية متطورة مضمونة.» واطمأن الناس في كل رقعة من رقع هذه المملكة الواسعة. حتى عز وجود من يستحق الزكاة ويقبلها. واصبحت هذه مشكلة للاغنياء واصحاب الاموال تطلب حلا سريعا» «١٠٤».

---

(١٠٣) ابن سعد ، الطبقات ٥/٢٩٥.

ويحدثنا يحيى بن سعيد عامل الخليفة على صدقات «زكاة» افريقية فيقول «بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات افريقية فاقتضيتها، وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيرا، ولم نجد من يأخذها مني، فقد اغنى عمر بن عبد العزيز الناس، فاشتريت بها رقابا فاعتقتهم... «١٠٥». ويقول احد احفاد زيد بن الخطاب« انما ولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفا، فذلك ثلاثون شهرا. فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء. فما يبرح حتى يرجع بماله يتذكر من يضعه فيهم. فما يجده فيرجع بماله. قد اغنى عمر بن عبد العزيز الناس» «١٠٦»

وتتوالى الشهادات عن العدل والكفاية والرفاهية التي عمت الجميع... شهادات من جهات شتى طرحها موظفون من عصر عمر. وشهود عيان ومواطنون. ودونها رواة ومؤرخون ثقاة... واكدها الباحثون في شتى العصور... ولنستعرض بعضها فحسب. فربما فيه الكفاية للرد على دوزي وفان فلوتن وموللر وغيرهم من رواد المدرسة العلمانية في التاريخ. اولئك الذين يرون الدين والتقدم على طرفي نقيض. ولنستمع اذن ما يقوله الشهود:

ابن كثير: كان منادي عمر ينادي في كل يوم: اين الغارمون؟ أين الناكحون؟ اين اليتامى؟ حتى اغنى كلا من هؤلاء «١٠٧». وولي عمر سنتين ونصفا فملأ الارض عدلا. وفاض المال حتى كان الرجل يهمه لمن يعطي صدقته؟ «١٠٨».

السيوطي: قال عمر بن اسيد: والله ما مات عمر حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون ... «١٠٩».

---

(١٠٤) الندوي. رجال الفكر ص ٩٤.

(١٠٥) ابن عبد الحكم. سيرة ص ٦٩.

(١٠٦) المصدر السابق ص ١٢٤ - ١٢٥.

(١٠٧) البداية والنهاية ٩/٢٠٠.

(١٠٨) المصدر السابق، ٩/٢٣٩.

(١٠٩) تاريخ الخلفاء ص ١٥٦.

ابن سعد: اخرج عمر ثلاثة اعطيات لاهل المدينة في سنتين وخمسة اشهر. «١١٠» وقال متحدث من الكوفة: كل يوم كان يجيء خير من عمر «١١١».

ابن الجوزي: قدم على عمر بعض اهل المدينة فجعل يسال: ما فعل المساكين الذين كانوا يجلسون في مكان كذا وكذا؟ فاجابوه: قاموا منه يا امير المؤمنين، واغناهم الله. وكان من اولئك المساكين من يبيع الحطب للمسافرين، فالتمس ذلك منهم فيما بعد فقالوا: قد اغنانا الله عن بيعه بما يعطينا عمر «١١٢».

وكتب اليه بعض ولاته ان الناس لما سمعوا بولايتك تسارعوا الى اداء زكاة الفطر فقد اجتمع من ذلك شيء كثير.. ولم أحب ان احدث فيها شيئا حتى تكتب الي برأيك. فاجابه: ما حبسك اياها الى اليوم؟ اخرجها حين تنظر في كتابي «١١٣».

وكتب عامل صدقاته «ابن جحدم» انه كان يجمع الزكاة من احياء تغلب ثم يقسمها على فقرائهم حتى ليصيب الرجل الفريضتين او الثلاث. فما يفارق الحي وفيهم فقير «١١٤».

ابن عبد الحكم: كان رسول عمر يقدم البصرة فاذا سمع به تلقاه الناس. فليس يقدم الابزيادة في عطاء او قسم او خير يأمر به او شر ينهى عنه. فلا يزال الناس يشيعونه حتى يدخل المسجد فيقرا ذلك الكتاب. حتى قدم بريد نعيه، فلقيه الناس كما يلقونه فاذا هو باك يخبر بموته، فبكى الناس لبكائه لعظيم ما نزل بهم، ولعظيم مصيبتهم «١١٥».

---

(١١٠) الطبقات ٥/٢٥٥.
(١١١) المصدر السابق ٥/٢٧٦.
(١١٢) سيرة ص ٧٦ – ٧٧.
(١١٣) المصدر السابق: ص ٨٥ – ٨٦.
(١١٤) المصدر السابق: ٨٦ – ٨٧.
(١١٥) سيرة ص ٦٧.

وكتب عمر الى عامله على الكوفة : كتبت تذكر انه قد اجتمعت عندك اموال بعد اعطية الجند فاعط منهم من كان عليه دين في غير فساد، او تزوج فلم يقدر على نقد فكتب اليه العامل: انه قد بقي عندنا بعد ذلك. فأجاب عمر ان قو اهل الذمة فانا لا نريد جزيتهم لسنة ولا لسنتين «١١٦».

وكتب الى عدي بن ارطأة عامله على البصرة: انه قد اصاب الناس من الخير خير حتى لقد خشيت ان يبطروا. فاجاب عمر : مر من قبلك ان يحمدوا الله ! «١١٧».

وخطب عمر يوما قائلا «وقد اعطاني من ذلك، وله الحمد في عاجل الدنيا. وجماعة من الشمل وصلاح ذات البين . وسعة في الرزق. ونصر على الاعداء، وكفاية حسنة، حتى اغنى لاهل كل ذي جانب من المسلمين جانبهم. ووسع عليهم الرزق. ولا يرى اهل كل ناحية الا انهم افضلوا قسما مما بسط الله لهم من رزقه ونعمه. من اهل الناحية الاخرى «١١٨».

والتقى يوما بمسافر من اهل المدينة فسأله عن حالها فاجاب : اني تركتها والغني بها موفور والعائل مجبور «١١٩» .

عبد العزيز الدوري : نجح عمر بن عبدالعزيز في اجراءاته لانه وضعها في اطار المفاهيم الاسلامية. وقد ثبتت الخطوط التي رسمها اسس تحديد الضرائب ومنحت مفاهيمها « ١٢٠ » .

فلها وزن: اما مايزعمه البعض « مثل مولر » من ان اموال الدولة في عهده قد تلاشت كما يزول الشيء باشارة سحرية. وان ما يتحصل من الخراج

---

(١١٦) المصدر السابق : ص ٦٨.
(١١٧) المصدر السابق : ص ٦٩.
(١١٨) المصدر السابق : ص ٧٧.
(١١٩) المصدر السابق : ص ١٣١.
(١٢٠) مقدمة ص ٣٣ – ٣٤.

قد انحط دفعة واحدة. فاني لا اريد هنا ان اتعرض للكلام. فيما اذا كان ذلك الزعم اكثر من ان يكون نتيجة خطأ. ولكنه على كل حال زعم لا يمكن ان يكون صحيحا بوجه من الوجوه. وذلك ان الاحوال المالية كانت سيئة في الايام المضطربة لعهد عبد الملك والحجاج. اما في عهد عمر فقد عادت الى حالة الصحة «١٢١» .

* * *

ولنرجع – معا – صفحات قليلة الى الوراء وننظر الى تلك الضمانات المالية. واسعة النطاق، التي كفل بها عمر فئات عديدة من ابناء الامة الاسلامية. الى الاموال الكثيرة التي امر عماله ان ينفقوها لرفع المستوى المعاشي لطبقات الامة. والى المبالغ التي خصصت لمشاريع الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، والى العناية والحرص على ان تبلغ كفالة الدولة كل المسلمين عربا وغير عرب. وكل المواطنين مسلمين وغير مسلمين. وكل العاطلين والمرضى والمعتلين والمسافرين والمدينين والفقراء وابناء السبيل وطالبي الزواج وحتى الاطفال . . . ثم لنطلع قبل ذلك على رسالتي عمر لابي مجلز وعقبة بن زرعة الطائي اللتين يقرر فيهما انه سيمدهما بالمبالغ اللازمة من ميزانية الدولة اذا لم يكف خراج اقاليمهما لتغطية المصاريف المحلية . . . ترى هل ان هذه التكاليف المالية التي القاها عمر على عبء الميزانية المركزية. وهذه المشاريع الواسعة التي بدأ بتنفيذها . كانت ستتحقق لو كان هنالك اي عجز تعانيه ميزانية الدولة؟ الا يدل هذا التوسع من قبل الخليفة الحصيف على انه يعتمد على ميزانية مستقرة، غنية، مضمونة الموارد . . بحيث يتقدم الى امته وعماله – بثقة ويقين – بكل هذه الانواع الشاملة من الضمانات الاجتماعية؟ ثم كيف يمكن تفسير تناقص خراج السواد – على سبيل المثال – في عهد الحجاج الى ٤٠ مليون درهم . بينما كانت قد بلغت في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ١٠٠ مليون ؟ « ١٢٢ » ومن ذا يقول ان عمر بن عبد العزيز لم ينتهج نهج ابن

---

(١٢١) الدولة العربية وسقوطها ص ٢٩٦.

(١٢٢) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٣٣٢.

الخطاب ؟ كان يجب وفق منطق فان فلوتن ورفاقه ان تفيض خزائن الحجاج ذهبا وان تخلو خزائن العمرين، وتكنس، ويرش عليها الماء . . . فما هو السر في حدوث هذه النتيجة المعاكسة، سواء في عهد الخطاب ام في عهد حفيده . ان لم يكن العدل والتنظيم والايجابية؟ ثم اليس من الكذب الذي يخجل له الاميون — فضلا عن العلماء المؤرخين — ان ياتي مستشرق متخصص مثل فان فلوتن فيلقي نظرة جانبية مبتورة ومتعسدة على بعض وقائع التاريخ ويعلن بان سياسة عمر المالية هذه لم تكن سوى « غلطة » ارتكبها بدافع من « رجعيته ومحافظته الدينية وتمسكه الشديد بالنظام الذي سنه عمر بن الخطاب؟ » « وان الحال كانت تتطلب علاجا آخر غير تلك السياسة التي سار عليها عمر بن الخطاب » ؟

ليس لهذا الكذب . وهذا الالتواء في فحص النصوص التاريخية الا الدافع الذي عودنا عليه معظم المستشرقين، وهو التعصب ضد الاسلام متمثلا بمبادئه وقادته ودوله وحضارته، والعمل الدائب — على حساب التاريخ والحقيقة — في صرف اذهان المسلمين عن اية دعوة ترى في شد الوقائع واليوميات الى القيم والاهداف التي طرحها القرآن والسنة، استجابة للفشل ذاته الذي شهده عصر ابن عبد العزيز ! !

وليس لنا اذن ان نصب اللوم على فان فلوتن وحده وهناك كثيرون غيره ساروا على ذات المنهج في معالجة قضايا التاريخ الاسلامي ، فوقعوا في اخطاء ما انزل الله بها من سلطان، حتى لقد استفزت هذه الاخطاء احد المستشرقين المحايدين انفسهم ، فانبرى لاعادة تقييم منهج عمر الاقتصادي ووضع الامور في اماكنها وتفنيد هذه الاخطاء . من اجل ذلك نحب ان نختتم هذا البحث بحوار شيق بين المستشرقين انفسهم حول منجزات عمر الاقتصادية لكي تستكمل الصورة كافة جوانبها ولا يبقى هنالك ظل لايجري خلفه ضوء .

يقول فلهاوزن: كان اصلاح الناحية المالية اول ما اتجهت اليه همة عمر ،

ولكن ليس من السهل ان نتبين بوضوح نوع اصلاحاته في ميدان نظام الخراج والاراء التي جاء بها في هذا الشان «الفريد فون كريمر» وتابعه «مولر» مشوبة باخطاء حقيقية «١٢٣».

ماذا يقول كريمر وأوجست مولر ؟ لنقرأ معا : « كان ذهن عمر بحكم سلطان الدين عليه بعيدا عن كل ادراك لما تقتضيه الحكمة السياسية. وانه وان كان لايمكن النزاع في ان بعض ما وضعه من نظم قد ادى الى تقوية روح الاسلام. في ذاته تقوية كبيرة. فان كل ما فعله يكاد يكون قد ساعد في الجملة على افساد نظام الدولة من اساسه. بعد ان كانت قد اصبحت دولة دنيوية. والرومان وهم أكفأ الشعوب التي عرفها التاريخ في مسائل السياسة الكبيرة. انما قرروا المبدأ الذي قرروه عن علم وهو انه لا دولة يمكن ان تعيش الا بالوسائل التي أدت الى قيامها. اما عمر فقد انصرف عن الأصول المتمشية مع الواقع والتي وضعها خلفاء الامويين بعد عصر معاوية. واراد ان يستعيض عنها بتحقيق مبادئ مثالية استمدها من القرآن والحديث. حتى ولو كان هذا العمل الخليق بالثناء لا يمكن تنفيذه الاعلى اساس علم غير كامل بالظروف الواقعة! ولكن عمر وهو الخليفة الورع. كان متأثرا بمبادئ حاشيته الدينية الى حد انه لم يقم حتى بمحاولة اصطناع شيئ من العقل عند تطبيق ما في القرآن من مبادئ كبرى عن احوال هذه الدنيا الناقصة. وكان تفكيره الساذج يقول له ان الله يريد كذا وكذا. وانه اذا كان الله يريد ذلك فمن الممكن تنفيذه» «١٢٤».

وبعد ان يستعرض مولر نقلا عن كريمر اجراءات عمر بشأن الجزية والخراج والاعطيات مما ألحق ببيت المال خسائر فادحة لا تعوض !! يقول «... والى جانب كل هذه الاجراءات التي أضرت ببيت المال اكبر الضرر جاء أمر آخر أصدره عمر. وقد اوحى به اليه احساس انساني بالعدالة. لكن لم يكن

---

(١٢٣) الدولة العربية وسقوطها ص ٢٦٣.

(١٢٤) اوجست مولر. تاريخ الاسلام في الشرق والغرب. ٣٤٩/١ فما بعدها نقلا عن كتاب فون كريمر. تاريخ حضارة المشرق ١٧٤/١ فما بعدها عن كتاب فلهاوزن المذكور هامش ١ ص ٢٦٣ فما بعدها.

موفقا من ناحية عملية ، وهو يقضي برد جميع الاموال التي ابتزت من الرعايا، ظلما، الى اصحابها. ولا نعرف ان كان هذا قد وقع مقصورا على احوال فردية ولكن اكثر العمال خيانة ما كان يستطيع ان يتمنى فرصة اكثر مواتاه من هذه الفرصة لانتهاب الخزانة من غير ان يناله عقاب» «١٢٥».

اترون ... حتى اكثر الاجراءات التصاقا بمفهوم العدل الاجتماعي ، يفسرها مونلر على انها فرصة مواتية للعمال الخونة في انتهاب الخزانة دون ان ينالهم عقاب... هل سبق لنا بعد اطلاعنا على جوانب من برنامج عمر، ان شهدنا ولو دليلا واحدا على هذا الانتهاب من قبل العمال؟ لا نريد ان نستمر في النقاش وهذا فلها وزن نفسه يناقش هذا الاسلوب الثنائي المصطنع في تقييم منجزات عمر الاقتصادية والاجتماعية

وفلها وزن يتبع في هذه المناقشة اسلوبا اكثر دقة وعلمية، واحرص على الموضوعية من سائر الذين عالجوا الموضوع. لولا انه يقع في خطأين. اولهما خطأ عام هو خطأ منهج البحث الذي يسلكه الغربيون دائما في بحث التاريخ والفكر الانساني لشتى الامم والحضارات والشعوب. وهو منهج يتمركز دائما على التراث والفكر والموضعات الاوربية، الممزوجة احيانا بصبغة ودوافع مسيحية لا يمكن تجاهلها. الامر الذي اوقعهم دائما في اخطاء ليس من السهل تلافيها.

وفلهاوزن. عبر استعراضه وتحليله لتطور الامور المالية حتى عهد عمر ابن عبد العزيز، مما يعد بحد ذاته بحثا في غاية القيمة. يقع في أخطاءعديدة بحكم التزامه المنهج المذكور. وعلى رأس تلك الاخطاء عدم ادراك طبيعة الارتباط بين الفقه الاسلامي المرن المتطور. وبين الاسس العريضة والاطارات المفتوحة التي يضعها القرآن والسنة. والتي اتاحت للفقهاء انشاء بناء فقهي مساير للتطورات الاجتماعية. لا يدانيه بناء. في الوقت الذي نقرأ فيه لفلهاوزن

---

(١٢٥) المصدر السابق ، نفس الصفحات .

عبارة كهذه « من عادة فقهاء الاسلام دائما انهم . اذا تقررت قاعدة ما شيئا فشيئا تحت تأثير الحاجات او النزعات المتجددة حينا بعد حين . ارجعوها الى البدايات الاولى . وجعلوا لها صبغة مقدسة بردهم اياها الى سنة النبي وسنة الخلفاء الاولين » «١٢٦» . ولم يشأ مترجم الكتاب أن يدع احكاما كهذه تطلق على عواهنها فيعلق على العبارة السالفة مثلا بقوله « لا شك ان فيما يقوله المؤلف هنا – وفيما سبق – كثيرا من المبالغات ، لان القواعد التي كانت جديدة في صورتها او تفاصيلها لم تكن كذلك في اصولها ومصادرها الشرعية . وطبيعي ان يكون هناك فرق بين الصورة القانونية الفقهية للاحكام وبين صورتها في النصوص الاولى ، أو في السنة الأولى ، او بين الصور القانونية القديمة وبين القواعد العامة التي تتضمنها النصوص من القرآن او السنة ، وهذا معروف في كل العلوم الاسلامية مما لا يجعل صنيع الفقهاء عملا متكلفا او ادعاء من غير استناد الى نص قرآني أو سنة نبوية ، او الى ما يؤخذ منهما من طريق القياس » «١٢٧» .

والخطأ الاخر لفلهاوزن هو خطأ شخصي . فمؤرخ بوزنه يبحث الامور بهذه الدقة وهذا التتبع الرائع . كان عليه أن يلم – على الاقل – بالمصادر الاساسية عن الموضوع . ذلك ان اعتماده يبدو منصبا على مصادر محدودة فحسب على رأسها الطبري والبلاذري وابن آدم في كتابه عن الخراج . ثم ابن عبد ربه وابن عساكر – الى حد ما – رغم كونهما من المتأخرين ، هذا في الوقت الذي لا يمكن فيه لأي باحث عن اجراءات عمر في شتى المجالات

---

(١٢٦) الدولة العربية وسقوطها . ص ٢٧٣ .

(١٢٧) المصدر السابق هامش ٢ (للمترجم عبد الهادي ابو ريدة ص ٢٧٣) ، وانظر كذلك : مناقشة لنظرة المؤلف الى الجزية . ، ص ٢٦٧ – ٢٦٨ وهوامشها .

ان تتكامل الصورة لديه الا باضافة مراجع اخرى اكثر اهمية وارتباطا من المراجع آنفة الذكر . – على اهميتها – مثل سيرة عمر لابن عبد الحكم . وسيرة عمر لابن الجوزي . وكتاب الطبقات لابن سعد . وتاريخ خليفة بن

خياط فضلا عن المسعودي واليعقوبي وابن الاثير وابن كثير وغيرهم. وهنالك خطأ شخصي اخر يعود الى عدم فهم بعض النصوص فهماً كافياً «١٢٨».

ونعود الى مناقشة فلهاوزن لكريمر وموللر. انه بعد استعراض وتتبع دقيقين لخطوط النظام المالي منذ عهد عمر بن الخطاب الى عهد عمر بن عبد العزيز، وبخاصة فيما يتعلق بالجزية والخراج . وبعد مناقشته الكثير من الامور الضريبية الخاطئة في هذا المجال والتي غدت بديهيات يتداولها المؤرخون «١٢٩» يقول: « على الرغم من أن اشياء كثيرة لا تزال غامضة «١٣٠» . فان ثم شيئا واحدا واضحا الى حد كبير . وهو ان المؤرخ يجلب على نفسه السخرية، اذا نظر الى عمر نظرة استهزاء مقصود . وهذا هو ما بدأه دوزي . فأعطى بذلك الاشارة لغيره «١٣١» ... وليس من الضروري . بطبيعة الحال ، ان يكون عمر قادرا على تحقيق كل ما اتجهت اليه نيته الطيبة . فمثلا يذكر بعض من لم ينصفه ان الدليل الاكبر على عدم كفاءته السياسية انه ضيع الاموال ولكنا قد عرفنا فيما تقدم حقيقة الامر في ذلك » «١٣٢».

وبعد ان يستعرض فلهاوزن اجراءات عمر العملية بشأن الجزية والخراج وموازنة المالية بالتأكيد على الضريبة الاخيرة يقول « ... وكذلك عني عمر بالحيلولة بين الولاة وبين ان يكون همهم الاول من مناصبهم جمع الاموال

---

(١٢٨) انظر على سبيل المثال : الصفحات ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤، وهوامشها .

(١٢٩) انظر الصفحات : ٢٦٣ – ٢٩٤.

(١٣٠) ذكرنا ، قبل قليل ، ان فلهاوزن لم يرجع في بحثه عن عمر الى عدد من اهم المصادر التي لا يمكن اعطاء صورة واضحة المعالم عنه ، بدونها .

(١٣١) يقول دوزي : تدهور دخل الخزينة اكثر زمن الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز الذي لم يبال بالامر ! حتى لقد بعث اليه احد جباته رسالة يقول له فيها : (لو استمر الامر على هذا المنوال طويلا في مصر لجب الذميون دياناتهم ولاسلموا وقل الخراج في بيت المال) فجوبه (وددت لو اسلموا فما بعث الله نبيه جابيا ولكن هاديا) . تاريخ ... مسلمي اسبانيا ١٣٨/١ . وانظر : فان فلوتن ، فيما سبق .

(١٣٢) الدولة العربية وسقوطها ص ٢٩٤ – ٢٩٥.

لانفسهم . والاغلب ان ذلك عوض النفقات التي اقتضتها اصلاحاته ضعفين... ومهما كان الامر فان الاهتمام بالشؤون المالية ليس هو كل ما يعني الدولة. ومن ذا الذي يكون عنده من الجرأة ما يجعله يستنكر على عمر انه اسقط عن البربر الجزية ، جزية الابناء – فقد كانوا يقدمون ابناءهم على سبيل الجزية – وانه خفف العبء على نصارى نجران ، وانه عمل على حماية الرعية من العمال. وانه حرص على الا تكون ادارة الامصار مجرد وسيلة لا ستغلالها استغلالا مالياً ؟ » ١٣٣.

ونمضي مع مقتطفات اخرى من رد فلهاوزن . انه رد مقنع ومغر لانه ينبثق عن رؤية واضحة للتطور المالي في عصر الامويين ... نمضي معه وهو يسعى الى ازالة الغبش الذي شوه رؤية كريمر ومولر وفلوتن ودوزي وغيرهم. وهو غبش لا يمكن رده بأية حال من الاحوال الى حسن النية والتجرد وعدم الفهم .... « اما فون كريمر واوجست مولر فرأيهما أن عمر تدخل في الامور المالية دون اية ضرورة عملية ، جرياً وراء ما صوره له ورعه من مثل عليا خيالية . فأفسد المجرى الطبيعي للمالية واخرجها عن الطريق الذي أدى بها اليه التطور السابق . وهما يزعمان ايضا انه لم تكن عنده اية فكرة عن الاحوال الواقعية . اما الحقيقة فهي بالاحرى ان المؤرخين الذين ينقدون اعمال عمر هم الذين يتصورون الاحوال الواقعية لذلك العصر تصوراً خاطئاً . فلقد كانت هذه الاحوال مضطربة ومحتاجة الى تنظيم جديد . ولم يكن عمر نفسه هو الذي احدث الاضطراب في نظام الخراج . بل كان الاضطراب موجودا من قبل . وما كان يمكن ان يستمر . ولم يكن الواجب الذي اراد عمر الاضطلاع به واجباً خيالياً موهوماً . بل كان واجباً حقيقياً وملحاً ... فأما القاعدة التي تمخضت عنها الحكمة الرومانية ، وهي ان دولة لا يمكن ان تعيش الا بالوسائل التي اعتمدت عليها في قيامها ، هذه القاعدة التي يسوقها

(١٣٣) المصدر السابق ص ٢٩٦ .

(١٣٤) المصدر السابق ص ٢٩٦ – ٢٩٧ .

موللر في اخذه على عمر انحرافه عن سنة سلفه من خلفاء بني أمية . فهي قاعدة يمكن ايضاً ان تذكر في معرض النقد لخلفاء بني أمية انفسهم . ذلك ان حكومتهم لم تكن باي حال من الاحوال سائرة على سنة حكومة النبي « عليه السلام » واصحابه . وهي وان كانت قد ارادت ان تتمسك بالاسلام، وما كان يمكنها ان تتنكر له . فان الاسلام لم يكن من شأنه ان يؤيدها بل ان يقوض الاساس الذي قامت عليه » «١٣٤» ويختتم فلهاوزن مناقشته قائلا «... ولا يمكن التكهن بما كان عمر سيحقق من اعمال ، لان خلافته لم تدم الا نحو عامين ونصف ... » «١٣٥»

أهم المصادر والمراجع

ابن الاثير : عز الدين ابو الحسن الشيباني

الكامل في التاريخ ، دار صادر . بيروت — ١٩٦٥ .

البلاذري : احمد بن يحيى بن جابر

فتوح البلدان . تحقيق صلاح الدين المنجد . لجنة البيان العربي القاهرة ١٩٥٦ — ١٩٥٧ .

ابن الجوزي : جمال الدين ابو الفرج

سيرة عمر بن عبد العزيز . تحقيق محب الدين الخطيب. مطبعة المؤيد . القاهرة — ١٣٣١هـ .

ابن عبد الحكم : ابو محمد عبد الله .

سيرة عمر بن عبد العزيز . تحقيق احمد عبيد . ط ٥ . دار العلم للملايين . بيروت — ١٩٦٧ .

ابن سعد : محمد

كتاب الطبقات الكبير . تحقيق ادوارد سخاو . بريل . ليدن — ١٣٢٢هـ.

السيوطي : عبد الرحمن بن ابي بكر

تاريخ الخلفاء . إدارة الطباعة المنيرية . القاهرة — ١٣٥١هـ.

(١٣٥) المصدر السابق ص ٣٠١.

الطبري : محمد بن جرير
تاريخ الرسل والملوك . تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم ، دار المعارف . القاهرة — ١٩٦٠ .
ابن كثير : عماد الدين ابو الفدا
البداية والنهاية . مطبعة السعادة . القاهرة — ١٣٥١ — ١٣٥٨هـ.
ارنولد توماس و .
الدعوة الى الاسلام . ترجمة حسن ابراهيم حسن ورفاقه. ط ٢ . مكتبة النهضة . القاهرة ٩٤٧.
ترتون . أ . س .
اهل الذمة في الاسلام . ترجمة حسن حبشي . ط ٢ دار المعارف . القاهرة — ١٩٦٧ .
الدوري : عبد العزيز
مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي . دار الطليعة . بيروت — ١٩٦٩.
دوزي : ر .
تاريخ مسلمي اسبانيا . حـ١ . ترجمة حسن حبشي . دار المعارف . القاهرة — ١٩٦٣ .
فان فلوتن : ج .
السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات . ترجمة حسن ابراهيم حسن ومحمد زكي ابراهيم . مطبعة السعادة . القاهرة — ١٩٣٤.
فلهاوزن : يوليوس
الدولة العربية وسقوطها . ترجمة عبد الهادي ابو ريدة . لجنة التأليف والترجمة . القاهرة — ٩٥٨ .
الندوي : ابو الحسن علي حسني
رجال الفكر والدعوة في الاسلام . ط ٢ . مكتبة دار الفتح دمشق — ١٩٦٥.

لمحات في حياة الطبقة الفلاحية في العراق الوسيط

الدكتور خضر الدوري

ان المسيرة النضالية التي خاضتها الجماهير الكادحة عبر التاريخ اثبتت ان الهدف الاساس لأي حركة ثورية هو قلب البنى الاقتصادية والاجتماعية القديمة ، الاقطاعية منها او الرأسمالية . وابدالها ببنى جديدة قائمة على الاشتراكية والديمقراطية الشعبية .

ان هذه الحركات الثورية تتسم ، عادة ، بسلوكية خاصة اساسها الفهم العميق والايمان الملتزم بفكرة الصراع الطبقي كمحرك رئيس وقادر على تعبئة الجماهير وتوجيهها من اجل استمرارية الثورة والحفاظ على مكتسباتها . ان هذه السلوكية هي الكفيل الوحيد الذي يمنع امتصاص ثورة الكادحين من قبل اصحاب الامتيازات او الانتهازيين . ويمنع كذلك انحراف مبادئ الثورة وراء شعارات ترفعها عادة بعض العناصر البرجوازية التي لم تتمكن خلال فترات النضال . من الانقلاب على واقعها الطبقي والتحرر منه والانتظام مع مسيرة الكادحين .

في الوقت الذي نؤكد فيه على ان سلوكية المناضل الثوري يجب ان تتميز بالوعي العميق لطبيعة الصراع الطبقي الذي تخوضه الجماهير الكادحة . نؤكد كذلك على ان هذا الوعي يجب ان يرتكز على فهم تحليلي للجذور التاريخية لكل بنية من البنى التي تعمد الثورة على قلبها وتغييرها . وبذلك يسهل فهم جذور الواقع الذي تحياه وتناضله الجماهير الثائرة وعندها سيسهل الانطلاق بخطى سليمة وواسعة نحو مستقبل افضل .

انطلاقا من ذلك ساحاول هنا ان القي بعض الضوء على الوضع النضالي الذى عاشته الجماهير الفلاحية الكادحة في العراق في عصوره

الوسطى. وقبل ان ادخل في الموضوع أوْد ان اشير الى نقطتين هامتين:

اولاـ ان حضارات العصور الوسطى ـ والحضارة العربية الاسلامية واحدة منها ـ كانت حضارات ارستقراطية ازدهرت على حساب مصلحة الجماهير الكادحة . فاعضاء الطبقة الارستقراطية المالكة وربيبتها الفئة الراقية من الطبقة البرجوازية . كانوا هم المنتفعون من الواقع الحضاري الذى عاشوه. بينما نجد ان الغالبية العظمى رزحت تحت وطأة الاستغلال البشع .

ان تقييمنا للازدهار العظيم الذى شهدته الحضارة العربية الاسلامية في العصور الوسطى والمتمثل في التراث الفكرى والعملي المبدع الذى ساهمت فيه في مضمار الحضارة الانسانية . لا يمنعنا ابدا من كشف بعض الجوانب السلبية في تلك الحضارة والتي كانت تعمل على اضعافها . وما احوجنا الان وفي مثل هذه الظروف الى ان نكون اكثر واقعيين ونمعن النظر في تراثنا الحضارى القومي لنستكشف عوامل القوة والضعف في تلك الحضارة ونعمل على بعثها من جديد بعد ان نسقط منها سلبيات الماضي ونطبعها بالطابع التقدمي الثوري .

ثانياـ ان فن التدوين التاريخي هو في الحقيقه أحد أهم المظاهر الادبية في تراث الحضارات الانسانية . وهو يعكس طبيعة الحضارة التي ينسب اليها . اذن فان فن التدوين التاريخي للحضارة العربية الاسلامية يمكن ان يعكس لنا طبيعة تلك الحضارة التي وصفناها بانها حضارة الطبقة الارستقراطية المالكة وربيبتها الفئة الراقية من الطبقة البرجوازية .

فكتب التاريخ العديدة. سواء ذات الصبغة العامة او المحلية. نجدها تهتم اولا وعلى نطاق واسع بأسماء وأنساب واقوال وافعال وصفات رجال الطبقة الارستقراطية والبرجوازية وتكاد تغفل ـ إلاماندر ـ احوال الطبقة العامة. وحتى في حالة ذكرها شيئا عن حياة العوام ـ الذين كانوا يوصفون من قبل مؤرخي تلك التواريخ بالرعاع ، السلفة ، الغوغاء ، الطغام ، السوقة .. الخ

فأنه غالبا ما يكون ذلك الذكر مقتضبا، مشوشا، مبالغا فيه، ومتحيزا ضد العامة. من ذلك كله جاءت صعوبة جمع المادة التاريخية اللازمة لرسم صورة اكثر واقعية لحياة الطبقة العامة وخصوصا الفلاحين منهم.

على اية حال، ان المعلومات المتجمعة لدينا تشير الى ان الفتح العربي الاسلامي لكل من العرق وسوريا ومصر كان ضربة قوية للطبقات المالكة الاقطاعية الساسانية والبيزنطية. فاقطاعيات هذه الطبقات قد استصفيت من قبل الدولة الاسلامية ووضعت تحت تصرف الخليفة.

ان الضربة كما قلنا كانت موجهة للطبقة المالكة ألاقطاعية نفسها الاانها لم تكن موجهة لقلب البنى الاقتصادية والاجتماعية التي يقوم عليها النظام الاقطاعي الذي تسود فيه صيغ من الانتاج القائمة على الاستغلال الجماعي او الفردي. على العموم، ان الحكم الاسلامي اقر طبيعة الكثير من البنى الاقتصادية القديمة وابدل فقط قسماً من المنتفعين. الاانه لم يغير صيغ الانتاج مما مهد الطريق - الى تبني البنى الاقطاعية من قبل القبائل العربية الفاتحة بدوية كانت ام حضرية. بذلك نجد ان المجتمع العربي تحول من قبلي رعوي الى قبلي زراعي وتحولت الارستقراطية القبلية الى ارستقراطية اقطاعية وتجارية. فما أن فتح السواد «ارض العراق» حتى طالب الفاتحون. خصوصا القواد الارستقراطيون والبرجوازيون الخليفة عمر بأن يقسمه بينهم. كذلك حدث نفس الشئ عند فتح الشام ومصر. ولو فتشنا عن زعماء هذه الحركة المطالبة بالتقسيم لوجدنا بينهم عبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وبلال الحبشي.

ان تطلعات هذه الفئة نحو احتجاز المزيد من الثروات والاراضي الزراعية تنعكس في الحاحهم الشديد على الخليفة عمر بالتقسيم، فما كان من عمر الا ان رفع يده الى السماء يدعو الله عليهم قائلا «اللهم اكفني بلالا واصحابه» وتذهب الرواية الى ان الله استجاب دعائه، فمات بعضهم بطاعون عمواس سنة ١٨هـ. «١»

استطاع عمر – الى حد ما – ان يقف بوجه ذلك التيار الذي ترأسه بعض

---

(١) أبو يوسف، الخراج ص ٢٦.

الزعماء من اجل الاستيلاء على أوسع قدر من الاقطاعيات. الا ان هذا لم يدم اكثر من فترة حياة عمر التي انتهت سنة ١٨هـ .

بل اننا نجد بعض الروايات تشير الى ان عمر نفسه كان قد اقطع بعض القبائل اقطاعات خاصة. وعند مجيء عثمان بدأت الامور تتغير بسرعة وتزداد الاقطاعات على حساب الاراضي الخراجية .

ان التطلعات نحو امتلاك الاقطاعيات واعتبار الفلاحين ارقاء اتخذت شكلا قانونيا تمثل باقوال كالتي تنسب الى الفقيه شريك حيث قال «اهل السواد ارقاء» وكذلك قال« الجزية التي تؤخذ منهم انما هي خراج . مثل ما يؤخذ من العبد الخراج ولا يسقط ذلك عنهم اسلامهم. «٢» كذلك نجد ان سعيد بن العاص والي عثمان يقول ان « السواد بستان قريش ماشئنا اخذنا منه وماشئنا تركناه » . «٣»

من ذلك يبدو ان المطالبين بالتقسيم قد كسبوا المعركة اخيرا وتمكنوا من امتلاك اراض واسعة بوسائل مختلفة . ولقد وافق ذلك تحالف بين طبقة الدهاقين الزرادشتية والطبقة المنتفعة من المسلمين. حيث ان الدهاقين وجدوا ان من مصلحتهم التحالف مع المالكين الجدد للحفاظ على مصالحهم الاقتصادية والاجتماعية . وبنفس الوقت وجدت الطبقة المنتفعة المسلمة انها بحاجة الى هذا التحالف لسد النقص الذي تشكوه في الخبرة والتنظيم في تسيير كافة متطلبات الاستغلال الاقطاعي خصوصا جباية الضرائب من الفلاحين .

من خلال هذا التحالف استطاع الدهاقين ان يوقعوا جل الضريبة على الفلاحين في حين اعفوا انفسهم من الجزء الاكبر منها «٤». ان هذا التحالف الطبقي انعكس ايضا في قول احد الفرس ان « الشريف من كل قوم نسيب الشريف من كل قوم » «٥». لقد فرض المالكون الجدد بمساعدة الدهاقين انواعا كثيرة من الضرائب على الفلاحين. فاضافة الى الضريبة الاصلية « الخراج »

---

(٢) الطبري . اختلاف الفقهاء ص ٢٢٥ .

(٣) الدوري . النظم الاسلامية ص ١٣٨ .

(٤) الطبري ج ٨ ص ١٧٧ ، ص ١٩٦ ، ابن الاثير . الكامل ج ٥ ص ٤٥ .

(٥) الدوري . النظم ص ١٥٠ .

كان على الفلاح ان يدفع هدايا النوروز والمهرجان. الآيين « الرسوم ». اجور الضرابين « سكاكي النقود ». ثمن الصحف. فرق العملة « اختلاف وزن النقود ». اضافة الى اعمال السخرة والاضطهاد .

في تلك الاوضاع الاقطاعية القائمة على ابشع انواع الاستغلال، لم يجد الفلاح وسيلة لتغيير مصيره الا الثورة بوجه مستغليه. وتم ذلك فعلا عندماانضم الكثير من الفلاحين الى ثورة المختار بن الاشعث « سنة٨١–٨٢هـ » الا ان هذه الثورة – وبسبب عفويتها– استغلت من قبل بعض صغار الملاك الذين اسهموا فيها. فنجدهم في بداية الثورة يحرقون سجلات الديوان وبذلك ضاعت الوثائق التي تثبت نوع وعائدية الاراضي فتسنى لهؤلاء ادعاء عائدية اراضي اوسع سواء كانت من اراضي الصوافي او الخراج. على اية حال فالثورة اخمدت ولم يكن نصيب الفلاحين منها الا المزيد من الاستغلال والاضطهاد.

لم يكن الاضطهاد موجها لفلاحي العراق بل أن مصر شهدت نفس الشيء فهذا مسؤول الضرائب في مصر يكتب الى سليمان بن عبد الملك قائلا « يا أمير المؤمنين اني ما جئتك حتى نهكت الرعية وجهدت. فان رأيت ان ترفق بها وترفه عنها وتخفض خراجها ما تقوى به على عمارة بلادها وصلاح معايشها فافعل . فانه يستدرك في العام المقبل. فاجابه سليمان : هبلتك امك احلب الدر فاذا انقطع فأحلب الدم والنجا » ٦ ان مثل هذا الاستغلال البشع كان السبب في ثورات الفلاحين في مصر في سنوات ١٠٦هـ ، ١٢١هـ ، ١٣٤هـ ٧ .

ان انتفاضات الفلاحين تلك تشير الى ان اصلاحات عمر بن عبد العزيز التي شرعت سنة ١٠٠هـ لم تدم اكثر من سنة واحدة وعلى فرض انها طبقت في خلال تلك السنة في كافة انحاء الامبراطورية الاسلامية . ولكي يحمي الفلاح او المالك الصغير نفسه من جور موظفي المالية « عمال الضرائب » وظلم الولاة كان يضطر الى الجاء ارضه وضياعه الى الامراء وبطانتهم وينضوي تحت سلطتهم. الا ان هذا ادى الى فقدانه ارضه وبالتالي الى اتساع ملكيات اولئك المتنفذين . كذلك نجد ان الكثير من الفلاحين تركوا ارضهم وهاجروا الى المدن مما ادى

(٦) الجهشياري ص ٤١ – ٤٢ .
(٧) الدوري النظم ص ١٥٨

الى خراب كثير من الاراضي الزراعية من جهة والى تضخم عدد البروليتاريا في المدن، الذين كثيرا ما استخدموا كعمال بأجر زهيد جدا او اعيدوا قسرا الى قراهم كما فعل الحجاج .

ان تجمع هذه الطبقة من البروليتاريا كان له اثره في التطورات الاجتماعية والاقتصادية التي شهدها العراق . حيث انهم كانوا مهيئين للمشاركة في كل انتفاضة او اضطراب .

لقد تبنى بعض الامراء الامويين – لمصلحتهمْ الخاصة – قضية الفلاحين المعدمين ، فهذا يزيد بن الوليد الذي ثار على الوليد الثاني سنة ١٢٦ هـ نجده يؤكد في شعاراته التي رفعها انه يسعى الى « عدم ارهاق الفلاحين وعلى ايقاف حفر القنوات وبناء القلاع » « ٨ » . في نفس هذا الوقت نجد ان الدعوة العباسية كانت تعمل على الاستفادة من تذمر الطبقات المستغلة مؤكدة على مبادئ العدل والمساواة بين جميع المسلمين وداعية الى اقامة حكم الله على الارض . الا ان النشاط الاقتصادي الهائل الذي شهدته بغداد العاصمة والتوسع في الملكيات الزراعية حالما بدد آمال الكادحين فطويت الشعارات التي رفعتها الثورة العباسية بعد ان افرغتها من كل محتوى . عندها وجدت الجماهير الكادحة نفسها مرة اخرى. تحت وطأة الضرائب المجحفة والظلم . فكتاب الخراج لابي يوسف قاضي قضاة هارون الرشيد غني بالشواهد على ذلك . وكمثل فقط نجد ان الفلاحين كانوا يدفعون ليس فقط ضريبة الارض « الخراج » بل كذلك رزق العامل، الموظف المالي، حمولة طعام السلطان ، ثمن الصحف والقراطيس ، اجور الكيالين ، اجور الفيوج . ورواج الدراهم «فرق العملة » . هذا اضافة الى انهم كانوا يقامون في الشمس ويضربون الضرب الشديد وتعلق عليهم الجرار ويقيدون « ٩ » . ومما يلاحظ في العراق ان المالكين الكبار كانوا يشترون العبيد من افريقيا ويستخدمونهم في استصلاح الاراضي خصوصاً في البصرة . ان الوضع المزري الذي عاشه

---

(٨) الطبري ج٢ ص ١٨٣٤ - ٣٥ .

(٩) ابو يوسف ، الخراج ص ١٠٩ .

الالاف من العبيد الزراعيين كان السبب في ثورتهم المشهورة بثورة الزنج في النصف الثاني من القرن الثالث الهجرى . وبنفس الوقت ثار بقية فلاحي السواد مع جماعات من العمال والاعراب والتي قادهم في هذه المرة احد الفلاحين يدعى حمدان قرمط.

لقد نجح حمدان في تنظيم هؤلاء الفلاحين واستقطابهم حول عقيدة تتبنى فيها اهم مشاكلهم ووضع الحلول لها ، وهي ، باختصار ، اقامة مجتمع اشتراكي تنتفى فيه كل صور الاستغلال والطبقية. فيروى انه عندما سئل حمدان عن هدفه في الثورة قال ما معناه « أمرت ان اروى هذه القرية واغني اهلها ، وان انقذهم ، واضع بيدهم ثروة اسيادهم. «١٠» كان من شروط نظامهم الاشتراكي هو« ان يودى كل عضو من اعضائه . . . دينارا في كل سنة .. ثم « دفع » ضريبة كانت تعرف عندهم « بالفطر » وهي درهم كان يؤديه جميع الاسماعيليين « الاعضاء » بدون استثناء ، وضريبة اخرى تعرف « بالهجرة » وهي دينار كان يؤديه كل بالغ وبالغة . . . فكانوا يؤدونها عن طيب خاطر حتى اذا عجز احدهم عن تاديتها اداها عنه غيره راضيا مسرورا . . . « ودعاهم حمدان الى » ان يؤدوا لدار الهجرة « قاعدة الثورة » خمس ما كانوا يملكون او يكتسبون فلبوا دعوته راضين ثم قدروا املاكهم ودفعوا عنها الخمس فرحين حتى كنت ترى المرأة تقدم للداعي « اى مسؤول التنظيم » خمس غزلها والفاعل خمس اجرته فكانت الضريبة قسطا يدفعه الشخص الى صندوق الاخوية ، الا ان حمدان لم يكتف بهذه الضرائب بل أمر اهل القرى التي دخلت في دينه ان يحملوا الى محل واحد كل ما يملكون ، فلما جمعوه جعله مشاعا بين الاعضاء يتولى توزيعه رجل منهم ذو ثقة فكان يجمع ما كان يحضره الاعضاء من اثاث وحلى وثياب وماكولات ومال ثم يوزعه على المحتاجين من القرامطة حتى لم يبق بينهم فقير ، فكنت ترى الرجال منهم يشتغلون برغبة ونشاط والنساء يحملن الى « بيت الجماعة » ما كن يكسبنه من المال حتى ان الاولاد الصغار انفسهم كانوا يقدمون الى مدير البيت ما كانوا ياخذونه من الجعالة « الاجرة » من اصحاب البساتين التي

(١٠) الدوري ، دراسات في العصور العباسية المتأخرة ص ١٧٩ .

كانوا يحرسونها في النهار ويطيرون الطيور عن اشجارها وبقولها حتى لم يعد احد يملك الا « سيفه وسلاحه ». « ١١ »

من كل ذلك نجد ان هؤلاء الفلاحين استطاعوا ان يعوضوا عن قلة عددهم بقوة وصلابة تنظيماتهم وبالتزامهم بالنظام. لقد ارتفعوا حقا الى مستوى الخطر الذي كان يحيق بهم. فلقد خضعوا اولا الى برنامج من الضرائب المتصاعدة الى ان وصلوا الى درجة انهم الغوا الملكية الفردية واخذوا بالاشتراكية. كما وان هذه المبادئ الاشتراكية التي تبنوها كانت حافزا عظيما لمزيد من المساهمة الفعالة في النشاط الاقتصادي قام بها كل فلاح وعامل عضو في ذلك التجمع.

على الرغم من الضربات القوية التي سددتها السلطات ضد هذه الحركة نجد انها استمرت تقاوم لفترة طويلة وحتى عندما فقدت الحركة قوتها العسكرية في العراق نجد ان مبادئها استمرت سريا بين جموع الفلاحين والعمال.

لقد شهد العراق منذ بداية الثلث الثاني من القرن الرابع الهجري تطورات ذات اثر خطير في شؤون القطر السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتي انعكست آثارها من خلال نضال الجماهير الفلاحية.

فالبويهيون ومن بعدهم السلاجقة كانوا غرباء لا تعنيهم كثيرا مصلحة شعب العراق بل كان جل همهم هو امتصاص اكبر قدر من موارد القطر. ومن اسوء ما ابتدعوه في هذا المجال هو الاقطاع العسكري اضافة الى توسيعهم كل صنوف الاستغلال الزراعي الاخرى. فهذا ابن مسكوية احد من عاش فترة التسلط البويهي وخدم سلاطينهم يؤكد ذلك قائلا « وفي هذه السنة «٣٣٤-٩٤٦م» شغب الديلم «الجنود» على معز الدولة شغباقبيحا... فضمن اطلاق اموالهم في مدة ضربها لهم فاضطر الى خبط الناس واستخراج الاموال من غير وجوهها. فأقطع قواده وخواصه واتراكه ضياع السلطان وضياع المستترين وضياع ابن شيرزاد وحق بيت المال من ضياع الرعية وصار اكثر السواد مغلقا وزالت ايدي العمال « موظفي المالية » عنه وبقي اليسير منه من المحلول فضمن...

(١١) بندلي جوزي ، من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ص ١٦٢ - ١٦٤ .

«وكنتيجة لسوء تصرف الجند باقطاعاتهم وجهلهم بشؤون الزراعة» صار الرسم جاريا بان يخرب الجند اقطاعاتهم ثم يردوها ويعتاضوا عنها من حيث يختارون «فاضطربت الامور»، وبطلت المصالح واتت الجوائح على التناء «الزراع» ورقت احوالهم فمن بين هارب جال وبين مظلوم صابر لا ينصف وبين مستريح الى تسليم ضيعته الى المقطع «صاحب الاقطاع» ليأمن شره ويوافقه... واقتصر المقطعون على تدبير نواحيهم بغلمانهم ووكلائهم فلا يضبطون ما يجرى على ايديهم ولا يهتدون الى وجه تشير ومصلحة ويقطعون اموالهم بضروب الافساد واعتاض اصحابهم ممايذهب من اموالهم بمصادراتهم وبالحيف على معامليهم»[12]

بعد اكثر من قرن دخل السلاجقة بغداد وعاثوا فسادا الى ان استلم نظام الملك الوزارة سنة ٤٥٥هـ فحاول اصلاح الامور .

على الرغم من ان منطلقات نظام الملك في الاصلاح كانت قائمة على تاكيد وتنظيم الاوضاع الطبقية للمقطعين العسكريين والبيروقراطيين، فهو يبدو دائما وكانه ملتزم جانب الفلاحين محاولا قدر ما يستطيع ان يحد من ازدياد قوة نفوذ المقطعين وعمال الضرائب وكان يعمل بنفس الوقت على تثبيت واجبات الفلاح مع تخفيف العبء عليه .

فنجده يؤكد بان لا صلاحية لرجال الجيش، الذين اقطعوا اراض، على الفلاحين عدا صلاحية استحصال – وباحترام – المبالغ التي خصصت لهم كوارد مالي . وعندما يدفع الفلاحون تلك المبالغ يجب ان يوفر لهم الامان على ارواحهم واموالهم ونسائهم واطفالهم ويجب ان تصان ممتلكاتهم وحقولهم . واذا اراد عدد من الفلاحين ان ياتوا الى بلاط السلطان ليرفعوا شكواهم ضد المقطعين فيجب ان لا يمنعوا من ذلك، وان اى مقطع يعمل العكس يجب ان تؤخذ اقطاعيته ويؤدب ليصبح عبرة للاخرين. يجب ان يعلم المقطعون – يقول نظام – ان البلاد وفلاحيها يعودون الى السلطة الحاكمة ، يعني السلطان «[13]» .

---

(١٢) ابن مسكويه: تجارب الأمم ج٢ص٩٦–٩٩ .
(١٣) نظام الملك ،سياسة نامة (الترجمة الانكليزية) PP. 22, 33

اما عن حالة الفلاحين الذين يعيشون على ارض تحت اشراف عمال الضرائب فنجد ان نظام الملك ينصح اولئك بان يعاملوا الفلاحين بنبل وان ياخذوا – وبأدب – المبلغ المحدد اخذه فقط . وان لا يطالبوهم بالضرائب الا في الوقت المحدد للجباية، اذ حينما يطالب الفلاحون بالدفع مسبقا – يقول نظام – فستنتابهم المشاكل، ولاجل دفع هذه الضرائب فانهم سيضطرون لبيع حاصلاتهم بسعر النصف عما اذا باعوها وهي تامة النضج . وعندها سيكونوا على حافة الدمار وعندها سيضطرون الى الهجرة .

ان ما يذكره نظام الملك يشير الى ما يلي :

١ . ان الفلاحين تحت النظام الاقطاعي كانوا بشكل عام مثقلين بالضرائب وان فرض ضرائب اضافية كان امرا طبيعيا .

٢ – ان الوسائل التي كانت تجبى بواسطتها تلك الضرائب كانت غير انسانية قط ومجحفة .

٣ – على الرغم من ان الفلاح كان يدفع كل ما يطلب منه الا انه لم يحصل الا على خدمات قليلة او لم يحصل على اى مقابل ذلك. بل على العكس فان حقله وحيواناته واهله ونفسه كانت غير محمية .

٤ – وحيث ان المقطعين او عمال الضرائب كانوا غير واثقين من استمرارهم في اقطاعاتهم لمدد طويلة فقد كان همهم ان يبتزوا ما شاؤا من ثروات قبل ان يعزلوا. وبهذا افقروا الفلاحين اكثر. اما اولئك الذين كانوا يستمرون فترات طويلة في اقطاعاتهم نجدهم يصبحون اقوياء ومستقلين في مناطقهم الى درجة انهم يفرضون ما شاؤا من الضرائب. ولهذا نجد ان نظام الملك عندما يتكلم عن مثل هؤلاء يقرر ضرورة تحديد مدة لأقطاعهم لا تزيد على ثلاث سنوات حتى لا يشعروا بالاستقلال.

٥ – لما كان هم المقطعين والعمال الحصول على الاموال وباسرع ما يمكن، فان الضرائب كانت تطلب – عادة – من الفلاحين قبل نضوج الزرع ، وهذا يعني ان الفلاح سيبيع الحاصل بنصف الثمن او اقل . ان مثل هذه الحالة لا بد وانها خلقت طبقة من المنتفعين الذين كان همهم شراء محاصيل

الفلاحين بأثمان زهيدة، او انها خلقت طبقة من المرابين تشتغل بتسليف الفلاحين بفائدة باهضة لحين نضوج الحاصل. والى الان نجد هذه الطبقة تمارس اعمالها في الريف العراقي، الا ان الجمعيات الفلاحية والتسليف الزراعي كفيل بانهاء نشاط المرابين .

اود هنا ان اشير الى ان فكرة العلاوى الشعبية تعتبر من اهم الخطوات في سبيل تحرير الفلاح من براثن المرابين اضافة الى تخفيف اسعار المواد الغذائية على المستهلك في المدينة .ان اصحاب العلاوى الخاصة يمارسون نفس الدور الذي مارسه المرابون في العصور الوسطى. ان اصحاب العلاوى في المدن يقومون بتسليف الفلاحين نقدا او عينا بشروط منها ان على الفلاح ان يجلب كل ما يزرع ويبيعه عن طريق هذا الوسيط المرابي صاحب العلوه. اضافة الى دفع رسوم اخرى .

وهنا يقع ابن الريف في شراك ابن المدينة صاحب المال. وهنا يبرز استغلال الطبقة الراسمالية من سكان المدن للطبقة الكادحة من سكان الريف.انه تثمير الرأسمال المدينة ولكن على حساب الريف. كذلك فان تجمع المحاصيل الزراعية بيد حفنة من اصحاب العلاوى المحتكرين للمواد المنتجة سيجعلهم يتحكمون كما يشاءوا بالاسعار. وهنا ياتي دورهم الثاني وهو استغلال سكان المدينة — خصوصا الطبقة الفقيرة منهم — عن طريق التحكم بالاسعار .

ان المنطق الاشتراكي الثورى — الذي يضع مصلحة الجماهير الكادحة الريفية والحضرية اساسا لكل تغيير — يحتم الاخذ بمبدأ تعميم العلاوى الشعبية الكفيلة بضرب كل احتكار .

٦— لما كان الفلاح قد باع محاصيله بسعر النصف فانه قد ترك مع شيئ قليل جدا ليعتاش عليه طيلة الفصل الزراعي . لذلك لم يكن بوسعه ان يختزن اى شيئ لوقت الحاجة والضيق. وان وضعا كهذا لا بد وان جعل الفلاح يعيش في حالة من الدين المستمر. ان اى موسم ردئ المنتوج او اى حرب او مجاعة كانت تؤدى الى انخفاض عظيم جدا بالسكان.

٧ـ عندما ترك الفلاح بلا أمل تحت رحمة الاقطاعي وموظف المالية والكوارث الطبيعية والحروب نجده اعتبر الهجرة من الريف هي الحل الوحيد لمشاكله. ولكن حتى الهجرة لم تكن سهلة عليه. كان عليه اولا ان يبتر علاقته بعائلته او قومه وهذا عمل صعب جدا في مجتمع نظامه الطبقي على درجة من الصرامة. اضافة الى ذلك فانه إن هاجر فسيبقى في خوف مستمر من ان تعثر به السلطات او الدائن المرابي ويرسلوه الى الحقل ثانية او الى السجن. وهكذا كانت العبودية امرا ملازما للفلاح عبودية للارض ولمن يملكها او يتصرف بحق استثمارها.

ففي سنة ٥٤١هـ وكنتيجة للضرائب العالية التي فرضها السلطان عماد الدين زنكي على فلاحي الموصل. نجدهم قد هاجروا الى منطقة ماردين حيث ان اميرها كان لا يأخذ من الفلاحين الا العشر. فما كان من عماد الدين زنكي الا ان اصدر انذارا الى امير ماردين يهدده فيه بارسال الفلاحين الى الموصل والا فانه سيقود الجيوش ويسحق ماردين ومن فيها. ازاء هذا التهديد رضخ امير ماردين وارسل جميع الفلاحين الى الموصل. « ١٤ »

فلا غرابة اذن ان ينتقد تاج الدين السبكي ديوان الجند المتولي لامر الاقطاعات العسكرية مستنكرا « الزامهم الفلاحين في الاقطاع بالفلاحة » مؤكدا ان « الفلاح امير نفسه لا يد لآدمي عليه ». « ١٥ »

من كل ذلك يبدو جليا ان الاوضاع المادية والنفسية المتردية التي عاشتها الجماهير الفلاحية جعلت هذا القطاع اكثر القطاعات الكادحة ادقاعاً في الفقر. ولما لم تجد نفعا « مجالس النظر في المظالم » نجد ان بغداد وغيرها من مدن العراق والعالم الاسلامي شهدت تجمعات وتظاهرات فلاحية كانت عادة تتمركز في داخل المساجد الجامعة لتعلن عن سخطها ورفضها للواقع الفاسد الذي تعيشه. وذلك بمنع الخطباء من القاء خطب يوم الجمعة وكسر منابرهم. وهذا اخطر ما يمكن ان يفعله المسلم في

(١٤) ابن الأثير، الباهر في تاريخ الدولة الاتابكية ص١٤١.
(١٥) السبكي، معيدالنعم ص٤٨.

ذلك الوقت ليعبر عن تمرده وثورته . ففي مثل تلك الخطب كانت تؤكد خلافة الخليفة وسلطنة السلطان ويمدحان ويدعى لهما . فمنع ذلك وكسر المنابر لهو اخطر من تحطيم صور وتماثيل الطغاة ، بل هو بموازاة ضرب دور البث الاذاعي الان. فالمنبر اشبه بمرسلات الاذاعة اليوم والخطيب هو مذيعها ومذياعها . ففي احدى تلك الانتفاضات الفلاحية تنقل لنا المصادر التاريخية ان العوام ثاروا في سنة ٤٥٣هـ وانهم ارادوا قتل ابن فضلان اليهودي الذي تولى ضمان ضياع امير المؤمنين « الخليفة ». لقد اراد العامة قتله لولا ان يتدخل ممثلوا الطبقة الارستقراطية المالكة الاقطاعية ، اعني حرس الخليفة، ونقلوه الى باب المراتب احدى ابواب دار الخلافة حيث المحلة التي كان يسكنها كبار التجار واصحاب الاموال.

وهكذا اتفقت مصلحة الطبقة المستغلة من المسلمين مع اليهود من اجل ابتزاز الطبقة الكادحة . وفي سنة ٤٦١هـ انتفض فلاحوا منطقة عكبرا « شمال بغداد » فيصفها شاهد عيان فيقول « فلما كان في يوم الجمعة، وانا في حلقتي بجامع الخليفة . كثر النفير من المسلمين بما قد تم عليهم من الظلم، واستغاث اهل عكبرا . وقالوا : قد اخذت اموالنا ،وضربنا وهتكت نساؤنا فانزعج الناس لذلك أشد الانزعاج» ١٦ وفي منتصف القرن السادس الهجري نجد ان المقاومة تتخذ طابع العنف حيث ان ثلاثة من الفلاحين دخلوا على عامل الخليفة على منطقة نهر ملك ويدعى الحويزي فاردوه قتيلا .يقول ابو الفرج ابن الجوزي عن الحويزي هذا انه « احمد بن محمد الحويزي كان عاملا « موظفا مالياً » على نهر ملك فكان يؤذي الناس ويعلق الرجال في السواد ويعذبهم ويستخرج الاموال فلا يتلبس بها اظهاراً للزهد... وكان كثير التلاوة للقران كثير التسبيح حتى اني اتفقت في خلوة حمام وهو في خلوة اخرى فقرأ نحوا من جزئين حتى فرغ من شأنه هذا مع الظلم الخارج في الحد ..«ولما دفن حفظ قبره حتى لا تنبشه العوام» ١٧ .ان الامثلة التي اقتصرت عليها الان تشير الى مرحلة دقيقة في النضال

---

(١٦) Bulletin of the School of Oriental and African Studies. Vol., X IX,2, 1957, P.285.

(١٧) المنتظم ج١٠ص١٦١–١٦٢.

الذي خاضته الجماهير الكادحة في عراق القرون الوسطى . اعني بذلك مساندة العامة من اهل المدن للفلاحين اهل الريف. ولما كان العامة من سكان المدينة هم في الحقيقة افراد الطبقة السفلى والتي اغلبها مكون من الصناع واصحاب الحرف البسيطة وصغار الباعة والعطلة فهذا يعني وجود نوع من وحدة نضال طبقي بين العمال سواء اكانوا عمالا صناعيين ام زراعيين. ليس غريبا ان يحدث ذلك طالما ان العدو المشترك للعمال والفلاحين كان الاقطاعيون من القواد العسكريين ورجال القبائل وعمال الضرائب ممثلوا السلطة الارستقراطية المستغلة .واخيرا اود ان اختم بالقول .

١- ان للكادحين من ابناء الريف العراقي تاريخ حافل بالنضال من اجل حياة افضل بعيدة عن كل صور الاستغلال والاستعباد .

٢- ان قوى الاقطاع المسندة من قبل السلطات الادارية كانت قد مارست شتى صنوف الظلم والاضطهاد من اجل الحفاظ على امتيازاتها القائمة على ضرب كل التطلعات المشروعة للكادحين .

٣- لقد استغرق هذا الصراع الطبقي فترات زمنية طويلة وتمخض هذا الصراع عن انقلاب في توازن القوى المتصارعة ورجحان كفة الجماهير الفلاحية فالطبقة الفلاحية الان تخوض المعركة والى جانبها قوى الثورة الاخرى .بينما نجد ان قوى الاقطاع قد تخلت عن الجزء الاعظم من دورها كقوة مضادة لثورة الكادحين .

الا ان هذا لا يعني ان الجماهير الفلاحية قد كسبت المعركة النهائية. فقوانين الاصلاح الزراعي لا يمكنها وحدها ان تزيل التركة الثقيلة المادية والنفسية التي خلقتها العهود الاقطاعية ذات الماضي الطويل. ان كل ما فعلته القوانين الثورية هي انها وضعت الاطار اللازم لعملية التغيير الثوري وبقي على الجماهير الفلاحية -الواعية لطبيعة دورها التاريخي في الصراع الطبقي- ان تملأ هذا الاطار بالمحتوى الانقلابي وذلك عن طريق مساهمتها الفعالة في مرحلة البناء التي يخوضها القطر الان .

مظاهر الرومانسية في شعر محمد درويش

الدكتور سالم الحمداني

ليست الرومانسية مذهبا ادبيا. بقدر ما هي تعبير عن حالة نفسية. ولدتها ثورة الانسان على كل القيود .

ولست ممن يرون أن اي مذهب ادبي ينتهي حين يقوم مذهب ادبي اخر فيبقى هذا ويذهب ذاك. ذلك ان ايأ من هذه المذاهب انما يولد ويتطور بفعل ظروف نفسية واجتماعية وسياسية. لا تنتهي طالما كانت هناك نفوس تشعر وتتحرك . وتمر بنفس الظروف التي تمر بها غيرها من قبل . فانما التعبير عن مذهب ادبي معين يجيء تعبيرا عن الظروف التي يعيش فيها . فيؤثر. ويتأثر. وتكون الحالة الادبية حينئذ طبقا لناموس حضاري وانساني يتكرر مع الايام والسنين .

واذا كانت الرومانسية قد ولدت في فرنسا قبل قرنين من الزمن. فلأن الظروف السياسية . والهزيمة النكراء التي ادت الى سحق النفسية الفرنسية كانت هي العامل الذي حرك نفوس الشعراء والادباء الى التعبير ضمن هذا المذهب الادبي الذي تمرد على كل القيود التي كان المذهب الكلاسيكي يتعلل به، فلم يعد الامل الذي كان يحلم به الشعب الفرنسي الا سرابا بعد هزيمة نابليون العظيم. فكانت احلامه سرابا لا ينتهي الى حقيقته. ومن هنا اصبح تعبير الشعر عن الذات الانسانية بكل ما يعتمل في هذه الذات من ظروف نفسية قاسية. هو أمل الخلاص من التفكير بنكسة الانسان .وفقدان امله العظيم. وصار اصحاب هذا المذهب لا يرون في التأنق بالالفاظ. ولا في اختيار العبارات ، ولا في هذا النظام المتانق في النظم والانسياق وراء التصنع الا مرحلة رجعية في الادب ، لا بد ان يحل محلها مذهب ادبي ، لا تقيده

قيود او تحده حدود . كل ما يميزه ان يكون الشاعر حرا في اصطياد الفاظه، واختيار معانيه. وحرا في التعبير عن النفس الانسانية التي صار الغوص الى اعماقها ابان تلك الظروف لازمة من لوازم الادب والفن .

ومن هنا فان الرومانسية كانت مرحلة ادبية متطورة، جاءت على انقاض الكلاسيكية، ولكن هذا لا يعني ان الرومانسية بقيت وحدها في الميدان، اذ سرعان ما جاءت الرمزية تثور على هذا الافصاح الذي اتسمت به الرومانسية ورأت الرمزية في هذا الغموض الذي يعتبر من اول علاماتها خير مقياس يقاس به الفن والشعر. لان الافصاح في رايها ليس الا عجزا عن التعبير العميق الذي لا يدركه العاجزون .

ولكن هذا لا يعني ان الرومانسية قد انتهت بمجيىء الرمزية. وان الرمزية قد انتهت بمجيىء الواقعية... وهكذا .

في الواقع ان اي مذهب. انما يكمن التعبير عنه في ظل تلك الظروف التي ولدته. ومن هنا فان اية نكسة في اي مكان وفي نفس الظروف التي ولدت فيها الرومانسية. يمكن ان تكون عاملا فاعلا في اشعال الرومانسية. لان الرومانسية كما يقولون (١)(حالة نفسية وتعبير عن تلك الحالة، اكثر من كونها مذهبا ادبيا .)

فهل نستطيع – انطلاقا من هذا الكلام – ان نطبق هذا المفهوم على شعر النكسة الفلسطينية الذى يمثله بحق شعر محمود درويش ؟

لا شك ان النكسة التي اصيب بها شعب فلسطين هي اقسى بكثير من تلك النكسة التي اصابت شعب فرنسا بعد اندحار نابليون، ذلك ان ضياع الامجاد الفرنسية باندحار نابليون لا يمكن ان يقف امام ضياع وطن كامل شرد اهله وبنوه، ولا يمكن ان يقاس الوضع النفسي لشعب فرنسا بهذه المجازر والمذابح، ولا بهتك الاعراض الذي هو هدر لا لشعب فلسطين فحسب، بل فقدان لكرامة الانسان وسحق لكل حقوقه المشروعة. واهانة للحقوق البشرية كلها.

---

(١) محمد مندور، الادب و مذاهبه، ص٥٥، القاهرة ١٩٥٥ .

ومن هنا فان تعبير محمود درويش عن مذهب الرومانسية جاء وفاء لعوامل نفسية قاسية استلهمت الطبيعة في تعبيرها عن الم الانسان ورقة مشاعره الحزينة.

ومظاهر هذا التعبير في شعر محمود درويش كثيرة، خصوصا وان الطبيعة الفلسطينية هي طبيعة رقيقة موحية، تؤثر في الاعماق. وتغوص الى دخائل النفس البشرية، فتحرك فيها نوازع الالم. وتثير فيها ذكريات اججتها ايام الطفولة، واحلام الشباب.

واول مظاهر الرومانسية في شعر محمود درويش لجوؤه الى اعمق اعماق الطبيعة. فقد عرف عن شعراء الرومانسية لجوؤهم الى الغاب. يستوحون في ظله الرهبة. لانه مكان خال يثير في النفس جلالا وهيبة كما يثير ايضا سحرا وجمالا. ولعل ذلك واضح قبل محمود درويش في شعر شعراء الرابطة القلمية او في شعر كل المغتربين وعلى راسهم جبران ونعيمة وابو ماضي.

ولست ارى اكثر من لجوء الانسان الى الطبيعة راحة للنفس. فهي وان كانت تثير مشاعر الرهبة والوحدة. لكنها ايضا خير ملجأ يضع فيه الانسان همومه ويبث اليه احزانه. وحتى يستطيع الانسان ان يهرب من ضجيج المدينة وصخبها وقلقها. لجأ الى هذه الغابة ليرمي كل احزانه وهمومه. ويشكو آلامه وضجره.

ومن هنا كان هرب محمود درويش الى الغابة ولجوؤه الى اعشابها واشجارها. اسمعه يقول: «٢»

اعيدوني الى الغابة
الى الغابة
اعيدوني
وبالاعشاب والسر ليس غطوني
اذا استشهدت في الغابة

---

(٢) محمود درويش، المجموعة الكاملة: ديوان آخر الليل، ص٦٠.

على اسلاكها اقف
فتنحدر السماء ويصعد الوادي

ورومانسية محمود درويش تعبير صادق عن النفس الفلسطينية المعذبة، فهي لم تتخذ الطبيعة نسيانا للهموم. وتعبيرا عن الحزن فحسب، وانما اتخذت هذه الطبيعة لتعبر عن قلق الجيل الفلسطيني الذي غمره وضع نفسي معين جعله يشك في كل شيء . . . انه جيل قلق لا يصدق ولا يثق، فهو كثير الظنون . شديد الريبة، عظيم الشك. اسمعه على لسان محمود درويش يتساءل وقد لجأ الى الغاب. هل يستطيع شجره ان يحميه من اذى المطر، او هل تستطيع الاشجار ان تقيه لفح الشمس ، او يستطيع ضوء القمر الساحر ان يذيب الثلج القاسي . او يطرد عن نفسه المعذبة اشباح الليالي؟ «٣»

يا أبي هل غابة الزيتون تحمينا اذا جاء المطر
وهل الاشجار تغنينا عن النار وهل ضوء القمر
سيذيب الثلج او يحرق اشباح الليالي

وهو يرمز بهذا الى قلق النفس الفلسطينية وظنونها ويأسها.

وهكذا ترى محمود درويش لا يلجأ الى الغاب لينسى نفسه ويبث الم. ولكنه ليعطينا صورة من صور الحقائق الانسانية ، وهي ان النفس البشرية حين يسحقها الالم تبدأ تشك وتضطرب وتتوهم وتقلق وتتساءل. ومحمود درويش مخلص في الرومانيسية اشد الاخلاص. فهو فنان رسام كأي فنان مخلص لفنه، كأي عظيم مخلص لشعبه، لقد اتخذ من الطبيعة صورا انسانية حقيقية لم يأت بها من وحي الخيال، ولم يتصور كما تصور الرومانسيون غابات حالمة، او طبيعة رسموها في خيالاتهم. ولكن الطبيعة في رومانسية محمود درويش طبيعة حية حقيقية . لا من نسج خيال شاعر او قلم كاتب مدرس او ريشة فنان ماهر.

لقد اتخذ محمود درويش من الطبيعة الفلسطينية ريشة واصباغا، لون بها شعره . وليس هذا فحسب. فقد كان اصيلا واقعيا حين اتخذ من مظاهر الطبيعة الفلسطينية ادوات للتعبير. وحين تكون لهذه الادوات علاقة النفس

(٣) محمود درويش. المجموعة الكاملة: ديوان آخر الليل ص٦٠ .

البشرية، تكون اعظم استخداما، واقرب لواقع الامور. لقد التصق شعر محمود درويش بالطبيعة التصاقا لا يقف امامه شعر غيره، لانه عبر عن اخلاصه لشعبه وبلده حين استخدم ما في الطبيعة من قمح وزيتون وعنب وليمون. وحين اشار الى الارض التي التصقت بها نفسه، وشدت اليها نفوس شعبه، ولا تزال تقاتل وتصمد من اجل الارض وما فيها من قمح وزيتون وعنب وليمون وغيرها... اسمعه هنا يتحدث عن الزيتون. ويشير الى ازهار الحب. ويذكر الخبز المملح. ويتغنى باطيار الشوق التي تلجأ الى بيادر القمح. فيقول: «٤»

فلينبت الزيتون وليزرع زهور الحب في قلب الجزائر
وليخمر الخبز المملح بالكرامة والمفاخر
يا طائر الاشواق ضعني قشة عند البيادر

ونقف احيانا امام صور مكتملة يلائم فيها الشاعر بين جزئيات. يحسن ربط كل اجزائها. وهي ليست من صور الخيال فحسب. وان كان للخيال اثر فيها انما المهم في هذه الصور — ونحن نتكلم على ارتباط الشاعر بارضه وشعبه — اخلاصه لهذا الشعب وانتماؤه الشديد لهذه الارض. فجاءت صوره هذه تعبيرا عن صدق المشاعر الوطنية. بل تعبيرا عن صدق الارتباط بالارض وبالفن معا. بالارض لانه وقف شعره عليها وبالفن لانه اجاد واخلص وصدق. فجاءت صورة صادقة معبرة، لم تترك صغيرة ولا كبيرة إلا رسمتها. انظر تعبيره عن القرية والاطلال والجذور والزيتون. وذكره للناطور والمحراث والتراب في قوله: «٥»

القرية الاطلال
والناطور والارض اليباب
وجذوع زيتوناتكم
اعشاش بوم او غراب
من هيأ المحراث هذا العام
من ربى التراب

(٤) محمود درويش، المجموعة الكاملة: ديوان اوراق الزيتون ص١١٠ .
(٥) المصدر السابق .

ثم تراه في نهاية الصورة ييأس ويتحدث عن ضياع الفلسطيني حين يقول:
يا انت ... اين اخوك .. اين ابوك
انهما سراب
الا ترى ان هذه صورة ليست من خيال الشاعر. بل من صدق الواقع الذي يشير الى هجر الناس لارضهم. بل فقدان الاولاد لابائهم وذويهم. ارايت صورة اصدق تعبيراً او اكثر ملائمة من هذه الصورة الحقيقية التي عبر عنها محمود درويش ؟

ولم يترك محمود درويش صورة من صور الطبيعة الا واشار اليها. بل استلهم منها خيالا واسعا لا كغيره من شعراء الرومانسية حين يفرض عليهم هذا المذهب اللجوء الى الطبيعة. تعبيرا عن الذات فحسب. بل لانه يؤمن بقضية شعبه ايمانا عميقا وصادقا. اول علاماته التصاقه بالارض التي رحل عنها هذا الشعب. ولا تزال هذه الارض بما منحته من خيرات ماثلة امام عينيه يتمتع بها العدو ويستغلها استغلالا ظالما جشعا. بينما ينظر اليها اصحابها نظرة شوق ومرارة. ولذلك دفعه التصاقه بارضه وبما حوته من خيرات الى ذكرها والحنين لها. واللجوء اليها.

ولم يكتف بما ذكرنا من حديثه عن الزيتون والخبز. اسمعه هنا يتغنى بالليمون ويحن اليه فيقول : «٦»
كانت لنا خلف السياج
ليمونة ... كانت لنا
حباتها الصفراء تلمع — كالسراج
ويشير الى شجرة التين وزارعها. والى كوخ الطين وعيون الفلاحين في صورة مشابهة فيقول : «٧»
كانت اشجار التين

(٦) محمود درويش، المجموعة الكاملة: ديوان عاشق من فلسطين ص٣٢ .
(٧) المصدر نفسه ص٢٣ .

وابوك ... وكوخ الطين
وعيون الفلاحين
تبكي في تشرين

ومثل ذلك حديثه عن العنب والقمح وغيرهما، مما تزهو به حقول فلسطين والاكثار من الاشارة الى شجر الزيتون له مغزاه في شعر محمود درويش فهو يرمز الى السلم ويذكر باساليب اليهود في القضاء عليه .

ولم يكتف محمود درويش ان يجعل من الطبيعة الساكنة الهادئة مثارا لرومانسيته الحزينة. وانما راح يرتفع الى اجواء السماء ليجعل من الشمس والمطر والغيم اوتارا يدق عليها انغام الحزن والاسى : «٨»

مطر ناعم في خريف بعيد
لا تقولي انا غيمة في المطار
والشمس بيارة في المغيب
وانا برتقال سليب

وشاركته العصافير والطيور والحمائم الحزانه واشجانه . ووقف محمود درويش يجعل من براثنها ونقائها وبساطتها موضوعات لرومانسية الشعر الفلسطيني، فليس اروع من لجوء الحزانى الى الطيور والعصافير .

وليس اسلم من ان يتخذها الانسان انيسا يبثها الشكوى ويسمعها صوت العذاب : «٩»

انا صديقك ياالطيار لا تسلي عني فتالك شفاه المجد تمتدح

واذا شئنا ان نهبط مرة اخرى الى الارض ، فان وقفتنا مع محمود درويش ستكون اروع ما يوحي الى الاسى والالم . اسى الذين تشردوا ورضوا حياة في الخيام .

من اشد ما يلفت النظر في مأساة فلسطين ظاهرة الخيمة . ولك ان تتصور

---

(٨) محمود درويش . المجموعة الكاملة: ديوان كتابة على ضوء بندقية ص٩٩ .
(٩) محمود درويش، المجموعة الكاملة: ديوان عصافير بلا اجنحة ص١٠١ .

حال اناس تركوا الضياع وهجروا البساتين والجنائن ليلجأوا الى حياة الخيمة التي لا تقيهم شر العواصف . ولا تمنع عنهم عاديات الدهر وحالكات الايام.
ولك بعد هذا ان تقف مع محمود درويش ليضعك امام صورة من اروع صور المأساة .
يُضعك هذا الشاعر امام زمان ومكان . اما الزمان فليس له حد عنده لانه ولى ودار بظهره الى الشاعر .
واما الارض فقد صارت في نفسه ذكرى لا تمحها الايام والسنون . لانه ظل في شعره مشدودا اليها والى كل ما فيها «١٠»

كانت لنا ارض ودار
ومضى الزمان بنا ودار
وانهار وانطمس النهار
في جو خيمتنا المغمس بالدموع

فالخيمة في شعر محمود درويش اذن لا توحي الا الى ظلام واسى ودموع والم واذا كانت الخيمة في شعر صاحبنا توحي الى صور الظلام والظلم . فان الشاعر هنا قد استطاع بذكاء ان يرسم معادلة جيدة . فاذا ذلك الظلم واذا حياة الظلام التي يحياها الناس في هذه الخيام تتطلب عدلا وامنا وسلاما . ولكن من اين يطلب هذا السلام . ؟

لعل الشاعر كان اذكى حين لم يطلبها من الانسان . فالانسان ظالم بطبعه ... واذا فليتجه الى الارض واهبة الخير . وليطلبها من الربيع ما نح الحياة .
وليس اروع من ان يلجأ الرومانسي الى مظاهر الطبيعة يبثها همومه وينشدها مطالبه : «١١»

يا انت يازهر الربيع
صديقنا زهر الربيع

---

(١٠) المصدر السابق ص٣٦ .
(١١) المصدر السابق ص٣٦ .

جئناك من ليل الخيام

عساك تحمل من ربيع بلادنا بعض السلام

ولعل اشد مظاهر الرومانسية العربية ظاهرة الحنين . التي ميزت شعراء المهجر، فكانت قصائدهم تنبض بصورة من العواطف المشبوبة تحمل اغلبها روحا من الحزن على ماض ولى وانتهى . وتذكرهم بارضهم واهليهم . وذلك ينجم عنه روح رومانسي عجيب .

وفي قصائد محمود درويش نقف امام ذكريات حلوة تحمل معاني انسانية رقيقة . . . هذه الصور تتجلى فيها الرقة من ناحية ، ومن ناحية اخرى تحمل دلالات نفسية ، وانسانية معينة ، انظر اليها في شعر محمود درويش وهو يتذكر من خلالها اطفالا يحملون الغلال في السلال فيقول: «١٢»

اطفالنا حملوا السلال

عند الضحى ليعبؤوها بالغلال

ولعل رقة هذه الصور تتمثل بهذا الامل الذي يرجوه الشاعر من اطفال فلسطين . بل هي اكثر اثارة في هذه الاسئلة التي ترتسم على وجوههم فيقول:

بوجوههم امل وفي احداقهم يبكي سؤال

ثم يربط بين ربيع العمر وربيع الارض فيقول:

يا انت يا زهر الربيع

صديقنا زهر الربيع

انسيتنا؟ انسيت لون عيوننا؟ !

ثم يعود به الحنين الى ذكريات الطفولة التي يثير في شعره ارق المشاعر الانسانية، لا لانه ينتزعها من الطبيعة الحية ، بل لانها تشير الى صور الطفولة البريئة التي تمثل في شعره اسى ولوعة على ما ضاع وفات:

---

(١٢) محمود درويش، المجموعة الكاملة: ديوان عصافير بلا اجنحة ص٣٤ .

انسيت عمر حنيننا
انسيتنا؟ انسيت لعبتنا القديمة
عند الحواكير الكريمة
تحت العريشة . . . عند جذع التوتة الحيرى اليتيمة

حتى الطبيعة في شعر محمود درويش تتحرك في جو من اجواء المأساة الفلسطينية. ولعلها كانت رائعة في البيت الاخير من القصيدة.

وكل شيء في شعر محمود درويش يرتبط بالارض المنكوبة، ويمتزج بمظاهر الطبيعة ارتباط الروح بالجسد. ان محمود درويش لم يكن شاعرا فلسطينيا يعبر عن نكبة امته العربية، بل هو شاعر انساني امتزجت نفسه، بل ذابت في الارض التي ولد فيها وترعرع في خيراتها.

ومن هنا اثارت معالمها في شعره وفي نفسه رقة واسى، بل اثارت ايضا عمقاً وثورة انظر اليه في هذه الابيات التي تتمثل فيها كل معالم الطبيعة الحية، وكيف استطاع ان يثير مشاعرنا جميعا حين ربط بينها وبين الحرمان الذي يعانيه شعب فلسطين فيقول: (١٣)

حدثوني عن بلادي انها   حلم يغمر افاق حياتي
عن كروم رحبة مثل المدى   وحقول طيبات ناظرات
حدثوني عن عشاش رطبة   بعثرتها الريح في كل الجهات
عن حفيف التوت في ساحتنا   عن عبير في ذرانا الملهمات

وفي بيته الاخير يبلغ قوة ارتباطه بارضه وشدة حنينه اليها.

حدثوني انا قلبي بيدر   فارغ حن لضم السنبلات

ولم تكن معالم الطبيعة الرقيقة لتثير في نفس محمود درويش ذكريات الاسى والانين فحسب، فان هناك ذكريات اخرى اكثر نبلا واشد رقة واعنف تاثيرا في نفس شاعر شاب يهوى الجمال، وتختلط مشاعره بسحر الطبيعة . . . ان ذكريات الحب تشكل هي الاخرى جانبا من جوانب شعر محمود درويش .

---

(١٣) محمود درويش، المجموعة الكاملة: ديوان عصافير بلا اجنحة ص١٩،١٨ .

ولكنها تعبر عن روح رومانسي حزين لانها تذكر بالحرمان والشوق معا: «١٤»

في رذاذ المطر الناعم
كانت شفتاها
وردة تنمو على جلدى
وكانت مقلتاها
افقيا يمتد من أمسي
الى مستقبلي

على ان هذا الروح الحزين الذى هو اول علامة من علامات الرومانسية ،لا يعني انه كل شيئ بالنسبة لهذا المذهب .فقد رايناه يختلط في كثير من الاحيان بروح شديد من التمرد .لا تستلم ولا تهادن.وتتخذ من واقعها الحزين سببا للصمود .انظر الى هذه الظاهرة كيف تنمو في شعر محمود درويش،وكيف تظلل نفسها بظلال من الطبيعة نفسها . فتتخذ من مظاهر هذه الطبيعة أداة تعالج بها فكرها.

يقول محمود درويش .وهو يستلهم من ارضه ومن مظاهر طبيعة بلده فكره الثائر والحزين في صورة رومانسية رائعة: «١٥»

لو يذكر الزيتون غارسه
لصار الزيتون دمعا
إنا سنقلع بالرموش
الشوك والاحزان قلعا
سنظل في الزيتون خضرته
وحول الارض درعا

واوضح من هذه الصورة .صورة اخرى تبدو فيها روح التمرد والصمود من خلال فكر رومانسي .بل لعل هذا الفكر نفسه هو الذى دفع الى هذا الروح

(١٤) محمود درويش، المجموعة الكاملة: ديوان جرح فلسطيني ص١٢٢ .
(١٥) محمود درويش، المجموعة الكاملة: ديوان اوراق الزيتون ص٦٩ .

المتمرد : يقول محمود درويش : « ١٦ »

انني عدت من الموت لأحيا : لأغني

فدعيني استعر صوتي من جرح توهج

وأعينيني على الحقد الذى يزرع في قلبي عوسج

انني مندوب جرح لا يساوم

علمتني ضربة الجلاد ان امشي على جرحي

وامشي ثم امشي واقاوم

ان محمود درويش هنا يستلهم من الظلم ومن الحزن روحا من المقاومة والصمود.

أليست هذه روحا رومانسية ولكنها ليست كتلك الروح المستسلمة التي ألقت نفسها في احضان الطبيعة ؟

ذلك جانب مهم عرف به هذا المذهب وعبر عن مظهر معين من مظاهره. ولم يعرف التيار الرومانسي في شعرنا الحديث صورا اختلطت فيها أحزان الشعراء بصمودهم . كهذا الشعر الفلسطيني الذى عانى من الهزيمة ،كما عانى من مرارة الالم والاسى.

ولعل شعر محمود درويش يمثل وثيقة مهمة من وثائق هذا الجيل ليس هو كل هذا الشعر الفلسطيني المعاصر ،وانما هو رافد واحد من روافده الكثيرة.

ولعل لنا عودة اخرى الى بقية مظاهر هذا الشعروهو ظاهرة تاريخية عجيبة ،لا نرى أن بحثا قصيرا كهذا البحث يستطيع ان يوفيه حقه.

---

(١٦) محمود درويش، المجموعة الكاملة: ديوان آخر الليل ص٦٩ .

دراسة نظرية لمشكلة حظر انتشار السلاح النووي وآثارها في الشرق الأوسط

كاظم هاشم نعمة السوداني

ان السلم «١» الذي نعيشه منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، لا يمكن ان يفسر كظاهرة استطاع فيها المجتمع البشري ان يتخلص من الحرب كلية او احتمال حدوثها، فالتطور الهائل في الاسلحة النووية وانظمتها، خاصة القابلية التدميرية المتبادلة للدولتين الكبيرتين. لم يؤد الى الاعتقاد بان الحرب نفت نفسها بنفسها. ان الحرب كانت ولا تزال وستبقى ملازمة للانظمة الاجتماعية - وان كانت بعض الدول تدعي بنزعتها السلمية - كنموذج لاحدى طرق التعامل بينها في العلاقات الدولية، والقوة بدورها ستكون مصاحبة للحرب على اساس انها الاداة الاساسية التي تلجأ اليها الدول لتحقيق اهدافها وحماية المصلحة الوطنية في حالة فشل الطرق السلمية الاخرى.

والحرب التي لم تعرف البشرية اية تجربة سابقة عنها: الحرب النووية العامة او المحدودة لا يقصد بها تدمير النزعة الهجومية عند العدو وذلك بتحطيم قدرته

---

(١) لا بد من التمييز بين ظاهرة الحرب والسلم والسلام والامن والاعتراف بالعلاقة الوثيقة بين هذه المفاهيم، فالسلم حالة اقرب الى انعدام الحرب (في عصرنا الحاضر يتصد بغياب الحرب النووية العامة). اما السلام فهو هدف عام لم يحقق الان وفيه تنتفي حالة الحرب وحتى احتمال وقوعها. والسلم خطوة اولى نحو السلام وجزء منه، الامن حالة سايكولوجية - سوسيولوجية لربما تصاحب السلم او لا، وقد توجد في حالة الحرب او بدونها. فالشعوب الاوربية لم تكن امنة في السنين التي سبقت اندلاع الحرب الثانية (خاصة الشعب الفرنسي) ومع ذلك لم تكن هناك حالة حرب قائمة في اوربا بل سلم. وفي المرحلة الاخيرة من الحرب شعرت شعوب الحلفاء بالأمن من خطر المانيا لكن السلم لم يكن قائما. والسلم كما عرفته المادة (٥٥) من ميثاق الامم المتحدة «يعتمد على شروط الاستقرارية والرفاهية الضرورتين لقيام علاقات دولية سليمة على اساس الاحترام المتبادل لمبادئ حق تقرير المصير وتساوى الحقوق».

العسكرية على المقاومة واجباره على الخضوع لمطالبينا، بل ان هدف الحرب النووية العامة تهديم الاسس الحضارية والبشرية والاجتماعية والاقتصادية للعدو . ومن طبيعة الحرب التي يجري الحديث عنها هي انها لا تميز بين الاطراف المعنية وغيرها، ولا تتمسك بالقواعد الاخلاقية والعرف الدولي حتى في اعلان الحرب وذلك لانها تستند على المباغتة.

ومن الظواهر الجذرية في العلاقات الدولية خلال السنين الاخيرة حالة التأكيد على القابلية التدميرية النووية لدى الدول الكبرى فوق العادة «الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الامريكية» ونجد هذه الدول تسعى بكل ما اوتيت من معرفة تكنولوجيةوقاعدة علمية واقتصادية من اجل مضاعفة وتحسين قدرتها التدميرية، ولذلك اخذت الاسلحة النووية المختلفة من حيث النوع والمدى والوزن والانظمة تتراكم لديها افقيا وعاموديا، وغدا من الصعب الحد من الخطر الجائم والمهددلكيان البشرية وصعوبة الوصول الى اتفاقات واجراءات دولية تقلل من خطر اندلاع حرب نووية عامة. ان لم يكن ازالة الخطر كليا. وفي ظروف سياسية واستراتيجية كهذه نرى كثيراً من الدول تسعى بكل وسيلة للانظمام الى مجموعة الدول النووية «من الغريب ان نجد الكثيرين يؤكدون على ان أمنهم يصان بزيادة نسبة الخطر... فبأسم الامن تستمر الدول في تجاربها النووية، وباسم الامن يجب ان تصنع الاسلحة الهيدروجينية، وباسم الامن لا بد من تطوير كل سلاح فتاك ومدمر، وباسم الامن يجب ان يتحدى احدنا الاخر.... وهكذا يصبح الموقف اكثر خطورة. »(٢)

ولم تغفل الدول المعنية والامم المتحدة عن الاخطار الناجمة عن هذه الظاهرة في العلاقات الدولية ، لكن الموضوع لم يلق البحث الجدى والتفرغ الكامل على مستوى دولي فعال طيلة الخمسينات. ولهذه الحقيقة مسبباتها. فكما هو معلوم ان احتكار السلاح النووي أنيط بثلاث دول تقدمت الولايات المتحدة

(٢) Foreign Affairs Review, India Ministry of External Affairs, September 1967, No. 9 Vol. XIII, PP. 131-132.

والإتحاد السوفياتي ليتوليا – بفضل هذه القابلية – مسؤولية كبيرة يتعلق عليها مصيرهما والعالم معا. لذا انحصرت خطورة التطور الجديد في نظام الاسلحة التدميرية في مناهج سلوكهما واصبح مصير الانسانية وديعة لديهما، ولكن بانتماء فرنسا الى المجموعة النووية عام ١٩٦٠ – ثم تبعتها الصين عام ١٩٦٤ – أخذت المشكلة ابعادا جديدة ومعقدة، بحيث لم تتردد الدول النووية نفسها في مراجعة المواقف السياسية والستراتيجية التي رسمتها لنفسها سابقاً وبالاخص موضوع انتشار السلاح النووي.

والعامل الآخر الذي يمكن الاشارة اليه هو ان فترة الخمسينات عاشت مرحلة حادة وتصاعدية في الحرب الباردة بين المعسكرين وشملت العالم الثالث في اثرها. فالحرب الكورية وتوتر العلاقات بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة دفعت بهما الى ضرورة التمسك بالسيطرة النووية وتأكيدها بواسطة رفع مستوى التسلح. ثم تلتها ازمة حرب السويس وثورة ١٩٥٨ وانبثاق مشروع ايزنهاور الرامي الى توطيد سيطرت الغرب على منطقة الشرق الاوسط وتقوية الخطوط الخلفية لحلف الاطلسي. اضف الى ذلك المواجهة المباشرة بين الدولتين الكبيرتين في حملة اعلامية عنيفة بعد حادث طائرة التجسس الامريكية، ثم ذروة الحرب الباردة في الحملة الامريكية الفاشلة على كوبا، ان هذا كله دفع بمشكلة تسرب السلاح النووي الى مؤخرة قائمة الاعمال. ولكن ظهرت بوادر جدية في اوائل الستينات شجعت على التفاؤل وحثت الدول على الانتباه الى ان الوقت قد حان للحد من انتشار الاسلحة النووية وضرورة تقليص القابلية التدميرية النووية.

وجاءت اتفاقية موسكو لحظر التجارب النووية في الجو والفضاء وعلى سطح الارض وفي البحار. حاثا ومنبها لضرورة اخذ المبادرة. ومنطلقا جديدا في الجهود المبذولة من قبل الدول الكبرى وعدم الإنحياز في الامم المتحدة او خارجها من اجل تحقيق نزع سلاح عام وشامل نووي او تقليدي. ويجب ان لا تجمد هذه المحاولات حسب ما يقول البعض وذلك لصعوبة

ـ ان لم يكن استحالة ـ التوصل الى الهدف المنشود، فالسعي بشتى الطرق للوصول الى الغاية السامية سيؤدي بدون شك الى عقد اتفاقيات اولية حول مواضيع معينة تعتبر كسبا حقيقيا في طريق نزع السلاح العام.

لقد مرت مشكلة حظر انتشار السلاح النووي في مراحل متعددة لا تهمنا جوانبها التاريخية بقدر الابعاد النظرية لتلك الازمة في مرحلة او غيرها. فالمناقشات التي تدور في اروقة الامم المتحدة حول مشكلة نزع السلاح لم تترك حظر انتشار السلاح النووي بدون تعليق او نداء للدول الاعضاء للتعجيل في تدارس الامور، واحيانا تقدمت بعض الدول بمسودات قرارات «٣» ولكن بدون جدوى. وبالاضافة الى ذلك فقد جرى سيل من الرسائل المتبادلة في الموضوع بين موسكو وواشنطن حتى ان دول عدم الانحياز قررت ان تساهم بكل قواها من اجل جلب الطرفين الكبيرين الى غرفة المناقشات، فاخذت على نفسها مهمة التوسط والتوفيق بين مواقف الدولتين لتسهيل الوصول الى اتفاقية حظر انتشار السلاح النووي «٤». وقام السكرتير العام نفسه في حث الدول النووية وجلب انتباهها الى ضرورة تحقيق استقرار في العلاقات الدولية وتثبيت اسس السلم الدولي «٥».

(٣) عقد مؤتمر عدم الانحياز في القاهرة ما بين ٥ الى ١٠ تشرين الاول ١٩٦٤ وخصص المؤتمر الفصل السابع من قراراته لنزع السلاح ومعاهدة موسكو ومشكلة حظر انتشار السلاح النووي.

(٤) تقدمت ايرلنده في الدورة العامة للامم المتحدة في ١٩٦١ بمشروع قرار يعتبر البذرة الاولى في محاولات عقد اتفاقية حظر انتشار السلاح النووي ونصت المسودة على « ان الزيادة في عدد الدول المالكة للسلاح النووي في تصاعد مستمر لدرجة تهدد السلم وتنشط حدة التسلح وتعقد مشكلة تجنب الحرب »

Resolution of the General Assembly A/R E.S./1665 (XVI), 1961.

(٥) ورد في تصريح للسكرتير العام بخصوص الموضوع « واما ما يتعلق بالسلم العالمي فانه من المحتمل ان زيادة عدد الدول النووية وتطوير الترسانة النووية سيؤديان فعلا الى توتر العلاقات الدولية وعدم استقرار في العالم ».

Resolution of the General Assembly A/R E.S./6858.

وفي السنين الاولى من الستينات ظلت اثارة الموضوع وبحثه مقتصرتين على الاشارة في التصريحات والتنويه في المؤتمرات الخاصة بنزع السلاح. وبعد تشكيل لجنة «١٨» دولة لبحث ودراسة وتقديم اقتراحات حول نزع السلاح «٦» تقدمت حكومتا الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي بمسودة قرار عرضت على اللجنة للنظر بصورة مستقلة وفعلية في موضوع حظر انتشار السلاح النووي«٧».

لا شك ان هناك من يعارض فصل مشكلة حظر تسرب السلاح النووي عن قضية نزع السلاح ، ولكن موقفا كهذا ناتج بسبب الخلط بين ظاهرة تكاثر السلاح النووي وظاهرة انتشاره. فعلاقة هاتين الظاهرتين بنزع السلاح العام والشامل مختلفة من حيث درجة الاقتران، فتكاثر السلاح النووي والتقليدي لدى الدول النووية يجب ان ينظر اليه من جهة خاصة اقرب الى موضوع نزع السلاح العام والشامل، اما ظاهرة انتشار السلاح النووي وتسربه فتشكل خطوة تقود الى نزع سلاح محدود. وكما نعلم ان الانتشار لا يزيد من قوة الدول النووية بينما التكاثر بطبيعته يضاعف القابلية النووية، ولذلك فاننا نعتبر مسالة حظر انتشار السلاح النووي خطوة تقود بالعالم الى مرحلة اقرب من الهدف العام. وقد تبدو هناك فجوة منطقية فان تكاثره سيستمر وربما على مستويات اعلى وانشط. لذلك فحظر انتشار السلاح النووي «محاولة فاشلة تاريخيا ومنطقيا» «٨». فالتجربة العالمية التي تبنتها الولايات المتحدة سنة ١٩٤٦ فشلت في حظر انتشار السلاح النووي الى السوفيت حيث رفضت الحكومة السوفيتية الفكرة والمشروع معا على اساس ان الغاية لم تكن منع تكاثر السلاح

---

(٦) تبعا لقرار الامم المتحدة تالفت اللجنة من البرازيل وبلغاريا وبرما وكندا وجيكوسلوفاكيا واثيوبيا والهند وايطاليا والمكسيك ونايجريا وبولندا ورومانيا والسويد والاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا والعربية المتحدة .

(٧) Disarmament Commission, 72 meeting, 26 April, 1965.

(٨) Ashri Asmi Husain, Foreing Affairs Record, Ministry of External Affairs, India, February 1968, No. 2, Vol.XIV.

وازالة احتكاره من قبل الولايات المتحدة. بل منعه على دولة اخرى دون مقابل من الدولة المحتكرة. وقد تمسكت الحكومتان الهندية والفرنسية بموقف فحواه ان حظر انتشار السلاح يجب ان يربط بموضوع نزع السلاح العام. ولكن اغلبية الدول المساهمة في مباحثات اللجنة اعتنقت موقفا اخر اكثر واقعية من السابق واكثر تلاؤما مع طبيعة السياسة الدولية في الوقت الراهن.

ان نظرتنا الى العلاقات الدولية في عصرنا يجب ان تكون واقعية ومعترفة بطبيعة الاشياء التي تعيشها الدول. خاصة الدول النووية. فالعالم لا تحكمه دولة واحدة ولا هناك منظمة دولية لها سلطة على الدول الاعضاء كما للدولة سلطة على مواطنيها. ولذلك فانما نطلبة من الدول ان تتمسك باهداف تنسجم مع ما هو ممكن تحقيقه في عالم يصعب ان لم يكن مستحيلا عليه تحقيق «ما يجب ان يكون». ولما كانت دعوة ايجاد عالم منزوع من السلاح اقرب الى ما هو «يجب ان يكون» . فمن الضروري التركيز والاهتمام بما يمكن تحقيقه في عالم ما هو «ممكن ان يكون» . والتوصل الى اتفاقية حظر انتشار السلاح النووي من الاشياء التي طبيعتها «ممكن ان تكون» .

الدوافع المشجعة على انتشار السلاح النووي

من اجل تسهيل وتشخيص الحوافز التي تدفع الدول غير النووية ان تنتقل الى دول ذات قوة نووية علينا البحث في السبل التي يمكن ان ينتشر بواسطتها السلاح النووي بين الدول. فهناك سبل مباشرة للحصول على سلاح نووي تكتسبه الدول ذاتيا كما فعلت الدول النووية الخمسة. معتمدة على قوتها الاقتصادية وعلى قاعدتها التكنولوجية. بدون اشراك طرف آخر وذلك لكي لا تعرض نفسها الى قيود تعاقدية تشل من بعض سيادتها التامة ومن صلاحيتها المطلقة في استخدام تلك الاسلحة وفقا لطبيعة اتخاذ القرار في نظامها الداخلي. ومما لا شك فيه ان انتقال المعلومات الاساسية في الصناعات النووية له اثر كبير في تحديد طبيعة السلاح النووي من حيث قدرته التدميرية وكفاءته الحربية . وتشير التقارير ان المعلومات لا تنتقل بسهولة بين الدول النووية. ولكن هذا لا يعني ان ليست هناك سبل اخرى

للحصول عليها سراً. ويعتقد حسب تخمينات لجنة الطاقة النووية الامريكية بأن في العالم حوالي ثلاث عشرة دولة يمكنها ان تنتقل الى قوى نووية بدرجات متفاوتة من حيث الاسبقية.

والوسيلة الاخرى التي هي اكثر تعقيدا تأخذ طابع الانتقال غير المباشر، فقد تقدم احدى الدول النووية لدولة اخرى اسلحة نووية سواء عن طريق التجارة الاعتيادية او حسب اتفاقية دفاعية معينة اما بشروط تفرضها الدولة الممونة كتقييد حرية استخدام السلاح النووي او بدون قيود. وليست هناك سابقة في العلاقات الدولية منذ ١٩٤٥ منحت فيها دولة نووية سلاحا نوويا الى دولة غير نووية. ولكن هناك حقيقة مساهمة مجموعة من الدول في حلف تسنده قوة نووية ليست بالجماعية بل يحتفظ احدالاطراف، وهو عادة الدولة الرئيسة في الحلف. بصلاحية تقريراستخدام ذلك السلاح.

ومن الجدير بالذكر ان الانتقال من قوة عسكرية تقليدية الى قوة عسكرية نووية لا يشكل بحد ذاته خطرا جسيما على العلاقات النووية بين الدول الكبرى وذلك عند مقارنته بحقيقة اخرى يجب ان نميزها نظريا وتطبيقيا. فالامر لا يتعلق بالقدرة النووية. كما يبدو من أول وهلة. بل بالقابلية على خوض حرب نووية محدودة أو عامة. وهذا ما يساعدنا على تفسير امتناع بعض الدول غير النووية على عبور الحدود الفاصلة بين كونها قوة عسكرية تقليدية وقوة عسكرية نووية رغم قابليتها على القيام بالانتقال، لان القضية ليست الحصول على هوية الانتماء الى نادى الدول النووية بل التعامل مع تلك الدول حسب الشروط التي تمليها العضوية. والتقرير في الانتقال من دولة غيرنووية الى قوة نووية هي حالة توازن بين الدوافع المشجعة على ذلك وبين التي تجمد النزعة نحو الانتقال. ومن الصعب اناطة الاولوية الى نوع معين من العوامل حيث هناك اهمية خاصة لكل حافز ولكل قيد. ولكن قد تنفرد العوامل الاقتصادية بمكانة متميزة وذلك لان عليها تقوم القوة النووية ومنها تستمد استمرار تطورها.

ان طبيعة السياسة الدولية التي ترتكز على سياسة القوة تدفع بالدول الى السعي لكي تصبح دولا نووية ، ذلك لما تحققه القابلية العسكرية من كسب في مجال العلاقات ، وما تربع كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي على عرش القوة في العالم سوى نتيجة حتمية لقوتهما العسكرية والاقتصادية وسبب في احتلال مكانة خاصة في المجتمع الدولي. فالقرارات الهامة التي تؤخذ في المؤتمرات الدولية تشير الى مدى تأثير الدول النووية على طبيعة القرارات ، فمساهمة الدولة كقوة يؤخذ وزنها في عملية التعادل يعطيها حرية الحركة والمناورة ، وبالتالي يجعلها مسؤولة عن الامن والسلام العالمي « ٩ » . والقوة النووية تعطي للدولة دورا خاصا في محادثات نزع السلاح في جميع اشكالها. لانها ستساهم كدولة يطلب منها ان تتنازل عن بعض قوتها، ولا يمكن ان تفعل ذلك الا بعد الحصول على امتيازات مقابل تلك التضحية، فهي بذلك عكس الدولة غير النووية التي يطلب منها الامتناع عن شيء لم تحصله بعد. وبالاضافة لذلك فالدول النووية تعتمد في الدفاع عن مصلحتها الوطنية وعن أمنها بما لديها من سلاح دون اللجوء الى وعود تقدمها القوى النووية، كما هو الحال بالنسبة للدول غير النووية التي ارتبط أمنها بمواقف الدول النووية الكبرى ويطلب منها التمسك بالالتزامات دون ضمان سوى ما تتعهد به الدول النووية نفسها. والتصلب في مواقف الدول النووية للاحتفاظ بقابليتها التدميرية النووية ومعارضتها للمشاريع المختلفة حول نزع السلاح يؤكد للكثيرين بان « الدول التي تجد نفسها في وضعية الانتقال من منزلة الى اخرى خاصة بفضل اكتسابها للاسلحة النووية لا تسمح لنفسها بان تتشارك فيها مع غيرها » « ١٠ »:

---

(٩) عند صياغة ميثاق الامم المتحدة تمسكت الدول الكبرى (خاصة الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة) بضرورة وضع مسؤولية الحفاظ على الامن والسلم في العالم في مجلس الامن لان للدول الكبرى فيه حق الفيتو مما يميزها عن غيرها لكونها قادرة على رفض اي مشروع لا يوافق مواقفها .

(١٠) خطاب لوزير خارجية فرنسا في الجمعية العامة للامم المتحدة في ٢٩ تشرين الاول سنة ١٩٦٥ .

علينا اولا ان نتأمل العوامل الستراتيجية قبل غيرها لكونها اساسية في حث الدول على اكتساب سلاح نووى. ففقدان الامن عند دولة بسبب تضخم القوة للدولة المجاورة والمنافسة لها يدفع بالاولى لاتباع سياسة ستراتيجية كفيلة بتحقيق امنها وسلامتها ضد تحركات الدول الطامعة بها او مجموعة من الدول المتحالفة ضدها. ولكننا يجب ان لا نستنتج من هذه الحقيقة كون انتشار السلاح النووى الى دولة يدفع بالدول الاخرى المنافسة لها ان تكتسبه هي الاخرى لتوازن قواها مع عدوتها ، فهناك تجربة تاريخية عملت عكس ذلك حيث ان انتقال الصين الشعبية الى دولة نووية لم يؤد بأن تصبح الهند هي الاخرى دولة نووية ، بل اقتنعت الحكومة الهندية بأن من مصلحتها ان لا تواكب الصين في تسابق للتسلح النووى وذلك رغم توافر المؤهلات الهندية لجعلها دولة نووية. ويرجع ذلك الى اعتقاد الحكومة الهندية «بان الجواب الوحيد والاخير لمشكلة الحد من تكاثر الاسلحة النووية يكمن في خلق ظروف تناسب الامن ولا تعطي حافز للدول لصنع اسلحة نووية» «١١»

وقد نادى بعض المفكرين الستراتيجيين باهمية فتح الباب امام انتشار السلاح النووى الى اسيا خاصة بعد ان اكتسبته الصين الشعبية وذلك استنادا الى افتراضات . منها ان هجرة السلاح النووى الى تلك القارة يخدم المصالح الامريكية حيث ستتواجد ضغوط نووية مواجهة للقوة الصينية النووية وبالتالي ترغم الصين على التنازل عن السلاح النووى مقابل ضمانات تعهدية من جانب الطرفين ، ومن جهة اخرى قد تمتنع الصين الشعبية في التخلي عن اسلحتها النووية ، وعندها فان كون الهند او اليابان دولة نووية يعني ان الضغط والمسؤولية الانفرادية الملقاة على الولايات المتحدة لمواجهة الصين الشعبية ستنتقل الى احدى الدول الاسيوية. وهكذا يخف العبء النووى الذى تتحمله الولايات المتحدة الامريكية «١٢»

---

(١١) Ibd. P. 10.

(١٢) W. C. Foster, Arms Control and Disarmament ; Risks of Nuclear Proliferation, Foreign Affairs, July 1965, Vol. 4, P. 589.

وهناك مجموعة اخرى من المفكرين الستراتيجيين المتفائلين في مستقبل تطور العلاقات الدولية على ضوء تقدم السلاح النووي آمنت بأن حفظ السلم العالمي هو نتيجة مباشرة لطبيعة التعادل المتبادل في القابلية التدميرية النووية الرادعة بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الامريكية. ولما كانت هناك مناطق نزاع واختلافات ذات طابع تاريخي وايديولوجي وقومي في ارجاء العالم فانه من الافضل أن تسهل عملية انتقال السلاح النووي وتشجع لاخضاع تلك المناطق المضطربة الى حالة تعادل نووي متبادل على مستوى واطئ ولكنه كفيل باعطاء حالة السلم. ولا يقتصر نفع انتشار السلاح النووي على الدول الصغرى فقط بل يشمل بدوره الدول النووية الكبرى حيث ستتقلص مسؤولياتها الخارجية وتنخفض التزاماتها المتناثرة ويتقلص عدد الدول الداخلة تحت غطاء مظلتها النووية، وبالتالي تنقص نسبة احتمال المواجهة النووية بين الدول النووية الكبرى وتصبح الحرب في حالة حدوثها محدودة.

والفجوة المنطقية في هذه النظرية الستراتيجية ظاهرة للباحث بعد تعمق بسيط في طبيعة الافتراضات التي تقف عليها. فمن جهة انها صعبة التحقيق ان لم يكن استحالة تطبيقها، فالنظرية تطالب بان تسهل الدول النووية الكبرى انتقال الاسلحة النووية الى الدول المتنازعة بشكل منسق ومنسجم من حيث الكمية والنوعية والمدة الزمنية في الاكتساب، والا فان تجميد الصراع الاقليمي سوف لن يتحقق. ولكننا نشكك في ذلك ونؤكد بان التفاوت الزمني والنوعي والكمي في الاسلحة النووية المتنقلة يشكل خطرا هائلا ويزيد من نسبة احتمال حدوث حرب نووية. وذلك حسب اعتبارات ستراتيجية مختلفة يمكن ان نتفحص بعضها. فقد تشن الدولة التي حصلت على السلاح النووي مقدما هجوما مباغتا على الطرف الذي ظل قوة غير نووية او في طريقه الى النووية لان الطرف الاول يدرك قيمة حصوله على السلاح النووي من الناحية الستراتيجية. ويعرف اهمية الفجوة الزمنية بينه وبين العدو في اكتساب السلاح النووي لانه من الطبيعي ان يسعى الطرف الثاني بكل قواه وقابليته للحصول على السلاح

الجديد باقصر فترة من الزمن لتغطية الفجوة . ومن جهة اخرى هناك احتمال قائم منطقيا وهو ان الهجوم قد يبدأ من جانب الطرف الذي ظل قوة غير نووية ضد الدولة النووية العدوة بسبب ضغوط ستراتيجية الحرب الوقائية للتخلص من تفوق العدو نوويا ومنعه من الاستمتاع بمزاياه بشكل يهدد مصالح الدولة غير النووية .

وهناك احتمال اخر مصدره طبيعة تفكير الدولة التي اكتسبت السلاح النووي الجديد حول علاقتها الستراتيجية مع عدوتها التي ظلت قوة تقليدية من حيث انها تتبع خطة « انني افكر بالذي انت تفكر بالذي افكر فيه.... » وتشن هجوما نوويا معتقدة ان الطرف التقليدي قد يفكر بانها تنوى شن هجوم نووي عليه، ولاجل ازالة هذه المباغتة يقوم الطرف غير النووي بهجوم وقائي، وعلى ضوء هذه السلسلة من الافكار المتواصلة يقوم الطرف النووي بهجوم « لربما لم يفكر الطرف التقليدي في شن هجوم » على تقديرات توقعية .

اننا لا نستطيع ان نجعل ما هو قائم من علاقات بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة، والتي عرفت بانها متعادلة تبادليا من حيث تقدير ثقل المسؤولية الملقاة على الدولتين لابعاد البشرية من خطر حرب نووية عارمة تهدم الحضارة البشرية وذلك بالتمسك بسياسة عقلانية . نموذجاً عام يمكن تطبيقه على جميع الدول المتنازعة. فقد يزج بالعالم الى حرب نووية عامة بسبب اخطاء مقصودة او غير مقصودة من جانب طرف اخر غير الدولتين الكبيرتين فوق العادة « ان حصول دول اخرى على سلاح نووي يعرض العالم الى اخطار لا يمكننا ان نتصورها. فانتقال السلاح النووي الى دولة اخرى يخلق مركزا جديدا لصنع القرار في هذا المجال، ومهما كانت حالة التمسك بالمسؤولية فستتعقد العلاقات الدولية ويرتفع خطر استعمال السلاح النووي من جانب جماعة غير مسؤولة» «١٣» .

(١٣) Dean Rusk, Daily Radio Bulliten, No. 46, February 1966, P. 1.

وقد أشار المندوب السوفياتي الى الدول الراغبة بانتقال السلاح النووي ان « هناك طريقين متباينين .... اما السير في طريق حظر انتشار السلاح النووي او ان تندفع بكل همة لتشجيع انتشار السلاح النووي بجميع اشكاله .... ومن يريد النهج الاخير عليه ان يتأمل قليلا ويتروى ويفكر ثم يدرك بأن النتائج التي ستلحق بهم وبالعالم لا يمكن تقديرها » «١٤». واكد السكرتير العام للامم المتحدة على اخطار ظاهرة انتشار السلاح النووي ووصف المناصرين لها « بانهم يتكلمون بدون تفكير » «١٥».

لقد حذر الرئيس كندي عند التصديق على اتفاقية حظر التجارب النووية في ٢٦ ايلول عام ١٩٦٣ بقوله « خلال السنين المقبلة ستمتلك مجموعة من الدول قابلية فكرية وعلمية ومالية لصنع اسلحة نووية وحتى وسائل قذفها ». ولكن منذ تلك الفترة وحتى الوقت الراهن لم ينخرط في نادي الدول النووية الا عضو واحد وهو الصين الشعبية . فلماذا؟ هل هناك نزعة مخلصة عند الدول لتجنب اكتساب السلاح النووي، ام هل انها تشعر بالامن والاستقرار بدون حصولها على السلاح النووي؟ ان الجواب يكمن في ادراك حقيقة سبق وان اشرت اليها في حديثي اعلاه. وهي ان العبرة ليس في الانتقال من دولة تقليدية الى دولة ذات قوة نووية، بل بالقابلية النووية القتالية وقدرتها على النمو والتطور لتواكب التقدم عند بقية الدول في هذا المضمار . والغاية الاولى ، وهي الانتقال ذاته ، لا تكلف كثيرا ولا تتطلب ارهاقا اقتصاديا وضغوطا على الطاقة للاقتصاد القومي عند مقارنتها بما تخصصه بعض الدول للتسليح كل عام « ولحسن حظنا والعالم برمته ان الرادع الذي يمنع الدول من ان تكون نووية الا وهو العامل الاقتصادي لا يزال فعالا.... فكل ما تحتاجه الدولة لانتاج رأس نووي هي كمية معينة من مادة بلوتونيم مع يورانيوم بالاضافة الى مفاعل نووي . وهذه الاشياء من السهول الحصول عليها حيث انها تباع علنا. فالمفاعل

(١٤) Eighteenth Nations Disarmament Conference, Meeting No. 137, P. 3.

(١٥) Uthant, New York Times, 20 July 1964.

النووي المطلوب شبيه بالمفاعل النووي الذي تبيعه بريطانيا بمبلغ خمسة ملايين باوند استرليني ، وباستطاعة الدولة ان تصون سرية نشاطها وتشرع بانتاج رأس او اكثر في السنة مقابل كلفة اجمالية تقدر بخمسة عشر الف باونداً استرلينيا ... ولكن كلما انتقلنا من صنع القنابل النووية الصغيرة الى قنابل نووية كبيرة كلما يبدأ العامل الاقتصادي يلعب دوره الاساسي، فمثلا ان استحصال يورانيوم ٢٣٥ لا يمكن تحقيقه دون تواجد قاعدة اقتصادية وصناعية ضخمة » «١٦» .

الخلاف السوفياتي ـ الامريكي ومواقف دول عدم الانحياز

بعد ان وقعت الدول الكبرى ـ ما عدا فرنسا والصين الشعبية ـ اتفاق حظر التجارب النووية، دبت في العلاقات الدولية موجة تفاؤلية بانه من الممكن الاستمرار في تحقيق انتصارات اخرى في طريق نزع السلاح ، «لأن الاتفاقية ليست بغاية لذاتها بل وسيلة لهدف عام وهو الوصول الى اتفاقية نزع سلاح عام وشامل » . «١٧» ولكن العالم واجه ازمات عديدة وظهرت على السطح اختلافات جذرية بين السوفيت والامريكيين يرجع مصدرها الى انعدام الثقة وفقدان الامن عند الطرفين . واصبح جليا بان العقبة الاولى بوجه اي تقدم نحو حظر انتشار الاسلحة النووية تكمن في انعدام حسن النية. وكما يبدو للامريكيين ان عرقلة الاتفاق ترجع الى رفض السوفيت للمسودة الامريكية. « فاذا كان السوفيت يريدون فعلا حظر انتشار الاسلحة النووية وليس الحصول على اهداف سياسية تحت شعارات وهمية فلا اجد عائقا نحو تحقيق تلك الاتفاقية. ولكننا لا نرضى ان نضع انفسنا في موقف نتخلى فيه عن حلف شمال الاطلسي ومصالحه » «١٨» . وهذا التأكيد على اهمية حلف الاطلسي يعني ان الولايات المتحدة لا تملك الشجاعة للايمان بما يقترحه

---

(١٦) Economist, 15 January 1966. PP. 213-214.

(١٧) External Affairs, July 1966. P. 284.

(١٨) Dean Rusk, Daily Radio Bulliten, No. 46,24 February 1966.

الاتحاد السوفياتي من التزامات. وكذلك القول بالنسبة للاتحاد السوفياتي فانه بدوره لا يطمئن لنوايا الولايات المتحدة وحلفائها : «وان الماركسيين اللينينيين يعتقدون بان رفض اي دولة اشتراكية جمع قواها العسكرية مع شقيقاتها بشكل تفرضه وحدة المصير يعتبر انعزالا عن الاسس الماركسية والبروليتارية» ولانعدام الثقة في الولايات المتحدة وحلفائها كان من الضروري على الدول الاشتراكية ان تحافظ على قوتها العسكرية وتنسقها جماعيا للحصول على اعلى درجة من القابلية الدفاعية : لذلك فمن «اجل الحصول على غطاء عسكري هناك ضرورة التمسك بالحلف العسكري لاتفاقية وارشو» «١٩».

ومما زاد في تعقيد المباحثات والعلاقات بين المعسكرين هو طرح المشروع الغربي المتعلق بدول حلف شمال الاطلسي والذي كان مقررا فيه تحويل قوات الحلف العسكرية الى قوة نووية وتقليدية موحدة . وقد احتضن المشروع فكرة فتح المجال امام الدول الغربية الاخرى وخاصة المانيا الغربية للانتقال من قوة تقليدية الى دولة نووية لها حصة في السيطرة على الاسلحة النووية التابعة للحلف بصورة غير مباشرة «وليس من السهل نكران حقيقة كون القوات النووية التابعة لحلف الشمال الاطلسي هي العقبة الاساسية في طريق حظر انتشار الاسلحة النووية ، وكما يقول السوفييت انها ليست حجرة عثرة فحسب بل السبب الاولي في جعل الاتفاق مستحيلا .... انه سر مكشوف بان مسودة المشروع الامريكي فيها فجوة متعددة لاجل فتح الباب امام المانيا الغربية... . ولطالما عارض السوفييت هذه الفكرة لان المانيا بدون شك ستضع اصبعها على الزناد النووي وهذا ما سيحدث فعلا» «٢٠».

ولقد حاولت الحكومة البريطانية التأكيد لسوفيت بان مشروع توحيد القوات الاوربية لحلف شمال الاطلسي غرضه عدم فسح المجال لاية دولة اوربية كالمانيا الغربية للحصول على سلاح نووي قومي ، بل انه « ضمان

(١٩) Red Star, 17 February 1966.

(٢٠) Congressional Record, Vol. 112, No. 6, 18 January 1966

وتأكيد ضد انتشار وتكاثر السلاح النووي وضد انتقال القوة النووية الضاربة من دول نووية، وضد اكتساب دولة تقليدية لسلاح نووي باي شكل واية حالة مباشرة او غير مباشرة ،، «٢١» وذلك لان صلاحية استخدام السلاح النووي المربوط بالحلف ستكون خاضعة لحق الفيتو الامريكي من جانب رئيس الجمهورية الامريكية. ثم ان من اهداف المشروع الموحد اعطاء المانيا الغربية صيانة نووية اكيدة دون منحها اجازة الحصول على سلاح نووي قومي. ولكن هذه التبريرات لا يمكن الاقتناع بها وانتبه بعض المراقبين الستراتيجيين لخطورة المشروع وفسرت المشاركة في قوات اطلسية نووية « كمرحلة تثبيت السبل وتسهيلها لادخال المانيا الغربية الى المجال النووي . «٢٢» وحتى ان هذه المرحلة لم تكن كافية لاشباع طموح المانيا الغربية، ولا يمكن ان يكون المشروع برمته قادرا على منع انتشار السلاح النووي ». لأن قوات حلف شمال الاطلسي .... لاتوقف انتشار السلاح النووي .... وقد لا تشبع رغبات المانيا الغربية باعطائها نصيبا محدودا في الامور النووية للحلف» «٢٣».

وبسبب تمسك الولايات المتحدة الامريكية بمشروع وحدة الجيوش الغربية تعرقلت مباحثات نزع السلاح في جنيف واصابها ركود ملحوظ طيلة عام ١٩٦٤ . وبفضل مسودتين تقدمتا بهما حكومتا الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي في نهاية العام نفسه بدء الامل يدب من جديد عند المساهمين في المباحثات . وعندما نوقشت المسودتان اتضح بصورة جلية لكثير من المراقبين ما كان متوقعا فقد احتوت المسودتان على فجوات في انظمة الضمانات والالتزامات المقترحة، وجاء التركيز في المسودة الامريكية منصبا على حظر انتشار السلاح النووي بصورة مباشرة. بينما اهملت نواحي انتشاره عن طرق غير مباشرة .ومن أجل انقاذ المباحثات التي اخذت تتعثر .ابرق كل من جونسن وكوسيجن برسالتين الى الدول المجتمعة اكدا فيهما بان الدولتين على استعداد

(٢١) تصريح رئيس وزراء الحكومة البريطانية في مجلس العموم البريطاني في ١٦ كانون الأول سنة ١٩٦٤ .

(٢٢) Henry Kissinger, Report, March 1963.

(٢٣) Henry Kissinger, Wehrkundo, May 1963.

لاعطاء ضمانات نووية الى الدول التي توقع على الاتفاقية المقترحة في حالة تعرضها الى خطر نووي. ولكن المسودة الامريكية لم تتطرق الى مجال الالتزام بعدم السماح لدولة او مجموعة من الدول غير النووية في حق امتلاك اسلحة نووية وكذلك مشكلة حظر حق استعمال الاسلحة النووية. حتى ان مسودة المشروع الامريكية تعمدت اغفال الاشارة الى حظر الدول النووية من حرية فتح المجال امام دول غير نووية سواء مساهمة او غير مساهمة في حلف عسكري لاكتساب اسلحة نووية. وكانت العقدة في المباحثات تكمن في مخاوف السوفيت من النوايا الباطنية للمشروع الامريكي الذي يفسح المجال لان تكتسب المانيا الغربية سلاحا نوويا، وبذلك ينسجم واطماع بون الانتقامية التي شجعت فكرة الجيوش الاوربية الموحدة، تحت قيادة حلف شمال الاطلسي، لان من شروطها اعطاء المانيا «الحد الادنى بجعل استخدام السلاح النووي مسؤولية جماعية لكل الحلف» «٢٤».

وبعد توتر جو المباحثات حول قضية توحيد الجيش الاوربي الغربي، تدخلت دول المعسكر الثالث بمساعيها، التي نسقتها داخل الجمعية العامة وفي لجنة «١٨» دولة، وذلك بتبنيها فكرة ان اي مشروع لحظر انتشار السلاح النووي لابد وان يشتمل على توازن متعادل ومتبادل بين المسؤولية عند الدول النووية وغير النووية، وان يكون المشروع خطوة نحو اتفاقية نزع سلاح عام وشامل واخيراً ان لاتكون في المشروع فجوة تجعله مشلولا «٢٥». وتقدمت العربية المتحدة باقتراح على ان يعلن الطرفان استعدادهما التام لبحث مشكلة انتشار السلاح النووي وعن ايمانهما في ضرورة التوصل الى اتفاقية بهذا الخصوص، ولما كان مشروع انشاء قوة اوربية نووية موحدة لحلف الاطلسي العثرة المعرقلة لتقدم المباحثات فانه من الافضل اصدار مسودة ثنائية لتشكيل لجنة خاصة من الخبراء والفنيين لتقرير ما اذا كان المشرووع الامريكي لقوات الاطلسي يمثل

Von Hassel, Foreign Affairs, Vol. 42, No. 2, 1964. (٢٤)
United Nations Official Record, Resolution 2028 (xx). (٢٥)

انتشاراً للسلاح النووي أم لا .

والى جانب تلك المواقف البناءة تقدمت حكومات الهند والسويد والعربية المتحدة بمسودة موحدة هدفها جعل الدول النووية مستعدة لاضافة تعديلات جوهرية على مواقفها السابقة بالاتفاق على ضرورة تخفيض معدل الاسلحة النووية المتراكمة عندها انسجاماً مع كون « اتفاقية حظر انتشار السلاح النووي يجب ان لا تكون مجرّد قرار تعلن فيه الدول غير النووية تخليها عن حق اكتساب سلاح نووي وترك سلطان الاحتكار النووي الى الاعضاء الخمسة.. بل ان تكون وسيلة للحد من التسابق النووي ولتحطيم الاسلحة النووية ووسائل قذفها » «٢٦» . وكما اشار مندوب الهند ان الاتفاقية يجب ان تعمل كفرقة اطفاء غرضها اخماد النار في البيوت المشتعلة وليس الانشغال بوقاية الدوز المجاورة للحريق «٢٧» .

والحقيقة الاخرى التي كشفتها الدول المحايدة، خاصة موقف الهند والسويد، هي العلاقة بين الالتزامات المطلوبة من الاعضاء الموقعين وبين الضمانات التي تمنح لهم كتعويض لما يفقدوه من حرية لانه «لا يمكن اجبار الدول ان توافق على مشروع واعتباره فعالاً ومقبولاً باصداره اوامرموجهة الى الدول غير النووية فقط بان لا تقوم بهذا العمل او ذاك، بينما تترك الدول النووية بدون اوامر تجبرها الالتزام بقيود معينة» « ٢٨ » . فهناك في المجتمع الدولي بعض الدول ذات علاقات خاصة مع الدول النووية الكبرى التي منحتها حماية نووية مباشرة، او ان تكون مشمولة بالغطاء النووى الدفاعي عن طريق الاحلاف . ومشكلة الضمانات لا تهم هذه الدول بالدرجة التي تهم الدول المحرومة من علاقات خاصة مع الدول النووية الكبرى، فقد تتعرض هذه الى تهديد نووى او هجوم نووى من دولة نووية او حديثة الاكتساب للاسلحة.

(٢٦) Eighteenth Nations Commission on Disarmament, 207, 13 August 1964.
(٢٧) ENCD / 222 meeting, 10 August 1965.
(٢٨) ENCD / 230 meeting, 7 September, 1965.

النووية. وجاء اعتراف ولسن، رئيس وزراء بريطانية، تأكيدا لهذه الفكرة الجوهرية «يجب علينا ان نبحث جديا في مسألة الوسائل الضمانية للدول غير النووية ضد اى خطر ناجم من جراء اكتساب دولة اخرى لسلاح نووي» «٢٩».

وهناك فئات من المفكرين في الدول الكبرى تدعي ان الدول الحيادية تسعى لاستغلال الخلاف بين السوفيت والامريكيين من اجل تحقيق مكاسب خاصة بيد ان سياسة هذه الدول ازاء مشكلة حظر انتشار السلاح النووي لا تتعدى كونها واقعية ومسؤولة. فدول المعسكر الثالث لا تطلب من الدولتين النوويتين فوق العادة ان تتنازلا عن قوتهما ومنح صيانة للدول الصغيرة، بل على العكس فأنها تفهمت صعوبة – ان لم يكن استحالة – تحقيق ذلك فنادت بضرورة التمييز بين فكرة الامن والحماية. واكدت دول عدم الانحياز بان الامن يكمن في ازالة الخطر المهدد للامن في العلاقات الدولية وليس في اعطاء وعود سخية في الحماية والخطر الاساسي لايكمن في انتشار السلاح النووي بل في تراكمه وتطويره عند الدول النووية الكبرى، ولاجل ادخال الامن الى قلوب الشعوب غير النووية تقدم كوسيجن برسالة تعهدية بعثها الى لجنة «١٨» دولة اكد فيها استعداد الحكومة السوفيتية للتمسك بالتزامات واضحة بحيث انها لن تستخدم الاسلحة النووية ضد دولة غير نووية. اما بخصوص انتقال المعلومات والمواد الاولية للصناعات النووية فانه اقترح الاخذ بفكرة السيناتور Pastore « وهي ان تكون الدول التي تصبح مصدرا لجميع المواد الاولية والمعلومات النووية خاضعة لبنود وكالة المنظمة الدولية النووية » «٣٠».

الشرق الاوسط وحظر انتشار السلاح النووي :

هناك اتجاه تقليدي عند كثير من المفكرين الستراتيجيين بان يعتبروا منطقة الشرق الاوسط مجالا يجب ان لا تفسر فيه العلاقات الدولية والعسكرية

---

(٢٩) Offical Record of the United Nations

(٣٠) Congressional Record, 18 January 1966, Vol.112, No. 6, P. 472.

على ضوء احتمالات استخدام الصراع النووي بين الاطراف المتنازعة. بيد ان الحقيقة عكس ذلك تماما. فبالرغم من توقيع العربية المتحدة على اتفاقية حظر انتشار السلاح النووي وتردد اسرائيل في التوقيع مدة طويلة حتى الفترة الاخيرة،لا يمكن فهم وادراك. ومن ثم تحليل، طبيعة العلاقات القائمة بمعزل عن احتمال وقوع مجابهة نووية، حتى ولو بمستوى محدود بين الاطراف المحلية او غيرها. ولربما يظهر موقف كهذا تشائميا ومع ذلك فالدلائل كثيرة لاثبات هذه الوضعية. فاسرائيل منصرفة منذ فترة طويلة في ابحاثها النووية للاغراض العسكرية ويقدر لها ان تنتج في السبعينيات،او تكون في مرحلة استعداد لانتاج بعض الرؤوس النووية الصغيرة. ومما لا يمكن نكرانه هو ان المساعدات الخارجية التي تستلمها اسرائيل على هيئة عقول مهاجرة اليها من اوربا ومن الولايات المتحدة، والمعونات المالية الهائلة وتسرب المعلومات النووية بشكل اوآخر كلها تخدم القضية الاسرائيلية النووية.

اضف الى ذلك ان هناك عوامل ستراتيجية عامة قد تشجع اسرائيل على ممارسة انتاج السلاح النووي سرا او علانية . والسؤال الذي يطرح نفسه امامنا هو ماهي الاحتمالات الستراتيجية التي تواجه الامة العربية؟ .

اننا لانستطيع ان نسير مع من يعتقد بان ماتمنحه تفاقية حظر انتشار السلاح النووي من ضمانات ضد تهديد او هجوم دولة حديثة الاكتساب للسلاح النووي كونها كفيلة بمنح الامة العربية امناً وسلاماً لوجودها كدولة مستقلة ذات سيادة دولية وحرية في تخطيط سلوكها الخارجي واختيار انظمتها الداخلية .

فالوقائع التاريخية لسلوكية اسرائيل في علاقاتها الدولية مع البلاد العربية لايستخلص منها سوى نتيجة واحدة هي ان موقف العرب من اسرائيل يجب ان يكون متحفظاً لدرجة كبيرة وحذراً . لان اسرائيل لم تتقيد في مرحلة ما بقوانين المعاهدات والاتفاقيات . اضف الى ذلك ان هذه الاتفاقيات -وحتى القانون الدولي- لاتتصف بطابع الالتزام كما هو الحال بالنسبة للاتفاق داخل القانون المحلي للدولة . وانعدام فعالية الالتزام في تنفيذ بنود مايتفق عليه وما

قررته الامم المتحدة ظاهرة استغلتها اسرائيل بشكل سافر ولا شرعي منذ تأسيسها كدولة عدوانية غريبة عن المنطقة زرعها الاستعمار لتحقيق هدف عام واستخدامها كرأس رمح في علاقاته مع البلدان العربية والقوى العربية المتحررة.

والعلاقات الدولية تزيل الستار عن حقيقة كون اسرائيل تستغل الاتفاقية لخدمة مصالحها التوسعية والعدوانية ، فهي لاتحرص على التمسك ببند او اتفاق الا اذا انسجم مع هدفها الخاص ، اما اذا كان الواقع عكس ذلك فهناك من المبررات مايسهل الخروج على الاتفاقيات بغطاء من التستر تسانده موجه اعلامية محلية وعالمية .

وقد علمتنا تجارب العيش، وبيننا اسرائيل كترسانة وواجهة للمصالح الاستعمارية ، على ان نفقد الثقة في حسن نواياها وان نفهم. كل ماتقوم به وسيلة يخدم غاية عامة وخطوة تهدد كيان الامة العربية ووجودها كحقيقة دولية والى جانب ذلك علينا ان ندرك ان طبيعة الصراع العربي الاسرائيلي لم تعد ظاهرة اقليمية كما يراد بها احياناً لتبرير بعض المشاريع بل على العكس من ذلك فالصراع في الشرق الاوسط حلقة مكملة لصراع عام بين قوى الخير والشر . وبين التحرر والعبودية وبين الاستقلال الفعلي وبين السيطرة الاستعمارية في العالم . ثم ان مصير هذا الصراع غدا معلقا بطبيعة التعامل داخل المنطقة، ولا يمكن ان نتغافل عن كون العامل الفلسطيني في النزاع طرفا اساسا في تقرير شكل الصراع من حيث العمق والابعاد، ومما حققه الكفاح العربي الفلسطيني ادخال هذه الظاهرة في تخمينات العدو والقوى المناصرة له.

لقد جمعت اسرائيل في سلوكها نمطين من التعامل مع الامة العربية احدهما ركز على الدبلوماسية في خدمة الكسب العسكري ، دون اهمال الجانب العسكري والاخر اكد على الجانب العسكري . دون اغفال دور الدبلوماسية في خدمة الكسب العسكري.

وسنبحث الجانب العسكري كوسيلة تستخدمها اسرائيل في تحقيق اهدافها

العدوانية والتوسعية ونعتبر هذه الحقيقة من المسلمات. وعلى ضوء ذلك فان اسرائيل لن تتردد في جعل قدرتها العسكرية التقليدية في اعلى مستوى من حيث العدة والعدد. ولكن الى جانب ذلك تبقى اسرائيل تسعى لان تضيف الى قوتها التقليدية قدرة نووية او قابلية مشارفة لنقطة الانتقال من قوة غير نووية الى قوة عسكرية نووية.

اننا عندما نناقش موضوعا كهذا لابد ان نطرح بعض الافتراضات ثم نتخلص منها. فمن جهة قد يعتقد بان حربا نووية بين العرب واسرائيل «بعد اكتساب اسرائيل لسلاح نووي» لايمكن ان تدرس بانعزال عن حقيقة اخرى: وهي ان الدول النووية الاخرى قد تشترك في المجابهة النووية وذلك لاهمية المنطقة جغرافيا وعسكريا واقتصاديا. لكننا نميل للاعتقاد بان الدول النووية الكبرى ليس في سلوكها مايمنح حرية الجزم او الرفض لحقيقة تدخلها نوويا. وبعبارة اخرى انه قد تقوم حالة تفاهم ضمني بين مواقف تلك الدول بحيث تجمد النزعة عند كل منهما للدخول في مواجهة نووية عامة. اذا اما تبقى منطقة الشرق الاوسط. وبالتالي النزاع العربي الاسرائيلي تقليديا. وهذا ما لا نأخذ به او تصبح على حافة نووية وهذا ما تشير اليه تطورات الاحداث. فالدول الاستعمارية تحافظ على المستوى العسكرى العدواني الاسرائيلي وتنشطه بحجة ضرورة صيانة التوازن بين العرب واسرائيل. ولكنه بالاحرى توازن لجانب اسرائيل. بحيث تستطيع ان تجهض بفضل ذلك التفوق «الداخل ضمن فكرة التوازن» اية محاولة للتحرر العربي وخنق الحركات العربية التقدمية. ولكن لا بد من الاستفسار حول مدى استمرارية هذه الظاهرة وهل هناك مقومات تساند قيام الصراع التقليدي بين العرب واسرائيل؟

ان مسيرة النضال العربي وعملية تصعيده سواء في ساحات العمل الفدائي او على مستوى القوات العسكرية النظامية تؤكد ان طبيعة الصراع تعكس حقيقة لا يمكن اغفالها: الا وهي ان الصراع يرتكز على عوامل كامنة في القدرات الذاتية والطبيعية التي تتمتع بها المنطقة. وتشير التقارير ان النزعة الطبيعية للاشياء

في الشرق الاوسط هي لصالح الموقف العربي. ولهذا نجد اسرائيل ومن يقف وراءها يحاولون افساد هذه العلاقة المنطقية. وسلكت اسرائيل ومن معها سبلا عديدة لتحقيق افساد العلاقة. منها الضغوط المحلية على جبهات عسكرية انفرادية كما فعلت في حرب السويس. ثم التدخل في ارباك الانظمة التقدمية المتحررة في الداخل. ثم شنها هجوماً على جبهات عربية متعددة ظنت انها ستكسب بها الهدف ولكنها غدت ابعد مما كانت عليه في السابق.

وعلى ضوء هذه الحقائق عليناان نتأمل في منهجية تفكير العدو عنا، كما هو يفكر باننا نفكر عنه. ان اسرائيل تدرك فهمنا لاهمية القاعدة الطبيعية التي يرتكز عليها الموقف العربي وتفوقها في مجالات اساسية لا يمكن اهمالها عند وضع معادلة القوة. واسرائيل تشعر بصعوبة التفوق على العرب من الناحية الجغرافية، والقوة البشرية والقاعدة الاقتصادية. لذا نجدها تسعى للاستنجاد بما يمكن استخدامه في عملية تجميد التفوق العربي كالاعتماد على هجرة القوة البشرية اليها من اوربا وترسيخ مقومات اقتصادها وجعله يستند على عوامل داخلية وتقلل من ارتباطه بالاقتصاد الغربي لكن التجربة تؤكد ان اسرائيل لا يسعها الخوض بهذه العملية وعليها ان تفكر باتجاه آخر افضل من القوة التقليدية: الانتقال الى قوة نووية محدودة على الاقل.

والاسئلة التي تطرح عند هذه المرحلة مختلفة منها هل ان للقدرة الاسرائيلية النووية المكتسبة قدرة التصديق عندنا؟ وهل ان القدرة النووية الاسرائيلية ستتفوق على القوة التقليدية للعرب؟ وهل تنوى اسرائيل استخدام سلاحها الجديد «بعد ان اكتسبته»؟ وكيف ستستغل هذه القوة التدميرية من جانب واحد؟ وهل بامكان الامة العربية ردع اسرائيل؟.

سبق وان اشرنا ان الازمة ليست في انتقال السلاح النووي وحده، او في القدرة النووية مهما كانت عظمتها. بل الكلام يتعلق من حيث أهمية الجانب السايكولوجي. وبعبارة اخرى درجة التصديق التي تعطيها القوة التدميرية النووية وتتركها عند الطرف الآخر. اي هل ان العرب يصدقون بان قوة

اسرائيل النووية المكتسبة حديثا ستعمل ضدهم وتدمر نزعتهم في المقاومة سواء عن طريق التهديد او الاستعمال الفعلي. ولا يمكننا اعطاء صيغة ثابتة لدرجة التصديق لاي بيان تهديدي او وعد بشن هجوم. حيث تلعب عوامل متعددة في تكوين نسبة التصديق منها المصدر او الجهة الرسمية التي يعلن بواسطتها الانذار، ونوعية الانذار من حيث الوضوح، فكلما كان واضحا كلما زاد من حرية الطرف المهدد وقيد حرية الذي اصدر التهديد لانه يحرمه من اعطاء الانذار تفسيرات فيها خطوط رجعة تستخدم للتخلص من التزام التهديد عندما تقتضي الحاجة اليه.

وتجربتنا مع اسرائيل تعطينا خبرة في الاخذ بعين الاعتبار بما يعلن عنه المسؤولون في الحكومة الاسرائيلية وذلك للنزعة الانتقامية وروح المغامرة التي تسندها الدول الاستعمارية. ومما لاشك فيه ان اسرائيل لن تتردد في استغلال قدرتها النووية الجديدة. حتى ولو كان على حساب احتمال جر العالم برمته الى مواجهة نووية غير مألوفة. ولما كانت القدرة النووية الاسرائيلية المتوقعة الاكتساب غرضها سد فجوة التفاوت الطبيعية بين مقومات القوة الكامنة للبلاد العربية وبينها، فانها ستجد ما يشجعها على استخدام الضربة النووية المباغتة ضد البلاد العربية. وكذلك ان العامل الجغرافي يدفع بالعدو الى الاقتناع بضرورة شن هجوم اول علينا لان ما ستتركه حملته النووية سيكون داخل بقعة جغرافية مأهولة بالسكان العرب، وسيحدث تحطيم للقاعدة الاقتصادية للبلاد العربية المتعرضة للهجوم بدون ان يكون هناك ردود فعل عكسية على اسرائيل نفسها من حيث اثار الاشعاع والتلوث النووي بشكل يهدد كيانها.

وما يخص كيفية استخدام اسرائيل لسلاحها النووي فان الاعتبارات الستراتيجية تفتح امام العدو احتمالات يمكن ان نتعرض بالبحث لبعض منها. فمن جهة قد تستغل اسرائيل سلاحها النووي المتوقع اكتسابه ضد تحشدات

الجيوش العربية عند حدودها وذلك لابعاد الخطر المباشر عنها، ولكن المنطق العسكري لا يقبل بهذه الستراتيجية. لان البلاد العربية تستطيع ان تعوض عما يحدث من استنزاف في جيوشها من قوات احتياطية متوفرة في قوتها البشرية الكامنة. ثم ان تفجير سلاح نووي عند الحدود الاسرائيلية يعرض بعض المناطق اليهودية لاخطار التلوث. اضف الى ذلك ان قلة عدد الرؤوس النووية التي ستمتلكها اسرائيل لا تعادل القيمة العسكرية المتوقعة من استخدامها.

والطريق الاخر الذي قد تسلكه اسرائيل هو استخدام سلاحها المكتسب بشكل محدود تضرب به منطقة عربية معينة وتدمرها ،خاصة وانها لا تحتاج الى وسائل قذف معقدة كالصواريخ البعيدة المدى لمجاورتها لاغلب مراكز تجمع السكان والعمران في البلاد العربية. وعندها يتقدم العدو. الى بقية مناطق اخذ القرارات السياسية في العواصم العربية بضرورة الاذعان للامر الواقع والامتثال لشروطه. والا فانه في حالة الرفض سيكون مصير بقية اجزاء البلاد العربية كما حدث للمنطقة التي تعرضت لهجوم نووي مقيد.

لقد تكلمنا في الاحتمالات الستراتيجية التي يمكن ان تحدث فيما اذا امتلكت عدوتنا سلاحا نوويا ونحن لا نمتلكه. والان ندخل عوامل جديدة الى المشكلة. لا شك اننا لا بد ان ننتفع من تجارب العلاقات الدولية منذ الحرب العالمية الثانية حيث حدث ان جمدت القوة السوفيتية التقليدية ما اكتسبته الولايات المتحدة من اسلحة نووية حديثة. ولكن مما ساعد على قيام حالة الردع «٣٠» بين الطرفين هو تواجد عوامل عديدة: منها ان اوربا كانت قد خرجت من حرب تحملت فيها ملايين الضحايا من جميع الاطراف. ثم

---

(٣٠) الردع يرتكز على عاملين القدرة التدميرية والجانب السايكولوجي بالتصديق. وفحوى الردع هو ان تحقق الدولة الرادعة حالة بحيث يؤمن الطرف الذي يفكر بشن هجوم بان الرداع يعرضه لان يتحمل من الخسائر (في حالة شن هجوم) لا تناسب ما يتوقعه من مكاسب بسبب هجومه. وهناك ردع نووي متبادل وردع تقليدي.

أن القوات السوفيتية قد بسطت نفسها على اوربا الشرقيه، اضف الى ذلك كانت هناك آمال قائمة عند الطرفين في ضرورة التعايش السلمي ، واخيرا لم يكن بمقدرة الاسلحة الامريكية النووية ان تحقق النصر النهائي رغم ان ما ستحمله اوربا من نتائج لا تناسب الهدف الذي من اجله تستخدم الاسلحة النووية .

ويمكننا ان نحقق ردع اسرائيل باللجوء الى صناعة نووية، ولا شك ان بعض البلدان العربية كالعربية المتحدة قد سارت في طريق التصنيع النووى مرحلة لا بأس بها الا انها لا تعطي ضمانات كافية بان لا تكون هناك فجوات زمنية، وبالتالي في نوع السلاح وكميته بيننا وبين العدو . وبصفتنا من الدول الموقعة على اتفاقية حظر انتشار السلاح النووى فبوسعنا ان نلجأ اليها لصيانة امتنا وسلامتنا . ولكن رغم ما تعطيه الاتفاقية من ضمانات وحق الانسحاب في حالة فساد الالزام من جانب طرف يهدد سلامة وامن الاخر «٣١». فان الاتفاقية تبقى عاجزة عن حمايتنا. وهناك منفذ آخر لهذه الازمة يتمثل في انطواء البلاد العربية تحت مظلة نووية لدولة كبرى نووية فوق العادة. ولكن هذه الوسيلة تعارض المبادىء الجوهرية لسياسة الحياد الايجابي التي تبنتها الدول العربية المتحررة.

وبتدارس هذه الاعتبارات يبدو ان على الامة العربية ان تحقق لنفسها قابلية رادعة بجعل العدو يصدق باننا سوف لن ندعه يتوصل الى اكتساب سلاح نووى وذلك بان ندخل اليقين اليه ليقتنع بانه سوف يتحمل من الخسارة اكثر مما يتوقعه من كسب. وهذا يمكن تحقيقه بالتأكيد على ستراتيجية الهجوم الوقائي بحيث تسدد القوات العربية التقليدية هجوما كاسحا يسلب العدو من التمتع بمنافع حرية التهديد او استخدام السلاح النووى. وبالوقت نفسه ان تواصل البلاد العربية المتحررة تطوير صناعتها الثقيلة وتبقى دائما

---

(٣١) Article x , Treaty of the non - proliferation of Nuclear Weapons .

قريبة من نقطة الانتقال من دولة لا نووية الى دولة نووية لكي لا نسمح لعدونا بان يتنعم بالمزايا التي تمنحه اياه حدوث الفجوة الزمنية بين وقت انتقاله الى قوة نووية وبين فترة انتقالنا .

ان الامة العربية لا ترغب في ان تكون مصدرا لشن هجوم. ولكنها لن تكون بالوقت نفسه راضية بتواجد حقوق مغتصبة واراض عربية محتلة وقاعدة استعمارية غريبة عليها زرعت عمدا بين صفوفها .



توطن صناعة تكرير البترول في العراق «١»

محمد أزهر السماك

يهدف هذا البحث الى دراسة توطن صناعة تكرير البترول في العراق. بتطبيق منهج الجغرافية الصناعية. فقد اخذ الاهتمام بدراسة جغرافية الصناعة يتزايد في كثير من دول العالم المتقدمة. نتيجة لتطور علم الجغرافية اولا. ولمكانة واهمية الصناعة المتزايدة ثانيا. وعليه فلا بأس من ان يسهم جغرافيو العراق في دراسة هذا الموضوع الحيوى الجديد للوقوف على اسسه ومبادئه وارساء القواعد الخاصة به. صحيح ان الجغرافي ليس بصانع وقد يتوفر له الشيء القليل او الكثير من الثقافة الصناعية. ولكنه – مع ذلك – يستطيع ان يعالج كثيراً من نواحي المعرفة ومنها الصناعة. معالجة جغرافية تقوم على التحليل والتركيب. على ضوء علاقاتها المتداخلة والمترابطة مع اقليم توطنها وبالعلاقة مع الاقاليم الاخرى ثم الربط بين الحقائق لاعطاء الصورة الكاملة للاقليم من خلال الانماط التوزيعية المختلفة. تلك الصورة التي تعبر عن وجهة نظر علم الجغرافية «٢».

(١) اعتمد الكاتب في تحليل وتفسير مقومات الوضع Site-facilities الخاص بكل مصفى على مشاهداته الشخصية اثناء دراسته الميدانية التي غطت معامل التكرير كافة في صيف عام ١٩٦٨.

(٢) اتخذ من تقسيم الامم المتحدة لفئات احجام المصافي العمالية اساسا للبحث، بعد الاخذ بنظر الاعتبار تركيب صناعاتنا ومرحلة نموها وتطورها في هذا التقسيم، وبموجبه اعتبرنا

أ– المصافي (المصانع) التي يتراوح عمالها من ٥–٩ صغيرة الحجم.
ب– = = = = = = ١٠–٤٩ متوسطة الحجم.
جـ– = = = = = = ٥٠–١٩٩ كبيرة الحجم.
د– = = = = = اكثر من ٢٠٠ ضخمة الحجم.

راجع:

Macknight, T. " Manufacturing in Arizona " University of California. Publications in geography, vol. 8, No. 4, Berkaley and Los Angeles 1962, P. 294.

جدول رقم (١)

توزيع مصافي البترول في العراق سنة ١٩٦٦ (العمالة ـ راس المال المستثمر (١)

الطاقة الانتاجية ـ الانتاج الفعلي ـ قيمة الانتاج)

الموقع الجغرافي / اللواء	العمالـــة		راس المال المستثمر بالدينار		الطاقة الانتاجية بالطن		الانتاج الفعلي (طن)		قيمة الانتاج بالدينار	
	العدد	النسبة المئوية٪	المبلـــغ	النسبة المئوية٪	الطاقـــة	النسبة المئوية٪	الانتاج	النسبة المئوية٪	القيمة	النسبة المئوية٪
١ـ مصفى الوند/ ديالى	٣٨٨	١٤/٨	١/٥٠٠/-	٦/٧	٦٤٢/٨٥٧	١٢	٤٧٣/٠١٠	١٤	٥٠١/٩٣٠	٥/٦
٢ـ مصفى حديثة/ الرمادي	٤٣	١/٦	١/٧٥٠/-	٧/٩	٣٣١/٧١٤	٦/٥	٩٧/٧٥٣	٣	٢٠١/-	٢/٤
٣ـ مصفى كركوك/ كركوك	٣٠	١/١	١/-/-	٤/٥	١٤٧/٩٦٠	٢/٧	٦٥/-	٢	٩٨/-	١/١
٤ـ مصفى القيارة/ الموصل	٢٢٠	٨/٣	٢/-/-	٩/١	١١٧/٢٥٧	٢/١	٥٢/٨١٠	١/٦	٣٤١/٣٠٨	٤
٥ـ مصفى المفتية/ البصرة	٨٧	٣/٣	٢/-/-	٩/١	٢٢٠/٨١٤	٤/١	١٧٣/٦٣٤	٥/٤	٤٠٨/١٠٥	٤/٧
٦ـ مصفى الدورة/ بغداد	١٨٦٧	٧٠/٨	١٣/٨١٤/-	٦٢/٦	٣/٩١٠/٧١٤	٧٣	٢/٥٠٠/-	٧٤	٧/١٦٤/٩٥٠	٨٢/٢
جملـة العراق	٢٦٣٥	١٠٠	٢٢/٠٦٤/-	١٠٠	٥/٣٧١/٣١٦	١٠٠	٣/٣٦٢/٢٠٧	١٠٠	٨/٧١٥/٢٩٢	١٠٠

١) محمد ازهر السماك، جغرافية الصناعات الكيمياوية في العراق، رسالة الماجستير، القاهرة ١٩٦٩، غيرمنشورة (بالرونيو) ص ١٩٤.

تحظى صناعة تكرير البترول باهمية بالغة في معظم دول العالم المتقدمة وتعتبر من الصناعات الانتاجية الهامة. ولعل مرجع ذلك الى ارتباطاتها بعدة انواع اخرى من الصناعات، من جهة. وكثرة عدد مستخدميها من جهة اخرى، والتي تعطي الصفات الرئيسية لتوزيع المؤسسات الصناعية عامة. فهذه الصناعة، والصناعات الكيمياوية الثقيلة الاخرى يطلق عليها Location Leaders—قادة التوطن، وعليها يتوقف الرخاء الصناعي الحديث للبلاد.«١».

توجد في العراق ٦ مصاف لتكرير البترول موزعة في كافة انحاء البلاد. فلكل من الوية الرمادى وكركوك مصفى متوسط الحجم،وللبصرة مصفى كبير. اما الوية ديالى والموصل وبغداد فتنعم بمصاف ضخمة شكل رقم «١». يعمل في صناعة تكرير البترول بالعراق٢٦٣٥ عاملا. وتستثمر اكثر من ٢٢ مليون دينار. ويعتبر مصفى الدورة «بغداد» اضخم هذه المصافي جميعا واحدثها. فقد بلغ عدد مستخدميه ١٨٦٧ عاملا،وراس ماله حوالي ٠٠٠ر٨١٤ر١٣ ديناراً اى يعمل به اكثر من ٨ر٧٠٪ من جملة العمال في صناعة التكرير. ويستثمر فيه حوالي ٦ر٦٢٪ من رأسمالها. ويعمل بطاقة تقدر حوالي ٧١٤ر٩١٠ر٣ طنا. ينتج حوالي ٥ر٢ مليون طن سنويا اى انه يضم ٧٣٪ و ٧٤٪ من الطاقة الانتاجية والانتاج الفعلي لمعامل التكرير في العراق على التوالي جدول رقم«١» الشكل رقم «٢».

ومن دراسة الشكل رقم «٤» يتضح لنا ان كلا من مصفى الوند «ديالى» ومصفى القيارة «الموصل» والمفتية «البصرة» يستمد مادته الخام من حقول النفط المجاورة له. اما مصافي كركوك وحديثة «الرمادى» فيتزودان بالبترول الخام من محطات الضخ «الدفع التابعة لشركة نفط العرق وهي محطة K1 «ك ١»

---

(1) Estall, R.C., and, Buchanan, R., O., "Industrial Activity and Economic Geography," (A study of the forces behind the Geographical Location of productive activity in manufacturing Industry), London 1962. P. 167.

كركوك ومحطة K3 «ك ٣» حديثة اضافة الى كون مصفى كركوك يقع بجوار حقول بترول باباكركر . اشهر حقول البترول في العراق قاطبة.

اما مصفى الدورة فيقع بعيدا عن حقول النفط جنوب مدينة بغداد ويزود بالنفط الخام عن طريق الانابيب الممدة اليه من حقلي نفط خانه «ديالى» من جهة . وكركوك « محطة الضخ K2 ـ ك ٢ عند بيجي » . من جهة اخرى .

وتقوم هذه المصافي بتكرير البترول للحصول على مختلف المنتجات النفطية عدا مصفى القيارة الذى تخصص بانتاج القير « الاسفلت » فقط . ويرجع هذا الى طبيعة نفطه الخام الثقيل الذى ترتفع به نسبة الكبريت والذى لا يتلائم تقطيره والحصول على المشتقات الخفيفة مع وضع مصفاته الحالية الا بعد تحويرها .

ولقد بلغت الطاقة الانتاجية لكافة المصافي عام ١٩٦٥ اكثر من ثلاثة ملايين ونصف المليون طن ولقد غطى انتاجها الفعلي ـ البالغ حوالي ثلاثة ملايين طن ـ حاجة السوق المحلية . اضافة الى تصدير حوالي ٢٦.٥٩٠.٠٠٠ غالون من مختلف المنتجات «١» وقد ارتفعت الطاقة الانتاجية للمعامل سنة ١٩٦٦ الى حوالي ٥.٥ مليون طن . في حين بلغ انتاجها الفعلي حوالي ثلاثة ملايين وثلث المليون طن . وقد سد انتاجها حاجة السوق المحلية ، اضافة الى تصدير اكثر من ٥٣ مليون غالون من مختلف المنتجات «٢». وترجع الزيادة في الطاقة الانتاجية الى تنفيذ مشاريع الخطة الخمسية للسنوات ٦٥-١٩٦٩، التي خصص اكثر من نصفها لمشروعات القطاع الصناعي وما يتصل به . واذا ما علمنا حاجة هذه المؤسسات لمختلف المشتقات البترولية يتبين لنا مدى الزيادة المتوقعة

١- وزارة النفط والمعادن ، مصلحة توزيع المنتجات النفطية، مديرية الاحصاء والابحاث ، التقرير الشهرى عن مبيعات المنتجات النفطية في العراق، مطبوع بالرونيو وغير منشور . ٢١ مايو ١٩٦٨، ص ٢٩.

٢- مشعل حمودات ، استثمار الغاز الطبيعي في العراق ، المؤتمر الهندسي العربي التاسع ، ديسمبر ١٩٦٧ ص ٢٣.

في الطلب على هذه المنتجات وقد كانت الطاقة الانتاجية عام ٥٧–١٩٥٨ اقل من مليوني طن ، ولم تكن تشبع اكثر من ٧٥٪ من حاجة الاستهلاك المحلي. وقد تضاعفت المنتجات المبيعة من هذه المواد من ٣٦٧ مليون غالون عام ٥٧–٥٨ الى اكثر من ٦٩١ مليون غالون عام ١٩٦٦–١٩٦٧ . «٣» ولا تكرر هذه المعامل الا ٨٪ من انتاج البترول الخام في البلاد جدول رقم «٢» الشكل «٣».

جدول رقم «٢»

تطور العلاقة بين انتاج النفط الخام والطاقة الانتاجية

لمعامل تكرير البترول في العراق

السنة	انتاج النفط الخام (طن)	طاقة التكرير «طن»	النسبة المئوية لطاقة التكرير ٪
١٩٥٨/٥٧	٣٤.٩٣٢.٠٠٠	١,٥٠٠.٠٠٠	٤.٦
١٩٦٥	٦٣.١٥٠.٠٠٠	٣.٥٠٠.٠٠٠	٥.٥
١٩٦٦	٦٦,٦٨٠.٠٠٠	٥,٣٧١,٣١٦	٨

وعليه يجب زيادة هذه الطاقة في المستقبل لتتناسب طرديا مع التقدم الصناعي للبلاد ، بعد اكمال مشاريع الخطة الخمسية الاخيرة ، لسد الطلبات المتزايدة على مختلف المنتجات البترولية ، حيث ان معامل التكرير في العراق لم تعمل بكامل طاقتها الانتاجية . الشكل «٥» . ويدل على ذلك ان هناك حوالي ٣٧٪ من اجمالي هذه الطاقة الانتاجية غير مستغل . اى ان الانتاج الفعلي من النفط المكرر يشكل حوالي ٦٣ ٪ من الطاقة الانتاجية . وتعتبر معامل تكرير المفتية والوند والدورة اكثر المصافي العراقية «٧٩٪و٧٣٪و٦٥٪ على التوالي» استغلالا لطاقاتها الانتاجية . اذ تعمل بمعدل اكثر من ٧٣ ٪ من الطاقة الانتاجية .

٣– وزارة النفط والمعادن، المصدر السابق، ص ٢٩.

اما معملا تكرير القيارة وكركوك فيعملان بنسب متقاربة ٤٦٪و٤٣٪ لكل منهما على التوالي. اما معمل تكرير حديثة، فحوالي ٧٠٪ من طاقته الانتاجية معطلة. ويرجع ذلك الى ان الهدف الاسمي من انتاجه هو لسد حاجة شركات النفط العاملة في المنطقة.

جدول رقم «٣»

خطوط انابيب البترول الخام الواصلة الى المصافي العراقية

خط الانبوب	تاريخ الانشاء	القطر بوصة	الطول بالكيلومتر	كمية النفط المحملة بالطن
نفطخانة – مصفى الوند	١٩٢٧	٤	٣٥	٢٥٠و٥٠٠
الزبير – مصفى المفتية	١٩٥٣	٦	٢٨	٣١٥و٢٠٤
كركوك – مصفى الدوره «١»	١٩٥٥	١٢	٣١٧	٢٣١و٢١٥و٢
نفطخانة –مصفى الدورة	١٩٦٣	١٢	١٣٧	٠٠٠و٥٠٠و١
كركوك –مصفى حديثة «٢»	١٩٣٢	١٢	٢٤٠	٠٥٠و٣٩٥و٤٠

١– انشئ الخط الممتد بين حقول كركوك ومحطة الضخ k2 (بيجي) عام ١٩٣٥ ولكن الخط الممتد بين k2 بيجي الى مصفى الدورة انشئ عام ١٩٥٥، بعد اقامة المصفى المذكور. وبلغ طوله ١٣٠ ميلا ١ر٢٢٨ كيلومترا بقطر ١٢ بوصة.

٢– وهو الخط الرئيسي الذي ينقل بترول حقول كركوك الى موانئ البحر المتوسط ويستقطع منه عند محطة الضخ k3 (حديثة) فقط ٠٠٠ر١٥٠ طن.

× مجلة عالم الاقتصاد، العدد الثاني، السنة الاولى، نيسان، ١٩٦٨، ص ٥٣.

× مشعل حمودات، صناعة النفط في العراق، ملحق مجلة المعلم الجديد، بغداد ١٩٦٦، ص ٤١.

جدول رقم «٤»

خطوط انابيب نقل المنتجات البترولية في العراق

خط الانبوب	القطر بوصة	الطول بالاميال	المنتجات التي ينقلها
١ــ مصفى الدورة ــ مستودع ام العظام	٨	٩	الوقود الديزل
٢ــ مستودع ام العظام ــ مستودع غربي بغداد	٨	٣	= =
٣ــ مستودع غربي بغداد ــ محطة كهرباء الصرافية	٦	٦	= =
٤ــ مستودع ام العظام ــ مستودع الكيلاني	٦	٣	= =
٥ــ مصفى الدورة ــ محطة كهرباء جنوبي بغداد	٦	٣	= =
٦ــ مصفى الدورة ــ معمل شركة سمنت بغداد	٦	٢	= =
٧ــ مصفى الدورة ــ مستودع ام العظام	٦	٩	نفط الغاز
٨ــ مستودع ام العظام ــ مستودع غربي بغداد	٦	٣	=
٩ــ مستودع ام العظام ــ مستودع الكيلاني	٤	٣	=
١٠ــ مستودع ام العظام ــ مستودع غربي بغداد	٦	٩	النفط الابيض
١١ــ مستودع ام العظام ــ مستودع الكيلاني	٤	٣	=
١٢ــ مستودع ام العظام ــ مستودع غربي بغداد	٦	٣	=
١٣ــ مصفى الدورة ــ مستودع ام العظام	٦	٩	بنزين السيارات
١٤ــ مستودع ام العظام ــ مستودع غربي بغداد	٤	٣	=
١٥ــ مصفى المفتية ــ المعقل	٤	٢	بنزين الطائرات
١٦ــ مصفى المفتية ــ خريطلية	٤	١	الوقود
١٧ــ مصفى الوند ــ مستودع خانقين	٤	٥	بنزين ونفط ابيض ووقود
١٨ــ مصفى المفتية ــ خريطلية	٦	١	بنزين الطائرات
١٩ــ مصفى المفتية ــ محطة كهرباء النجيبية	٨	٤	الوقود
جملة الخطوط		٨١	

• عوامل التوطن «ضوابط موقع المصافي» :-

النقل :

تعتبر تكلفة النقل المقارنة من الضوابط الهامة في تقرير محاسن وعيوب مواقع معامل التكرير. وعليه فان وفرة المواصلات مهمة في تحديد موقع المصفى. بسبب كثرة العمليات الإنتاجية للمصفى فاختبار المواقع يجب ان يقلل من تكلفة النقل بصورة معقولة. «١» وفيما يلي مناقشة وسائط النقل الرئيسية بجغرافية تكرير البترول بالعراق، وهي خطوط الانابيب والسكك الحديدية، والسيارات الحوضية، والنقل المائي.

«أ» النقل بخطوط الانابيب: الجداول المرقمة «٣و٤» الشكل «٤»

وتقسم الى قسمين وهما: خطوط الانابيب لنقل النفط الخام الى المصافي وخطوط الانابيب لنقل المنتجات البترولية المكررة الى الاسواق.

«١» خطوط الانابيب التي تنقل النفط الخام الى المصافي :-

يتضح من الشكل «٤» ان هناك خمسة خطوط رئيسية تصل بين حقول النفط ومصافيه. وهي :

«أ» الخط الذي ينقل النفط الخام من حقول النفط خانة الى مصفى الوند. وطوله ٣٥ كم بقطر ٤ بوصة.

«ب» خط انبوب بترول حقل الزبير الى مصفى المفتية وطوله ٢٨ كم بقطر ٦ بوصة.

«ج» خطان ينقلان النفط الخام الى مصفى الدورة. احدهما: من حقول كركوك وطوله ٣١٧ كم بقطر ١٢ بوصة. وعلى وجه التحديد فان الجزء الموصل بين محطة الضخ ك ٢–k2 عند قرية بيجي ومصفى الدورة، كانت قد انشأته وزارة النفط عام ١٩٥٥. لغرض ايصال المادة الخام إلى المصفى. ويبلغ طوله ٢٢٨ كم

1. Miller, E.W., "AGeography of Manufacturing," London 1962. p. 410.

بقطر ١٢ بوصة.اما بداية الخط الممتدة بين حقول كركوك ك ١-K1 محطة الضخ الى بيجي. K2 فقد انشأته شركة نفط العراق عام ١٩٣٢ لغرض نقل البترول الخام الى مواني البحر المتوسط.

والاخر : يبدأ من حقول النفط خانة قرب خانقين في لواء ديالى الى مصفى الدورة طوله ١٣٧ كم بقطر ١٢ بوصة ايضا. وقد انشيء عام١٩٦٣ لغرض تطمين طلبات المصفى المتزايدة للنفط الخام.

«د» الخط الموصل بين محطة الضخ ك ١-K1 كركوك الى محطة ك ٣-K3 حديثة في لواء الرمادي وطوله ٢٤٠ كم بقطر ١٢ بوصة، انشأته شركة نفط العراق. لغرض تصدير النفط الخام الى الخارج.

«٢» خطوط انابيب نقل المنتجات البترولية المكررة :-

هناك تسعة عشر خطا لانابيب نقل منتجات المصافي العراقية الى مراكز الاستهلاك منها ١٤ خطا تتفرع من مصفى الدورة. قسما منها الى مستودعات خزن المنتجات لتوزيعها بالسيارات لمستهلكين والقسم الاخر ينتهي مباشرة عند بعض المؤسسات الصناعية الكبيرة كمحطة كهرباء جنوبي بغداد ومصنع الاسمنت ببغداد جدول رقم «٤». وهي خطوط قصيرة لا يتجاوز اطوال اي منها عن ٩ اميال ومعدل اقطارها حوالي ٦ بوصات وقد خصص كل خط لنقل منتوج معين، هذا ويبلغ معدل الطاقة اليومية لكل منها اكثر من ١٥٠٠ طن من مختلف المنتجات. وقد حققت هذه الخطوط اقتصادا في نفقات النقل. فقد كانت كلفة نقل الطن المتري الواحد بالسيارات اكثر من دينار وربع «١/٢٥٠ فلسا» قبل انشاء هذه الشبكة من الخطوط وذلك في منتصف الستينات اما الان فانها اقل من ٦٥٠ فلسا فقط للطن الواحد. وفي ذلك توفير اكثر من ثلاثة ارباع المليون دينار سنويا «٢». وهناك اربعة خطوط اخرى لنقل منتجات مصفى المفتية الى المستودعات

---

(٢) وزارة النفط والمعادن، مصلحة النفط الحكومية، قسم الاحصاء والابحاث، اضبارة التسويق، غير منشور، ص ٣-٥.

القريبة لغرض توزيعها على المستهلكين ،اطولها يبلغ اربعة اميال بقطر ٨ بوصات.
وهو الخط الذي ينقل نفط الوقود المازوت ، الى محطة كهرباء النجيبية.
اما الخط الاخير فيذهب بالمنتجات من مصفى الوند الى مستودع خانقين بطول خمسة اميال وبقطر اربع بوصات . لنقل البنزين والنفط الابيض ونفط الوقود، وتقدر الطاقة اليومية لهذا الخط باكثر من ١٢٠٠ طن لكل من هذه المنتجات . « ١ »

ب- النقل بواسطة السكك الحديدية:

وتعتبر من الوسائط الهامة لنقل المنتجات النفطية في العراق . خاصة من مصفى بغداد الى مراكز الاستهلاك في كافة ارجاء البلاد، وبشاحنات خاصة بنيت لهذا الغرض . حيث قامت مديرية السكك الحديدية العامة بمد القسم الاكبر من الخطوط الدائمية داخل المصافي العراقية، وذلك بغية ربطها بالخطوط الحديدية العامة لغرض تسهيل توزيع المنتجات وتسويقها. وقد بلغ مجموع ما نقلته احواض السكك الحديدية من مختلف المنتجات حوالي ١/٢ مليون طن عام ١٩٦٦. « ٢ » بكلفة ٦٧٦/١ فلسا للطن الواحد كحدادنى للأجور بالسكك. "٣"

جـ- النقل بالسيارات الحوضية:

تلعب هذه الواسطة دورا رئيسيا في المناطق البعيدة عن خطوط السكك الحديدية في معظم انحاء العراق ويتجلى دورها الاساسي في الوية العراق الشمالية ومعظم مدن الوسط والجنوب . اضافة الى مراكز غرب البلاد.
ويتم بواسطتها نقل التربابين للطائرات A.T.K وكذلك البنكرسي والقير الفله كما تستخدم اللوريات لنقل الغاز السائل بعد ضغطه بالاسطوانات وغير

(١) مشعل حمودات، المصدر السابق ، ص ٤٣.
(٢) وزارة النفط والمعادن، المصدر السابق
(٣) رشاد قزانجي ، النقل النهري في العراق، الموتمر الهندسي العراقي الثامن بغداد يناير ١٩٦٧، ص ٨

ذلك. وقد بلغ مجموع ما نقل بها اكثر من ١/٨ مليون طن من مختلف المنتجات وذلك في عام ١٩٦٦.

د- النقل المائي :

تستخدم هذه الواسطة لنقل البنزين والنفط الابيض ونفط الغاز وزيت الديزل والنفط الاسود من مصفى الدوره الى المراكز المدنية والمنشآت الصناعية على طول مجرى نهر دجله الى الجنوب من بغداد ، بواسطة الجنائب «الصنادل» النهرية ، ولكن بنطاق محدود جدا لعدم امكانية انتقالها صيفا لضحالة المياه في فترة التحاريق « الصيهود » والتي تستمر اكثر من ستة اشهر.

كما تستخدم هذه الواسطة لايصال منتجات مصفى المفتية الى المراكز القريبة بواسطة نهر شط العرب.

اما مصافي العراق الاخرى فقد حرمت من هذه الواسطه تماما. لطبيعة المنطقة الجغرافية التي تجرى فيها الانهار.

وقد قدرت كميات النفط المصفاة المنقولة بالوسائط النهرية عام ١٩٦٦ باكثر من ٦٠٠٠٠ طن من مختلف المنتجات ، ٩٠٪ منها من مصفى الدورة «بغداد» والباقي من مصفى المفتية «البصرة» في الجنوب . وقدقدرت تكلفة نقل الطن الواحد بحوالى ٦٠٠ فلسا ، وبذا يكون النقل المائي ارخص وسائط النقل بالنسبة لهذه المنتجات. «١»

الخزن :-

تكفي طاقة الخزن لمصافي بغداد وديالى والبصرة لسد متطلبات البلاد من هذه المنتجات لاكثر من اربعة اشهر. تقف خزانات مصفى الدورة في المرتبة الاولى . حيث تستطيع لوحدها ضمان حاجة المستهلكين في العراق لاكثر من شهرين .

وقد نمت هذه القابلية لمصفى الدورة منذ انشائه. ففي عام ١٩٥٩ لم يكن داخل المصفى اكثر من ١٢ خزانا في احجام مختلفة لخزن المنتجات النفطية ، .

١- المصدر السابق ص ٨.

وهذه الخزانات هي :ـ

أـ خمسة خزانات لزيت الوقود ذات سعة ٧٨٥٧ طنا ومتمثلة بوسائل الخزن المتوفرة حاليا.

ب ـ خمسة خزانات للنفط الابيض ذات سعة ٧٨٥٧ طنا «٥٥٠٠٠ برميل» ومتصلة بوسائل الخزن ايضا.

جـ ـ خزانان لمادة النافثا المعدة للتقوية وبسعة ٧٨٥٧ طنا لكل خزان.

اما الان فقد تضاعف عددها مع زيادة احجام الاحواض الجديدة. اضف الى ذلك انشاء اكبر مستودع للمنتجات النفطية في العراق وهو المستودع الذي بني في اطراف مدينة بغداد، اطلق عليه مستودع ام العظام في الكرادة بقضاء الرصافة بمدينة بغداد، وعلى الضفة الغربية لنهر دجلة تبلغ مساحته ٣٧/٠٠٠ متر مربع وتصب فيه المنتجات بعدة انابيب. «٢»

اما مصافي ديالى والبصرة فتقسم النسبة الباقية من طاقة الخزن بنسبة ٣/٢ الاول و ٣/١ للثاني. هذا ولا تستطيع خزانات مصافي حديثة وكركوك والقيارة بشكلها الحالي ان تزود المستهلكين لاكثر من بضعة ايام محدودة. والحكومة جادة الان في العمل على زيادة سعة الخزن وطاقته لمنتجات المصافي. وذلك لتلبية طلبات السكان لبعض المنتجات ذات النشاط الموسمي كالنفط الابيض. الذي يزداد الطلب عليه شتاء لاستخدامه في التدفئة على نطاق واسع جدا. وهنا يجب على الدولة الا تبالغ برفع طاقة الخزن وزيادتها الا في حدود المعقول ولمجابهة الطوارئ من وجهة النظر الاستراتيجية فقط. بل يجب على معامل التكرير ان تقدر على مجابهة الطلبات الفصلية والاقليمية وتقلل من كلفتي النقل والخزن. «٣»

العمل :

تعتبر الايدي العاملة الماهرة من اهم متطلبات صناعة التكرير والتي يمكن

٢ـ وزارة النفط والمعادن، مصلحة مصافي النفط الحكومية، مصفى الدورة بغداد ١٩٦١ ص ٥

(٣) Encyclopedia Britannica, Vol. 17, 1966, P. 763.

اعتبارها من العوامل المؤثرة في توطنها. ولما كان عرض هذا النوع من العمل اكثر مرونة في المدن الرئيسية نتيجة ارتفاع المستوى العلمي لذا فقد اعتبرت مدينة بغداد هدف هذه الصناعة. ومع ذلك فان هذه الصناعة تقوم بتدريب عمالها بمراكز التدريب المهنية الخاصة بها. وبصدد هذه الحقيقة يذكر الاستاذ دنيسون Dennision أن الغرض من العمال المهرة يمكن تحقيقه بهجرة العمال وجذبهم الى المناطق التي تفتقر اصلا اليهم ونتيجة لذلك فقد زادت اهمية العوامل الاخرى المؤثرة بالتوطن. «١» ويؤكد هذا الرأى الاستاذ الفريد مارشال Alfred Marshall اذ يقول: «تستطيع الصناعة التي تتطلب عملا ماهرا ان تحصل عليه حسب اختيارها «٢» . وبالفعل فان مصفى بغداد يعتبر مصدر التموين بالعمالة لكافة المصافي العراقية واذا كان هناك توازن في المفاضلة بين اسواق معامل التكرير وعوامل توطنها فان هذا التوازن يختل بصورة محسوسة . اذا ما علمنا بأن مصافي بغداد وديالى والبصرة قد جهزت معظم عمالها بالمساكن الحديثة اذ يبلغ عددها ٤٩٧ منها ٣٣٧ لمنتسبي مصفى الدورة. والباقي لمصفى الوند وكافة الخدمات العامة اضافة الى وسائل الترفيه كالمسارح والنوادي. في حين ان المساكن متوفرة بصورة اعتيادية بالنسبة لمصافي القيارة وحديثة وكركوك. وهكذا فان هذه المصافي لا تضيف تكلفة الخدمات الاجتماعية هذه الى تكلفة التكرير بالمقارنة الدقيقة مع تلك التي في بغداد وديالى والبصرة.

توطن مصافي البترول:-

ينتج النفط الخام في العراق من عدة حقول. بعيدة عن مراكز المدن الرئيسية. كما انها متباعدة عن بعضها في كافة انحاء البلاد. جدول رقم «٥» شكل «٤»

(1) Dennision, S.R, "The Location of Industry and the Depressed Areas," London. 1939, P. 5

(2) Marshall, A., " Elements of Economics of Industry London 1958 pp. 153-154.

لهذا كان من الصعب توطين مصافي البترول عند مصادر المادة الخام. ولقد مرت مواقع مصافي البترول في العراق بمرحلتين هما :ـ

١ـ التوطن جهة المادة الخام: Raw Material-Oriented Oil Refinery

بدأت المرحلة الاولى في العراق في نهاية العشرينات واستمرت الى بداية الخمسينات. وقد انشئ خلالها خمسة مصاف. اقيم اولها وهو مصفى الوند في لواء ديالى عام ١٩٢٧م الذي انشأته شركة نفط الرافدين، والثاني بجوار حقول نفط كركوك في بداية الثلاثينيات والثالث عند حديثة «الرمادي» وأسسته شركة نفط العراق ، والرابع في لواء الموصل عند حقول نفط القيارة والخامس في لواء البصرة عند حقول الزبير والرميلة وقامت بانشائهم الحكومة العراقية.

جـــدول رقم (٥)

حقول النفط الرئيسية في العراق (٣)

التسلسل	الحقــــل	متوسط الانتاج اليومي بالبرميل	تاريخ الاكتشاف
١ـ	عين زالة	١٧/٨٠٠	١٩٣٩
٢ـ	كركوك (باباكوكر)	٤٣١/١٠٠	١٩٢٧
٣ـ	نفط خانة	١٣/٠٠٠	١٩٢٣
٤ـ	الزبيــر	٧٤/٩٠٠	١٩٤٨
٥ـ	الرميلــة	٤٣٤/٤٠٠	١٩٥٣
٦ـ	بطمــة	٢/٤٠٠	١٩٥٢
٧ـ	جامبــور	٢/٠٠٠	١٩٥٤
٨ـ	باي حسن	٨/٣٠٠	١٩٥٣
٩ـ	القيــارة		١٩٥٠

(٣) مجلة البترول والغاز الطبيعي ، العدد الرابع ، السنة الثالثة ، يناير ١٩٦٨ ص ٣٥.

والحقيقة ان كلا من مصفى كركوك وحديثة قد انشيء عند محطتي الضخ K³ K¹ على التوالي وعليه تعتبر محطات الضخ هذه نقاط جذب لتوطن المصافي في مرحلتها الاولى بسبب سهولة الحصول على النفط الخام عند نقاط خطوط الانابيب هذه «١».

في هذه المرحلة كانت عمليات تكرير البترول بسيطة حيث يسخن النفط الخام للحصول على المنتوج الرئيسي «عملية التقطير او التجزئة» وهو الكيروسين «النفط الابيض» حينما كان الطلب على البنزين وغيره محدودا جدا بسبب ضيق نطاق استعمال السيارات في اوائل هذه المرحلة. فأن الناتج من النفط الخام المكرر كان اقل من ٣٠٪ والباقي كان بمثابة شوائب عديمة المنفعة. وهي التي يشتق منها الكازولين والكازويل وغيرهما من المنتجات العديدة «٢». وهذا يعني ان انتاج الكيروسين كان لا يستطيع ان يتحمل كلفة النقل بهذه النسبة العالية من الشوائب. لهذا فقد توطنت مصافي العراق الاولى عند حقول نفطهاالخام.

٢– التوطن جهة السوق: — Market-Oriented Oil Refinery

بدأت المرحلة الثانية لتصفية النفط الخام عام ١٩٣٠ وقد نما هذا الاتجاه من التوطن في اعقاب الحرب العالمية الثانية «٣» ففي هذه المرحلة تقدمت عملية التصفية وزادت تعقيدا وحققت تقدما كبيرا في تنوع المشتقات وزيادتها «٤» وخلال تلك الفترة تقدم استعمال السيارات بسرعة الى درجة انها اخذت تتطلب كازولين «بنزين» من نوعية عالية «ذا اوكتين خاص» لتطمين كفايتها. وفي حزيران–١٩٣٠ نجد ان عمليات «البلمرة والتحطيم» قدتطورت بصورة جيدة. وفي عام ١٩٥٠ وجدت عمليات التشكيل بالتحطم Catalytic reforming process

(1). Estall, R. C., and, Buchanan, " Op. Cit., " pp. 24-30 .
(2). Eldeeb, M.M., "The Location of Modern Industry in Lower Egypt." Thesis submitted for the degree of ph.D., unpublished, Vol. I, New castle January 1966, p. 186.
(3). Odell, R.P., "An Economic Geography of Oil," London 1963. P. 111.
(4). Miller, E.W., "Op. Cit.", p. 409.

ان هذا التقدم التكنولوجي السريع قد مكن المصافي الحديثة من الاستفادة من اكثر من ٩٠٪ من النفط الخام في الحصول على المنتجات المتنوعة. وان ٥٪ - ١٠٪ من حجم الخام تطرح كمواد عديمة الفائدة بعمليات التكرير «٥».
ونتيجة لهذا التقدم فان كمية المصادر الضرورية لتصفية برميل من النفط الخام من ناحية رأس المال والعمل والوقود والوقت كانت عام ١٩٦٠ اقل بكثير عما كانت عليه الحال اعقاب الحرب الاولى «٦» وتعتبر عملية تكرير البترول في الوقت الحاضر من العمليات الصناعية للصناعة التحويلية بكل معنى الكلمة.
وقد كان هذا التقدم التكنولوجي سببا في زيادة استهلاك منتجات البترول بسبب التطور الاقتصادي خاصة منذ ان بدأت الصناعة في العراق عام ١٩٣٠ وكانت من نتيجة ذلك كله ان حدثت تغييرات رئيسة في العوامل الاقتصادية المؤثرة في مواقع مصافي البترول. فتحررت المصافي من مصادر المادة الخام.
ولم يكن هذا مؤثرا على معامل التكرير وحدها. بل اثر حتى على تصنيع البلاد. لقد بنى خطان جديدان لنقل النفط الخام: الاول في سنة ١٩٥٥ من محطة الضخ K3 بيجي الى مصفى الدورة: والثاني عام ١٩٦٣ من حقول النفط خانة الى المصفى المذكور - «الشكل ٤».

وقد تم انشاء مصفى بغداد هذا . عند اكبر مناطق السوق الاستهلاكية في البلاد. ويمكن اعتبار مصفى المفتية «البصرة» من هذا النوع رغم وقوعه بالقرب من حقول نفط الزبير. حيث كان الهدف من انشائه في اوائل الخمسينيات لسد حاجة السوق في جنوب العراق بعد توقف مصفى عبدان الايراني اثر تأميم البترول في ايران.

ورغم ان المصافي المتوطنة في السوق بالعراق. استطاعت ان تغطي تكاليف نقل النفط الخام بواسطة تعدد منتجاتها وسهولة توزيعها وايصالها للمستهلكين باقل تكلفة. فانها قد فرضت على المستهلكين اسعارا اضافية على المنتجات رغم

(5) Manners, G., "The Geography of Energy," London 1964, p. 183.
(6) Encyclopedia Britannica, "OP. Cit.," p. 763.

انها لم تتحمل اية زيادة في تكاليف الانتاج بسبب بعدها عن المادة الخام.

وفي نفس الوقت فان عاملا تكنولوجيا اخر عمل بقوة على زيادة انتاج مصافي السوق، وهو عامل الانتاج على نطاق واسع وازداد الاستهلاك نتيجة لبدء عمليات التصنيع في العراق. وهذا يعني ان حجم السوق لمنطقة بغداد قد اتسع الى درجة يستطيع معها ان يصرف كل انتاج مصفى الدورة تصريفا كاملا وبتكلفة اقتصادية معقولة «١» .

وقد وجد ان نقل المنتجات النفطية الى اسواق الموصل في الشمال وسد حاجة اسواق البصرة في الجنوب يكلف من ناحية اقتصادية خاصة بعد تنفيذ مشروعات الخطة الخمسية، وقد وضعت التصاميم لانشاء مصفين كبيرين فيهما. وهما يتمتعان بمواقع استراتيجية لتزويد هذه المناطق بحاجتها من الوقود، خلال البدء في عمليات الأنتاج . فالاعتبارات الاستراتيجية من المميزات القومية التي يجب ان يحسب لها الحساب عند تحديد «واقع المصافي «٢».

والخلاصة: ان كافة منتجات معامل التكرير اصبحت ملائمة للاستهلاك.

وانقلبت المساوئ لمواقع المصافي بجانب الاسواق الاستهلاكية الى محاسن. وكان ذلك نتيجة التقدم التكنولوجي. وعلى هذا الأساس يمكن تحديد الضوابط المؤثرة في توطن المصافي بمناطق السوق على الوجه الاتي :-

١- من الاسهل جلب مادة واحدة وتحويلها الى مائة منتوج على اختلاف الانواع للتوزيع والاستهلاك من الحقول بدلا من جلب انواع متعددة من المنتجات من المصافي الى السوق «٣».

---

(١) للدلالة على اهمية حجم السوق والانتاج الواسع نذكر هنا ما اورده الاستاذ جير الدمانوس: اذا كانت تكلفة راس المال للطن الواحد من المنتجات البترولية لمصفى طاقته ٥ ملايين طن سنويا هي ١٠٠ ، فان المصفى الذي تكون طاقته ٣ ملايين طن هي ١٢٣ ، والذي طاقته مليون واحد هي ١٩٠.

Manners, G., "Op. Cit.," p. 185.

(2) Odell, R.P., "Op. Cit.," pp. 112-113.

(3) Zimmermann, E., "World Resources and Industries," Revised Edition, New york 1950, pp. 514-515.

٢- ان المصافي التي تقام في السوق تستطيع ان تحصل على نفطها الخام من عدة حقول . بينما المصافي المتجهة نحو المادة الخام او الانتاج كما تسمى: Production-Oriented Refinery تعتمد على ناتج حقل او منطقة واحدة.

٣- الحجم العظيم- من الارخص شحن حجم صغير من النفط الخام بدلا من شحن الحجم الاكبر المتجمع للمنتجات المختلفة .

٤- وسائط نقل النفط الخام: اكثر بساطة واقل كلفة بعكس وسائط نقل المنتجات.

٥- تفقد منتجات البترول بالتبخر من اوزانها اكثر مما يفقده النفط الخام «١».

وهكذا نجد ان التحسينات التكنولوجية اثرت على نماذج التوطن من خلال التغيرات في عمليات تصنيع المادة الخام وكلفة النقل والطاقة ومتطلبات العمل «٢» .

فالموقع المثالي لمعامل التكرير يتحدد عندما تصل كلفة الحصول على النفط الخام من مصادره الى المصفى . ومن ثم منتجات التكرير الى اسواق الاستهلاك الى حدها الادنى. مع الاخذ بنظر الاعتبار العامل السياسي الذي يبلغ تاثيره على نماذج توطن المصافي درجة كبيرة والذي يمكن ان يغير جغرافية التكرير «٣» .

مقومات الموضع Site-Facilities

المكان :

ان مصفى تكرير البترول يتطلب مساحة واسعة من الارض خاصة بالنسبة

(1). Alexander, W.J., "Economic Geography," New Jersey, 1963, PP. 346-347

(2). Hoover, M.E., "The Location of Economic Activity, New york 1948, P. 184

(3). Manners, G., "Op. Cit.," PP. 183-193.

لاحواض الخزن «٤» اذ تتطلب احواض الخزن مساحات معقولة فاصغر المصافي يتطلب اكثر من ١٠٠ فدان «ايكر» واكبرها غالبا ما يحتاج لاكثر من ١٠٠٠ فدان، لذا فوفرة الاراضي الاحتياطية يجب ان توخذ بنظر الاعتبار عند اختيار موقع المصفى. كما يوخذ بعين الاهمية ايضا ارض المصفى من حيث الانحدار. فالخزانات يجب ان تكون بمستوى مرتفع حتى تنساب المنتجات الى مناطق التصفية «٥» وهذه الصفة -الاراضي الواسعة- قد عملت على توطين مصافي النفط في العراق بعيدا عن المناطق المسكونة. حتى تكون بعيدا عن المنافسة مع اوجه الاستغلالات الاخرى للحصول على الارض ولكي تحصل على الارض باسعار منخفضة.

فمصفى الدورة يقع على بعد ١٧ كم جنوب غربي مدينة بغداد ويشغل مساحة ٨٠٠ دونم تقريبا «٦» اضافة الى الاراضي الفسيحة المجاورة التي استملكها المصفى حاليا لمجابهة احتمالات التوسع في المستقبل. وهي تقع على المدخل الجنوبي لمدينة بغداد، في حين ان نمو المدينة في اتجاه الشمال والشرق. وينطبق هذا على مصافي حديثة والقيارة والمفتية والوند. اما مصفى كركوك فانه يقع في الجهة الشمالية لمدينة كركوك بالقرب من محطة الضخ ووسط منشآت نفط العراق لذا فمن الصعب عليه الحصول على الاراضي لتوسيع المصفى في المستقبل.

ان الخوف من نشوب الحرائق هو من الضوابط الاخرى التي تلعب دوراً هاماً في توطن المصافي بعيدا عن المناطق المسكونة. فيجب اعادة توطين مصفى كركوك بعيدا عن محطة الضخ حيث الاراضي الفسيحة المجاورة له. ولتقليل خطر اندلاع النيران في المنطقة مما قد يتسبب في تدميرها.

---

(4). Alexander, W.J., "Op. Cit.," PP. 345-346.
(5). Miller, E.W. "Op. Cit.," PP. 409.

(٦) الدونم يساوي ٢٥٠٠ م٢

ويقع مصفى الوند وكركوك وقيارة في المنطقة المتموجه حيث البنية الجيولوجية القوية للصخور الكلسية والتي جعلت اراضي المصفى اكثر تحملا للضغوط العالية والانشاءات الثقيلة. اما مصفى حديثة وبغداد والمفتية فيقع الاول في قلب الهضبة الغربية. والثاني في مقدمة السهل الرسوبي . والثالث في الاطراف الجنوبية لهذا السهل .

فالتركيب الجيولوجي لاراضي هذا المصفى اقل صلابة من اراضي المصافي الاخرى ، وبالاخص ارض مصفى المفتية التي وقفت حائلا دون امكانية تطوير معداته الحالية واستبدالها باخرى حديثة . تتمتع بطاقات اكبر .

هذا ولكل من مصفى بغداد والمفتية والوند والقياره . محطات لتوليد الطاقة الكهربائية الخاصة بكل منها اما مصافي كركوك وحديثة فتعتمد على المحطات الخاصة لتوليد الكهرباء العائده الى شركة نفط العراق .

المياه :—

تقع المصافي العراقية الستة على طول مجاري المياه العذبة . فمصفى بغداد قد توطن على الضفة الغربية لنهر دجلة . عند احدى انشاءات هذا النهر الرئيسية تاركة موضع المصفى كشبه جزيرة على النهر المذكور .

وقد توطن مصفى الوند على الضفة الجنوبية لنهر «الوند» . احد فروع نهر ديالى ، أما مصفى المفتيه فقد اقيم عند ضفة نهر «شط العرب» الجنوبية. وبالنسبة لمصفى حديثه فانه يقع على «نهر الفرات». ومصفى القياره يقع على ضفة نهر «دجلة» الغربية . اما مصفى كركوك فيقع على احد فروع نهر «العظيم» المعروف بنهر «الخاصه». ولكن ونتيجة لانخفاض منسوب المياه فيه صيفا وتقطع جريانه فقد انشئت ترعه توصل مياه الزاب الصغير الى مدينة كركوك . وتعرف بترعه «زاغوتين» .

وتعتبر هذه الظاهرة لمواقع معامل التكرير ظاهرة طبيعيه. اذا ما علمنا ان هذه الصناعه تتطلب كميات كبيرة من المياه. وفي الحقيقة لتصفية لتر واحد

من النفط الخام نحتاج الى ١٨ لتر من الماء العذب «١». لذا فان امكانية الحصول على المياه العذبة لتلبية حاجة المصفى بصورة منتظمة ومستمرة وبكميات كبيرة. تعتبر احدى الضوابط الجغرافية الحاسمة التي تشجع المصافي لتبقى في مواضعها الحالية .«٢»

تصريف فضلات عمليات التكرير :—

من اكثر المشاكل صعوبة في اختيار موضع المصفى ايجاد منافذ لتصريف فضلات او بقايا عمليات التكرير التي غالبا ما تحتوى على مواد كيمياويه وبقايا من الزيت الخام Refuse Oil .

والحقيقة ان كافة مصافي العراق تفتقر لوجود مصارف خاصة بها. فهي بحكم توطنها على مجارى الانهار تقوم، بتصريف بقاياها الى الانهار. وذلك بعد ان شق كل مصفى قناة له خصصت لهذا الغرض وتجرى هذه العملية عادة في فترة ارتفاع منسوب المياه.

وعلى كل حال فان هذه الطريقة ستلحق ولو بالأجل الطويل – اثار سلبيه بموارد الثروه السمكية وبصلاحية المياه لاستعمالات سكان المدن التي تقع الى الجنوب على طول مجارى الانهاره

ففي معظم دول العالم المتقدم تفرض على معامل التكرير بناء حفر واسعة

١— United Nations, "Water For Industrial Use", New York 1958' P. 24

في السويد مثلا يحتاج الطن الواحد من النفط الخام لتكريره ١٠,٠٠٠ لتر من الماء

٢— ان المصفى الذي طاقته ٢٥,٠٠٠ برميل يوميا تقدر حاجته للمياه العذبه بحوالي ١٥–٢٠ مليون غالون يوميا ، وهذا اكثر من جريان مياه مجرى صغير وتختلف كمية المياه التي يحتاجها المصفى باختلاف نموذج المصفى والظروف المناخيه لمنطقة المياه .

Miller E.W. "Op. Cit.," PP. 409–410.

«خنادق» لتصريف فضلاتها بجوار ارض المصفى «١».

واخيرا، فان للرياح السائدة في العراق اثرا في مواقع هذه المصافي. فهي تقوم بنقل الروائح الكريهة والغازات الى المناطق السكنية، فهناك نوعان من الرياح السائده، هما :

١- الرياح الشماليه الغربيه ٢- والرياح الجنوبيه الشرقيه. فمصافي بغداد والمفتيه وحديثه والقياره تتمتع بموقع ممتاز بالنسبة لهذا العامل. اما مصافي ديالى وكركوك فتقع في مهب الرياح الشمالية الغربية معظم ايام السنه وما ينطوى على ذلك من اثار سلبيه في جو المناطق المجاورة، فضلا عن الاضرار التي تلحق الابراج العاليه لمعامل التكرير نتيجه للترسبات Sulphur وبالتالي اضافة تكلفة صيانتها المستمرة الى تكلفة الانتاج بهذين المعملين وفي النهاية زيادة اختلاف التوازن بين اسواق معامل التكرير في البلاد.

---

(1) Ibid, p. 410.

أعلام الصوفية في خراسان

في القرنين الثاني والثالث الهجري

الدكتور مفيد محمد نوري

ظهرت حركة الزهد في الاسلام حيث ان محمدا «ص» واتباعه الاولين كانوا يقومون الليل كله او بعضه تهجدا وعبادة . وقد وضع الاسلام لاتباعه حدوداً وشروطا تمت بصلة الى الزهد كالصوم والصلاة والحج والزكاة وتحريم الخمر . ولكنه ،في الوقت نفسه ،لم يحرم الاسلام على اتباعه التمتع بزينة الله التي اخرجها لعباده من الطيبات: قال تعالى: « قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق. قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامه. كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » «١». ومع ذلك، تحدثنا المصادر بأن فئة من المسلمين الاوائل قد سلكوا طريق الزهد وهم اهل « الصفه » وكان هؤلاء من اصحاب رسول الله. لا منازل لهم، فكانوا يأوون الى صفة بناها الرسول خارج المسجد بالمدينه. «٢» وقد انفرد القرن الاول في الاسلام بالعوامل الكثيرة التي شجعت على ظهور الزهد. والدين الاسلامي كان المشجع الاساس لهذه الحركة. قال تعالى: « يا ايها الذين امنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم؟ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله باموالكم وانفسكم. ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون »

---

(١) الاعراف ، آية ٣٢ .

(٢) ابن سعد ، ابو عبدالله محمد ، الطبقات الكبرى ، بيروت ١٩٦٠؛ ج ١ص ٢٥٥ ، انظر بالتفصيل : الاصبهاني ، ابو نعيم ، حلية الاولياء،بيروت ١٩٦٧،ص ٣٣٧ الى ص ٣٨٥ .

«٣» وقال: « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله، والله رؤوف بالعباد » «٤». وفي الوقت الذي احتضن الاسلام حركة الزهد على اعتبارها حركة دينية من صميم تعاليم الاسلام الروحية وقف بشدة ضد الرهبانية التي هي بدعة ابتدعتها المسيحية، قال تعالى: « ... ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ... » «٥» وقال الرسول «ص» مؤكداً على ما جاء في القرآن: « لا رهبانية في الاسلام » «٦».

ونمت حركة الزهد في ظروف سياسية شاذة في القرن الاول الهجرى فالحروب الاهلية الطويلة الامد في عهد الصحابة وبني امية والتطرف العنيف الذي اتسمت به الاحزاب السياسية وما عانى المسلمون ممن اخلصوا في اسلامهم من قبل بعض الحكام المستبدين، أدى بطبيعة الحال. الى ازدياد شعور المؤمنين بالزهد في الحياة الدنيا ومتاعها ووضعوا امالهم في الاخرة ووجدوا في القرآن والسنة خير موجه في حياتهم الزهدية. ووقفوا موقف اللامبالاة تجاه الحكام آنذاك.

ولكن حركة الزهد اصبحت بالتدريج قوية وعنيفة وانتشرت في جميع بقاع المسلمين فبعد ان كانت حركة الزهد دينية خالصة في بادىء الامر دخلت اليها بعض العناصر الصوفية وتحولت في النهاية الى اقدم صورة نعرفها في التصوف الاسلامي في القرن الثالث الهجرى وما يليه ولعب الزهاد

---

(٣) الصف ، آية ١٠ وآية ١١ .

(٤) البقرة آية ٢٠٧ .

(٥) الحديد ، آية ٢٧ ، انظر كذلك : التوبة ، آية ٣١ ؛ المائدة ، آية ٣٢ ، النور الآيات ٣٦، ٣٧: ٣٨ .

(٦) الشوكاني ، محمد بن علي : نيل الاوطار ، شرح منتقى الاخبار من احاديث سيد الاخيار ، القاهرة ١٩٥٢ ، ج ٦ ، ص ١١١ : وفيه ان هذا الحديث لم يذكر بهذا اللفظ عند الطبراني « ان الله ابدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة » ، انظر كذلك : طبارة ، عفيف عبدالفتاح روح الدين الاسلامي ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ١٤٣ .

الخراسانيون الدور الرئيسي في نمو هذه الحركة «٧» .

وكان القائمون على حركة الزهد في خراسان من اشهر اتقياء المسلمين على المذهب الحنفي. ونالت الحركة العطف الشديد من قبل الحكام وانعموا على بعض هؤلاء الاتقياء بالوظائف الادارية والدينية كرئاسة المدن والقضاء والخطبة «٨». وزهد البعض الاخر بهذه الوظائف كما زهدوا بالحياة الدنيا ومتاعها ، وحولوا انظارهم نحو الآخرة ووضعوا آمالهم فيها.

فبرز من الزهاد في خراسان في القرن الثاني الهجرى اعلام اثروا على حركة الزهد وكان من ابرزهم: ابراهيم بن ادهم البلخي وعبد الله بن المبارك.

اما ابراهيم بن ادهم فهو من مدينة بلخ في خراسان وقيل عنه: انه كان اميراً «حاكماً» في بلخ. ولكنه زهد في الحكم ولبس الصوف وهام على وجهه في بلاد الشام. يعيش من كسب يده من حراسة البساتين وغير ذلك، ودخل البادية ثم دخل مكة وصحب الفقيه سفيان الثوري «ت ١٦١هـ-٧٧٧م» والفضيل بن عياض «ت ١٨٧هـ/٨٠٣م» ودخل الشام ثانية ومات بها سنة

(٧) نيكلسون ، في التصوف الاسلامي وتاريخه ، ترجمة ابي العلا عفيفي ، القاهرة ١٩٥٦ ؛ ص ٤٣ وما يليها : البير نادر ، التصوف الاسلامي، بيروت ١٩٦٠ ، ص٩ : وحول الزهد والتصوف وتطوره انظر : نيكلسون ، الصوفية في الاسلام ، ترجمة نورالدين شريبة ؛ القاهرة ١٩٥١ ؛ وانظر كذلك :

Massignon,L., Essai sur les origines du lexique technique de la Mystique Muslumane, (Paris 1922 : Amedroz, H.F., Notes on some Sufi lives, Journal of the Royal Asiatic Society (1912) p.p. 551-86: Ency. of Religion and Ethics, Edinburgh, (1963 and 1964) articals "Asceticim," "Sufis".

(٨) Nouri, M.M., The Scholars of Nishapur, Theisis, Ph.D. (Edinburgh 1967) vols., 11, p.p. 631-36.

١٦٢هـ/٧٧٨م «٩» . ويعتقد نيكلسون Nicholson بان للغنوصية المسيحية اثرا على التصوف الإسلامي عن طريق ابراهيم بن ادهم «١٠».

ولقد اشار ابراهيم بن ادهم الى العقبات الست التي لا ينال السالك درجة الصالحين حتى يجتازها والتي تشبه بالابواب السبعة عند الغنوصية والعقبات الست التي ذكرها هي:

اولاها: تغلق باب النعمة ،وتفتح باب الشدة .

والثانية: تغلق باب العز ،وتفتح باب الذل .

والثالثة: تغلق باب الراحة ،وتفتح باب الجهد .

والرابعة: تغلق باب النوم ،وتفتح باب السهر .

والخامسة: تغلق باب الغنى ،وتفتح باب الفقر .

والسادسة: تغلق باب الامل ،وتفتح باب الاستعداد للموت . «١١»

اما الابواب السبعة عند الغنوصية فملخصها انها لا تفتح للنفس – وهي سائرة في طريقها الى الخلاص – الا اذا حصلت «المعرفة» او العلم الباطن. واجتازت الحراس القائمين على هذه الابواب واحدا واحدا . واذا تم ذلك ينال السالك درجة الصالحين . ويعتقد نيكلسون ان المذهب الغنوصي اصابه بعض التغيير على ايدى مفكرى المسيحية واليهودية . وبعد امتزاجه بالفكر اليوناني اصبح مصدر الهام لمفكرى التصوف الاسلامي . واكد نيكلسون اننا لو درسنا الظروف التاريخية التي احاطت بنشأة التصوف الاسلامي

---

(٩) السلمي ، ابو عبدالرحمن ، طبقات الصوفية ؛ ليدن ١٩٦ ، ص ٣٠ : الشعراني ، عبدالوهاب ؛ الطبقات الكبرى المسماة بلواقح الانوار في طبقات الاخيار ؛ القاهرة ١٨٩٨ ج١ ؛ ص ٦٩ .
القشيري ، ابو القاسم ، الرسالة القشيرية ؛ تحقيق الدكتور عبدالحليم محمود ومحمود بن الشريف ؛ ج ١ من ص ٥١ الى ص ٥٣ .

(١٠) نيكلسون ، التصوف الاسلامي ؛ ص ١٧ ومايليها .

(١١) القشيري ج١ ؛ ص٥٣ .

لاستحال علينا ان نرد اصله الى عامل فارسي او هندى «١٢» . ولا ريب اننا لا يمكننا ان نأخذ برأى نيكلسون على علاته من دون الاشارة الى ان التصوف في الاسلام نشأ نتيجة لحركة الزهد المجردة والبعيدة عن الافكار الغريبة عن الاسلام . واذا كانت بعض افكار مريدى الصوفية مطابقة او متطورة عن الفكر المسيحي فهذا ليس بدليل قاطع ان نرد نشأة التصوف الاسلامي وتطوره الى الفكر المسيحي وخاصة اذا اخذنا بنظر الاعتبار ان للديانات السماوية اصولا متشابهة .

ويرى بعض المستشرقين من امثال بوزورث Bosworth وجولد زيهر Goldziher انالتصوف في الشرق الاسلامي قد تأثر بتعاليم بوذا. ويعتقد «١٣» جولد زيهر ان الزاهد الصوفي ابن ادهم يبدو في الرواية الاسلامية اميرا لبلخ ثم تخلى عن عرشه واضحى درويشا متنقلا وما ذلك الاتكرار لقصة بوذا الا أن هذه المطابقة في حياة بوذا وحياة الزهاد المسلمين لا يمكن ان تكون الدليل القاطع على تأثير البوذية في الحركة الصوفية لدى المسلمين. وبالرغم من ان البوذية قد سادت خراسان قبل الفتح الاسلامي بألف عام كما سادت في فارس الشرقية عموما. فان العامة من المسلمين ينظرون الى اتباع بوذا كمشركين ووثنيين . فليس من قريب ولا من المحتمل ان يتأثر المسلمون بتعاليمهم البوذية «١٤».

اضف الى ذلك ان هناك خلافا اصيلا بين الصوفي والبوذي، فهما في روحيهمامتعارضان البوذي يقوم نفسه بنفسه، اما الصوفي فيقوم نفسه بمعرفة

---

(١٢) نيكلسون : في التصوف الاسلامي : ص١٨ .

(١٣) Bosworth, C.E., The Ghaznavids 994-1040. Edinburgh 1963, P189.

لم يشرح بوزورث سبب اعتقاده بان الصوفية في الاسلام قد تأثرت بالبوذية .

انظر كذلك ، جولد زيهر كما ذكره نيكلسون في كتابه الصوفيةفي الاسلام ص ٢١ ومايليها.

(١٤) نفس المصدر ، ص ٢٣ ومايليها .

ربه وحبه «١٥».

وبرز ايضا، في القرن الثاني الهجري في خراسان العلامة الرباني الزاهد عبد الله بن المبارك، كان تركيا ومولى لقبيلة حنظلة العربية. ولقد تجول في مدن خراسان ثم ذهب الى بغداد حيث صاحب علماء الصوفية وعقد المجالس معهم ثم حج واستقر في مكة مدة حيث درس موطأ مالك بن انس ثم رجع الى مرو في خراسان وعقد له مجلس الحديث هناك. وكان العلماء في مرو منقسمين الى قسمين: قسم يتبع اصحاب الحديث والقسم الاخر يتبع مذهب ابي حنيفة الأأن ابن المباركتمكن من الجمع بينهما في مجلسهوبنى لكلا الفريقين رباطاً ثم ذهب الى مكة وحج ثانية وانضم بعد ذلك مع المجاهدين لمحاربة الروم في طرسوس وعندرجوعه من الجهاد توفي في مدينة هيت عام ١٨١هـ/ ٧٩٧م«١٦».

يعتبر ابن المبارك من أوائل الكتاب في الزهد والفقه وعلوم القرآن والحديث. جمع الاحاديث في كتابين احدهما سماه «الاربعين» والاخر «سنن الفقه». ولقد درس هذين الكتابين المحدث المشهور صاحب «الصحيح» البخاري «ت ٢٥٦هـ / ٨٧٠م» .وكذلك الف كتابا في تفسير القرآن وآخر في قتال المشركين

(١٥) نفس المصدر ؛ ص ٢٢ : قارن البير نصري نادر ؛ التصوف الاسلامي ؛ من ص٤٤ الى ص ٤٧ .

(١٦) الشعراني ، ج١ ص ٥٩ ومايليها : ابن العماد ؛ ابو الفلاح عبدالحي الحنبلي ، شذرات الذهب في اخبار من ذهب . القاهرة ١٩٣١ ، ج ١ص٢٩٥ ومايليها : ابن خلكان : شمس الدين احمد ، وفيات الاعيان ، القاهرة ١٨٩٢ ، ج١ ص ٣١١: ابن الجزري شمس الدين ابو الخير محمد ؛ طبقات القراء ،القاهرة ١٩٣٣ ، ج١ص ٤٦٦ : الاصبهاني : ج٨ من ص ١٩٠ الى ص١٩٢ : الخطيب البغدادي ، ابوبكر احمد،تاريخ بغداد، القاهرة ١٩٣١ ، ج١ من ص ١٥٨ الى ص ١٦٢ ؛ انظر كذلك :

Hujwiri, Abu'l-Hasan 'Ali, Kashf al-Mahjub, tr. Nicholson, R.A., (E.J.W. Gibb memorial series), London 1959, p.p. 95-97: Nouri op. cit., vol. I, FI. p.p., 101-103.

سماه «الجهاد». وقيل: ان اشهر كتبه هو ما كتبه في الزهد وسماه «الزهد والرقائق» الا ان مؤلفاته - عدا كتاب الزهد والرقائق والجهاد - لاتزال مفقودة «١٧».

ويمكننا ان نعتبر ابن المبارك من اوائل الصوفية في خراسان ممن اتصلوا بالطائفة المسيحية في مرو. وقيل: انه تعلم الصوفية على يد راهب مسيحي «١٨» الا ان المصادر التاريخية تجمع على انه تمكن من ادخال الكثير من المسيحيين في الدين الاسلامي. ومن اشهر الذين دخلوا الاسلام على يد ابن المبارك هو ابو علي الماسرجسي الذى اصبح احد علماء الحديث في مرو «١٩». وبالرغم من ان اكثر علماء الصوفية تأثروا بافكار المرجئة وخاصة هؤلاء الذين على المذهب الحنفي فان ابن المبارك رفض جميع الافكار الغريبة عن الصوفية وخاصة افكار المرجئة وقال بهذا الصدد: «انا خالفت المرجئة في ثلاثة اشياء فانهم يزعمون الايمان قولا بلا عمل وانا اقول هو قول وعمل. ويزعمون أن تارك الصلاة لا يكفر وانا اقول: انه يكفر. ويزعمون ان الايمان لا يزيد ولا ينقص وانا اقول: انه يزيد وينقص» «٢٠». ويكتب لنا القشيري في رسالته بعض الاقوال في تعاليم الصوفية العائدة الى ابن المبارك: ففي باب الخشوع والتواضع يقول ابن المبارك: «التكبر على الاغنياء والتواضع للفقراء من التواضع» «٢١» ويقول في باب الحسد: «الحمد لله الذى لم يجعل في قلب اميرى ما يجعله في قلب حاسدى» «٢٢». وفي باب الغيبة

---

(١٧) حجي خليفة مصطفى [illegible] جلبي، كشف الظنون، اسطنبول ١٩٤١-١٩٤٣، ج١ ص٥٧ ج٢ ص ٩١٠، ص ١٤١٠ وص ١٤٢٢؛ ابن النديم ابو الفرج محمد الوراق، الفهرست. القاهرة ١٣٤٨ هـ/ ١٩٣٠م، ص ٣١٩.

(١٨) Hujwiri. P. 96

(١٩) ابن خلكان، ج ١ ص٤٨١؛ الخطيب البغدادي، ج٧ ص ٣٥٢.

(٢٠) الشعراني، ج١، ص٦٠.

(٢١) القشيري، ج١ ص ٣٤٣.

(٢٢) نفس المصدر، ج١ ص ٣٥٦.

يقول: «لو كنت مغتابا لاحد لاغتبت والدى .لانهم االحق بحسناتي » « ٢٣ ». وفي باب التوكل يقول: « من اخذ فلسا من حرام فليس بمتوكل» « ٢٤ ». وفي باب الجود والسخاء يقول: « سخاء النفس عما في ايدى الناس افضل من سخاء النفس بالبذل « ٢٥ ». وفي باب الفقر يقول: «اظهار الغنى في الفقر احسن من الفقر » « ٢٦ ». وفي باب الادب يقول: « الادب للعارف كالتوبة للمستأنف » «٢٧ ». وقال في باب المحبة: « من اعطى شيئا من المحبة ولم يعط مثله من الخشية فهو مخدوع » « ٢٨ ».

وكان من ابرز شيوخ الصوفية في خراسان الذين تأثروا بالمرجئة ونشروا مذهب الصوفية هو يحيى بن معاذ الرازى عاش في القرن الثالث الهجرى .وهو عالم من الرى ويعتبره ابن العماد حكيم زمانه وواعظ عصره « ٢٩ ». تكلم في علم الرجال فاحسن الكلام فيه .وقيل: انه اول من حاضر في التصوف علانية على الناس بعد ان كانت تعاليم الصوفية تعلم في حلقات سرية في بيوت خاصة او في السراديب . ولقد درس يحيى الرازى التصوف في بلخ حيث مكث فيها مدة وصاحب ابن كرام في نيسابور واخذ عنه التصوف وذهب الى بغداد .وفي هذه المدينة اتصل بحلقات الصوفية .ثم عاد الى

---

(٢٣) نفس المصدر ، ج١ ص ٢٥٩ .

(٢٤) نفس المصدر ، ج١ ص ٣٨٠ .

(٢٥) نفس المصدر ، ج٢ ص ٥١١ .

(٢٦) نفس المصدر ج٢ ص ٥٤٢ .

(٢٧) نفس المصدر ، ج٢ ص ٥٦١ : المستأنف في مبتدىء .

(٢٨) نفس المصدر ج٢ ص ٦٢١ .

(٢٩) ابن العماد ، ج٢ ص ١٣٨ .

نيسابور ومات في ٢٨٩هـ ٨٧١م « ٣٠ ».

كان يحيى الرازي من المتصوفة الذين يعتبرون من اولياء المسلمين واصحاب الكرامات . قال عنه الحصري: « لله يحيان: احدهما نبي .والاخر ولي . والولي هو يحيى بن معاذ » « ٣١ » ووصفه القشيري بأنه: «نسيج وحده في دقته .له لسان في الرجاء خصوصا وكلام في المعرفة » ٣٢ ». تكلم كثيرا في الزهد ومن اقواله: « التائب يبكيه ذنبه . والزاهد يبكيه غربته. والصديق يبكيه خوف زوال الايمان » « ٣٣ ». وقال: « الدنيا بحر التلف والنجاة منها الزهد » « ٣٤ » وقال ايضا : « جوع التوابين تجربة .وجوع الزاهدين سياسة وجوع الصديقين تكرمة » « ٣٥ ». وعرف الزهد بأنه ثلاثة اشياء: القلة .والخلوة. والجوع « ٣٦ ».

لقد كتب القشيري اقوال يحيى الرازي في ابواب عديدة .فمنها قوله في التوبة: :: « يا الهي لا اقول تبت .ولا اعود لما اعرف من خلقي. ولا اضمن ترك الذنوب لما اعرف من ضعفي .ثم اني اقول: لا اعود لعلي

(٣٠) الاصفهاني ، ج١٠ ص ٥١ ، الهجويري ص ٩٨ ، ابن الجوزي ، ج٢ ص ٢٢ وما بعدها الخطيب البغدادي ، ج١٤ من ص ١٠٨ الى ٢١٢ : الشعراني ، ج١ ص ٨١ : المناوي عبدالرؤوف بن تاج الدين . الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية ، القاهرة ١٩٣٨ ، ج١ ص ٢٧٢ وما بعدها : بعض اقواله قد ترجم الى الانكليزية من قبل Smith M., Readings form mystics of Islam, London, 1950, P. 25.
والفرنسية من قبل Massignon, op. cit., P.P. 238-42

(٣١) الحصري كما ذكره الهجويري : Hujwiri, P. 122

(٣٢) القشيري ، ج ١ ص ٩١ .

(٣٣) الاصبهاني ، ج ١٠ ص ٥٥ .

(٣٤) نفس المصدر ، ج ١٠ ص ٥٦ .

(٣٥) القشيري : ج١ ص ٩١ .

(٣٦) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

ان اموت قبل ان اعود » « ٣٧ ». وقال في الخلوة والعزلة: « انسك بالخلوة . او انسك معه في الخلوة . فان كان انسك بالخلوة ذهب انسك اذا خرجت منها . وان كان انسك به في الخلوة استوت لك الاماكن في الصحارى والبرارى » « ٣٨ » وقال في الورع : «الورع : الوقوف على حد العلم من غير تأويل » «٣٩ » . وقال في الزهد: « الزهد يورث السخاء بالملك والحب يورث السخاء بالروح » « ٤٠ ».

وقال في الخوف : « مسكين ابن آدم . لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لدخل الجنة » وقال في الرجاء: « الهي . احلى العطايا في قلبي رجاؤك . واعذب الكلام على لساني ثناؤك . واحب الساعات الي ساعة يكون فيها لقاؤك » « ٤١ » وقال في الجوع وترك الشهوة: « او ان الجوع يباع في السوق لما كان ينبغي لطلاب الاخرة اذا دخلوا السوق ان يشتروا غيره» « ٤٢ ».

وقال في الخشوع والتواضع: « التواضع حسن في كل احد. لكنه في الاغنياء احسن . والتكبر سمج في كل احد لكنه في الفقراء اسمج » « ٤٣ » وقال في الصبر : صبر المحبين اشد من صبر الزاهدين. واعجبا. كيف يصبرون؟ وانشدوا:

الصبر يحمد في المواطن كلها　　　الاعليك فانه لا يحمد « ٤٤ »

---

(٣٧) نفس المصدر ، ج١ ص ٢٦٠ .
(٣٨) نفس المصدر ، ج١ ص ٢٧٣ .
(٣٩) نفس المصدر ، ج١ ص٢٨٥ .
(٤٠) نفس المصدر ، ج١ص٢٩٤ .
(٤١) نفس المصدر ، ج١ص٣٠٩ وص٣٢٠
(٤٢) نفس المصدر ج١ص٣٣٢ .
(٤٣) نفس المصدر،ج١ص٣٤٣ .
(٤٤) نفس المصدر،ج١ص٣٩٩

وقال في الارادة: «اشد شيء على المريدين: معاشرة الأضداد» «٤٥» وقال في الحياء: «من استحيا من الله مطيعا استحيا الله تعالى منه وهو مذنب» «٤٦» وقال في الحرية: «ابناء الدنيا تخدمهم الاماء والعبيد وابناء الاخرى تخدمهم الاحرار والابرار» «٤٧». وقال في صفة الاولياء: «هم عباد تسربلوا بالانس بالله تعالى بعد المكابدة. واعتنقوا الروح بعد المجاهدة. بوصولهم الى مقام الولاية» «٤٨». وقال في الادب: «اذا ترك العارف ادبه مع معروفه «٤٩». فقد هلك مع الهالكين» «٥٠». وقال في المحبة: «حقيقة المحبة ما لا ينقص بالجفاء. ولا يزيد بالبر. وقال: ليس لصادق من ادعى محبته ولم يحفظ حدوده» «٥١» واخيراً قال في الشوق: «علامة الشوق: فطام الجوارح عن الشهوات» «٥٢».

وظهر. في اواخر القرن الثالث الهجري. العلامة الفيلسوف المتصوف الحاكم ابو عبد الله محمد بن علي الترمذي. من ابناء مدينة ترمذ. اتهم بالبدعة فطرد من ترمذ وذهب الى بلخ حيث صاحب المتصوفة ابا تراب النخشبي وابن خضروية وابن الجلاء وغيرهم. ثم ذهب الى نيسابور عام ٢٨٢هـ/٨٩٥م حيث روى الحديث هناك وتوفي عام ٢٨٥هـ/٨٩٨م. ولقدترك الحاكم الترمذي اثراً كبيراً على ابناء بلدته من المتصوفة حيث قيل: ان فرقة من الصوفية نشأت هناك بعد وفاته واطلقت عليها اسم «الحاكمية». والحاكم الترمذي يعتبر من

---

(٤٥) نفس المصدر، ج٢ص٥٣٧ .
(٤٦) نفس المصدر، ج٢ص٥٥٨ .
(٤٧) نفس المصدر، ج٢ص٥٦٣ .
(٤٨) نفس المصدر، ج٢ص٥٢٢ .
(٤٩) اي مع الله .
(٥٠) نفس المصدر، ج٢ص٥٦٠ .
(٥١) نفس المصدر، ج٢ص٦١٦ .
(٥٢) نفس المصدر، ج٢ص٦١٧ .

اكابر الكتاب الذين لهم باع كبير في علوم التصوف والكلام والفلسفة. كما انه كان يعتبر من المتضلعين في الفقه الحنفي . وقيل: انه درس الفقه على ابي حنيفة « ٥٣ ». ولقد تناول ماسنيون Massignon مؤلفات الترمذي واعتبره اول صوفي مسلم يمكننا من خلال مؤلفاته ان نرى تأثير الفلسفة الهيلينية Hellenistic Philosophy

كما اشار الى انه في كتابه «نوادر الاصول» و «ختم الولاية» يحاول الاعتماد على المصادر السنية في الصوفية وبطريقته العلمية المجردة والتي قد طورت من بعده من قبل الشيعة المتطرفين «الاسماعيلية». وفي كتبه: «علل العبودية» و «شرح الصلاة» و «الحج واسراره» يحاول ان يفسر بطريقة عقلية للاسس التي قامت عليها المدارس السنية الاربع . كما انه يعتبر اول كاتب في العالم الاسلامي كتب كتابا حول تاريخ الصوفية وتراجم رجال الصوفية والذي سماه «تاريخ المشايخ» وقد فقد هذا الكتاب ولكنه وصلت الينا مقتطفات منه من خلال كتاب الصوفية الذين جاءوا من بعده. واشار ماسنيون. كذلك الى ان تعاليم الترمذي قد استمرت لقرون عديدة من خلال مؤلفاته، ويظهر تأثيره بصورة خاصة في الاندلس حيث ان العلامة المتصوف ابن العربي جاء بعده بثلاثة قرون فدرس مؤلفاته وتأثر بها وخاصة كتابه «ختم الولاية» . «٥٤» ولقد قدم لنا بروكلمان

---

(٥٣) Hujwiri, p.p. 141-42

انظر كذلك الشعراني ، ج١ ، ص٩١: طاش كبرى زاده، احمد بن مصطفى الخليل : مفتاح السعادة ومصباح السيادة: حيدر اباد ١٩١٠—١٩٢٧ ، ج٢ ص٣ : السبكي ، تاج الدين عبدالوهاب ، طبقات الشافعية الكبرى، القاهرة ١٩٠٦—١٩٠٥ ، ج٢ ص٢٠ : وانظر :

Massignon, L. Ency., of Islam, 1st ed., art., "Al-Tirmithi"
Nouri, op. cit., F. 7. P.P. 107-110.

(٥٤) Massignon, Essai sur les origines du lexiqu techniques de la mystique muslumane. P.P. 256-259.

قائمة بكتبه الموجودة والمفقودة منها .الموجودة منها هي: (٥٥)

١- ختم الولاية «الاولياء» الذي يعتبر كتابه الجوهري الا ان الفصل الاول من هذا الكتاب موجود في الوقت الحاضر وهو ما يتعلق بفهرست المحتويات.
٢- كتاب علل العبودية.
٣- كتاب الاكياس والمغترين.
٤- رياضة النفس.
٥- جمال كتاب «عثمان بن سعيد» من الري.
٦- بيان الكسب.
٧- الدر المكنون في اسئلة ما كان وما يكون.
٨- نوادر الاصول.
٩- كتاب الفروق.
١٠- شرح الصلاة.
١١- الحق واسراره.
١٢- منازل العباد والعبادة.
١٣- العقل والهوى.
١٤- المنهيات.
١٥- الامثال من الكتاب والسنة.
١٦- ادعية وعزائم.
١٧- رسائل حاكم ترمذي «بالفارسية».
١٨- شرح السوءالات في التعبيرات الالهية.
١٩- ادب النفس.

(٥٥) Brockelmann, C., Geschichte der Arabischen litteratur, supplementbande, Ist. ed. Leiden 1937-42, vol., I. 355-357.

انظر كذلك: Massignon, op. cit., 257 - 258.

ولقد اشار ماسنيون الى اننا من خلال دراستنا لكتب الحاكم الترمذي نجدها مطولة ولكنها غنية بالمعلومات الوثائقية حول الصوفية والفقه وعلم الكلام. ومهما يكن من امره، فاننا نجد، الترمذي ذلك الكاتب المتواضع. اذ يقول حول هذا الصدد: «ما اضفت حرفا عن تدبير ولا ينسب الي شيء منه ولكن كان اذا اشتد علي وقتي اتسلى به» «٥٦».

ومن حكمه: «اذا سكنت الارواح بالسر نطقت الجوارح بالبر» «٥٧».

وقال في الولاية: «الولي ابدا في ستر حاله والكون ناطق بولايته ومدعي الولاية ناطق بولايته والكون كله يكذبه» «٥٨».

وقال في التواضع: «ما استصغرت احدا من المسلمين الا وجدت نقصا في معرفتي وايماني وما منع الناس من الوصول الا لركضهم في الطريق بغير دليل» «٥٩».

وفي القرن الثالث الهجري، ظهرت في خراسان ثلاث شخصيات مهمة في تاريخ التصوف في الشرق الاسلامي وهي ابن حضرويه وحمدون القصار وابو عثمان الحيرى. هؤلاء الثلاثة كونوا مدرسة للتصوف في خراسان تدعى بالملامية او الملامتية. وفي القرن الرابع الهجري تولى ابن منازل «ت ٣٣٠هـ/ ٩٥٥م» زعامة هذه المدرسة في خراسان. والملامتية هم الذين يسترون صلاحهم بامور تتداولها العوام ليست بمخالفات ولا معاص مبالغة في الخفاء والشهرة «٦٠». ومن اقوالهم المشهورة التي تبرهن على وجود افكار المرجئة لوقت

---

(٥٦) الشعراني، ج١ ص٩١: القشيري: ج١ ص١٢٧ .
(٥٧) نفس المصدر، نفس الصفحة .
(٥٨) نفس المصدر، نفس الصفحة .
(٥٩) نفس المصدر، نفس الصفحة .
(٦٠) نفس المصدر ج١ ص١٠٣ .

متأخر قولهم: «الملامتية هي خوف القدرية ورجاء المرجئة» «٦١».

وكان ابو حامد احمد المعروف بابن خضروية اول من اتخذ طريقة الملامتية في التصوف. وصحب ابا تراب النخشبي وحاتما الاصم. وقيل: انه ذهب الى بسطام في قومس حيث تعلم الصوفية على ابي يزيد طيفور البسطامي «ت ٢٣٤هـ/٨٤٨م». ثم جاء الى نيسابور حيث توفي هناك عام ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م «٦٢».

ولقد اشار الهجويري الى انه كتب في مواضع عديدة في التصوف. الا ان مؤلفاته مفقودة. ووصلتنا اقواله وحكمه من خلال كتابات الصوفية من بعده. ومن اقواله: «من احب ان يكون الله معه في جميع الاحوال فليلزم الصدق فان الله مع الصادقين» «٦٣». وقال: «لا نوم اثقل من الغفلة. ولا رق املك من الشهوة ولولا ثقل الغفلة عليك لما ظفرت بك الشهوة» «٦٤».

والشخصية الثانية التي لعبت دورا هاما في نشر تعاليم الملامتية هي ابو صالح حمدون بن احمد القصار، نيسابوري. ومنه انتشر مذهب الملامتية بنيسابور. صحب ابا تراب النخشبي والنصر اباذي. وكان فقيها يذهب مذهب سفيان الثوري وتوفي بنيسابور عام ٢٧١هـ/٨٨٤م. وقيل: انه قد تزعم طائفة من الصوفية سميت بعد وفاته باسمه «القصارية» «٦٥». ومن اقواله: «من نظر في سير السلف.

---

(٦١) Hujwiri, P. 66
الاصبهاني، ج١٠ ص٢٣١.

(٦٢) السلمي، ص٩٣: الشعراني، ج٢ ص٨٢ Hujwiri, P. 119-22

(٦٣) الاصبهاني، ج١٠ ص٤٢: وذكر القشيري في رسالته قال احمد بن خضرويه: «من اراد ان يكون الله تعالى معه فليلزم الصدق: فان الله تعالى قال «ان الله مع الصادقين» سورة البقرة اية ١٥٣: انظر القشيري: ج٢ ص٤٤٨.

(٦٤) نفس المصدر، ج١ ص٩٤.

(٦٥) السلمي، ص١١٤: الشعراني، ج١ ص٨٤: المناوي: ج١ ص٢٢٠ ومابعدها الاصبهاني: ج١ ص٢٣١ ومابعدها:
Hujwiri, P.P. 66, 125-26: Amedroz op. cit. 562, Hartmann, As-Sulami Risalat al-Malanatija, VIII, Dur Islam 1918, P. 190: Smith, Ency. of Islam, art., "Hamdunal-Qassar

عرف تقصيره وتخلف عن درجات الرجال» «٦٦». وقال: «من ظن ان نفسه خير من نفس فرعون، فقد اظهر الكبر» «٦٧» وقال: «قد علمت ان للسلطان فراسة في الاشرار، ما خرج خوف السلطان من قلبي» «٦٨». وقال: «لا تفش على احد ما تحب ان يكون مستورا منك» «٦٩». وقال في الخشوع والتواضع: «التواضع ان لا ترى لاحد على نفسك حاجة. لا في الدنيا ولا في الاخرة» «٧٠».

وقال في التوكل: «تلك درجة لم ابلغها بعد... وكيف يتكلم في التوكل من لم يصح له حال الايمان؟» وقيل: المتوكل كالطفل لا يعرف شيئا يأوى اليه الا ثدي امه، كذلك المتوكل لا يهتدي الا الى ربه تعالى» «٧١». وفي الفقر يقول: «اذا اجتمع ابليس وجنوده لم يفرحوا بشيء كفرحهم بثلاثة اشياء رجل مؤمن قتل مؤمنا ورجل يموت على الكفر، وقلب فيه خوف الفقر» ٧٢

وتولى حركة الملامتية من بعد حمدون القصار ابو عثمان سعيد بن اسماعيل الحيري. وكان من الرى تتلمذ على شاه شجاع الكرماني ويحيى بن معاذ الرازي ثم ورد نيسابور مع شاه الكرماني. وفي هذه المدينة صاحب ابا جعفر الحداد «ت ٢٧٠هـ/٨٨٣م» واصبح من مشايخ المدينة في التصوف وتزعم طائفة الملامتية ومات بنيسابور عام ٢٩٨هـ/٩١٠م» «٧٣». ومن اقواله في الايمان: «لا يكمل ايمان الرجل حتى تستوي في قلبه اربعة اشياء: المنع، والاعطاء. والعز. والذل» «٧٤». وقال في الصحبة:

(٦٦) الشعراني، ج١ ص٨٤ . القشيري، ج١ ص١٠٤ .
(٦٧) نفس المصدر، نفس الصفحة
(٦٨) نفس المصدر، نفس الصفحة .
(٦٩) نفس المصدر، نفس الصفحة .
(٧٠) نفس المصدر، ج١ ص٣٤٧ .
(٧١) نفس المصدر، ج١ ص٣٧٥ .
(٧٢) نفس المصدر، ج٢ ص٥٣٩ .
(٧٣) السلمي، ١٥٩ : المناوي، ج١ ص٢٣٣ ومابعدها: الاصبهاني، ج١٠ من ص٢٤٤ ص٢٤٦: ابن المعادج ٢ ص٢٣٠ . الشعراني، ج١ ص٨٦ وانظر كذلك: Hujwiri, P. 132-34
(٧٤) القشيري، ج١ ص١٠٩ .

« الصحبة مع الله: بحسن الادب، ودوام الهيبة، والمراقبة
والصحبة مع رسول الله. صلى الله عليه وسلم. باتباع سنته، ولزوم ظاهر العلم.
والصحبة مع الاهل: بحسن الخلق.
والصحبة مع الاخوان: بدوام البشر ما لم يكن اثما.
والصحبة مع الجهال: بالدعاء لهم والرحمة عليهم» «٧٥».

وقال ايضا: «من امر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة. ومن امر الهوى على نفسه قولا وفعلا نطق البدعة. قال الله تعالى: وان تطيعوه تهتدوا «٧٦». وقال في الخوف: «عيب الخائف في خوفه السكون الى خوفه، لانه امر خفي» «٧٧». وقال في الحزن: «الحزن بكل وجه فضيلة. وزيادة للمؤمن ما لم يكن بسبب معصية لانه ان لم يوجب تخصيصا فانه يوجب تمحيصا» «٧٨» وقال في الصبر: «الصبار: الذي عود نفسه الهجوم على المكاره» «٧٩» وقال في الاخلاص: «نسيان رؤية الخلق ودوام النظر الى فضل الخالق» «٨٠».

ولقد جمع الصوفي ابو عبد الرحمن السلمي اقوال المشايخ الثلاثة: ابن خضروية وحمدون القصار وابي عثمان الحيري في رسالة سماها «رسالة الملامتية» وفيها تعاليمهم التي تشير الى انهم يؤمنون باتمام الواجبات المناطة اليهم وعدم المطالبة بحقوقهم. كما انهم يؤمنون بحرمان انفسهم من ملذات الحياة وذلك بضبط الارادة والنفس ويحرمون هذه الملذات ولو فرضت عليهم بالقوة. ويؤمنون ايضا. بالصبر والتواضع والاعتذار عند مواجهة الظالم. ومن تعاليمهم ايضا. انهم يؤمنون بعدم اشغال انفسهم بمساوىء الغير

---

(٧٥) نفس المصدر، ج١ص ١١٠ .
(٧٦) نفس المصدر، ج١ص ١١١ : سورة النور ؛ اية ٥٤
(٧٧) نفس المصدر، ج١ص ٣٢٩
(٧٨) نفس المصدر، ج١ص ٣٢٩ .
(٨٩) نفس المصدر، ج١ص ٣٩٩ .
(٨٠) نفس المصدر، ج٢ص ٤٤٦ .

لا نهم مشغولون بمراقبة انفسهم باستمرار والعمل من أجل تحسينها. وتظهر افكار المرجئة في تعاليمهم اذ انهم يعتقدون بأن المشاكل في الحياة الدنيا هي علامة سيئة وحسنة فالسكوت والرضا في تقرير المصير هي علامة مباركة «٨١».
ان هذه الرسالة قد نشرت من قبل المستشرق الالماني هارتمن Hartmann الذي استنتج من خلال دراسته للرسالة بأن الملامتية قد تأثرت بالفلسفة الاغريقية وبصورة خاصة الكلبيون Cynics الذين كانوا يؤمنون بضبط النفس والارادة واحتقار ملذات الحياة الدنيا. وتأثر بهذه المدرسة زينو «٣٤٠–٢٦٥ق.م» صاحب المدرسة الرواقية التي كانت تهتم بالفضيلة في الحياة العملية. والفضيلة في نظرهم السير حسب العقل ومحاربة شهوات الانسان وكانت نظرتهم للحياة تنتهي بالتقشف «٨٢».

ولقد نشر ابو العلا عفيفي الرسالة بعد هارتمن واشار الى ان الملامتية في القرن الثالث الهجري لم يتأثروا بالكلبيين بل ان تأثيرهم قد ظهر على جماعة اخرى من الملامتية والذين ظهروا في فترة متأخرة وان هذه الحركة قد شوهت تعاليم الملامتية الاولين واتبعوا مبادىء تخالف الشريعة الاسلامية. ونعتقد بأن عفيفي ربما قصد بكلامه هذا جماعة «القلندرية» وهي فرقة تابعة للملامتية اشار السهروردي الى انهم مبتدعون واعداء الشريعة «٨٣».

---

(٨١) حول تعاليم الملامتية انظر : ابو العلا عفيفي ، رسالة الملامتية. مجلة كلية الاداب، العدد ٦ القاهرة ١٩٤٢ من ص٤٧ الى ص١٠٤.

Hartmann, op. cit.. P.P. 157-203, Nouri, op. cit., vol. I, P.P. 95-100.

(٨٢) Hartmann, op. cit., P.P. 197-98

حول الكلبية انظر : الموسوعة الفلسفية المختصرة، نقلها عن الانكليزية فؤاد كامل وجلال العشري ، وعبد الرشيد الصادق، القاهرة ١٩٦٣، ص٢٢٨ .

(٨٣) ابو العلا عفيفي ، نفس المصدر ، ص ٥٠ : السهروردي ، شهاب الدين عمر ، عوارف المعارف، القاهرة ١٩٣٩ ، ص٥٦ وما يليها، انظر كذلك : Nouri, op. cit., p. 100

ونستنتج من بحثنا هذا ان المستشرقين وخاصة نكلسون وهارتمن متفقان على ان التصوف في الاسلام ، وخاصة في خراسان قد تأثر بالتعاليم المسيحية . بينما تشير جميع الأدلة البرهانية الى أن تعاليم الصوفية في خراسان نابعة من صميم المبادىء الاسلامية وان التأثير الوحيد الملموس ، بالنسبة للفكر الصوفي . هو مبادىء المرجئة . وهذه من الفرق الدينية التي نشات في العصر الاموي وهي ضئيلة الشأن وقد امنت بالارجاء في اصدار الحكم على المؤمنين الذين يرتكبون الكبائر كالخلفاء والحكام . من قبل الله . واكتسبوا بذلك مزيدا من التساهل في الامور من قبل حكامهم . وذكرنا في بحثنا هذا كيف ان تعاليم المرجئة قد تأثر بها الصوفي يحيى بن معاذ الرازي الذي اسهم اسهاما كبيرا في نشر تعاليم الصوفية من خلال خطبه والحلقات التي عقدها . كما ان تأثير المرجئة يبدوا ظاهرا في فترة متأخرة في القرن الثالث الهجري وذلك عن طريق تعاليم مريدي طريقة الملامتية . وقد اسهم الحاكم الترمذي من خلال كتاباته الغزيرة والتي تعتبر مع تعاليم الملامتية اساسا للفكر الصوفي في القرن الثالث الهجري في خراسان . ولا يسعنا في التدليل على اصالة التصوف في الاسلام الا ان نشير الى قول ابن خلدون حول علم التصوف : « هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة واصله ان طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الامة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية . واصلها العكوف على العبادة والانقطاع الى الله تعالى والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة مال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عاما على الصحابة والسلف . فلما فشا الاقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده جنح الناس الى مخالطة الدنيا واختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية . » «٨٤» .

ويتضح من قول ابن خلدون ان التصوف حادث في الملة الاسلامية وليس هو

---

(٨٤) ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، طبع بالاوفست بمكتبة المثنى ببغداد ، ص٤٦٧ .

من العلوم الطارئة في تاريخ الاسلام وجاء نتيجة تفاعل عقائد وعادات طوائف دينية استظلت بظل الاسلام ومبادئه. بل هو سلوك اتخذه الصحابة والتابعون ومن بعدهم .الى ان نشأ في الناس الاقبال على الدنيا . وجنحوا الى مخالطة اهلها فاختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية .والمتصوفة واعلام الصوفية في خراسان ماهم الا تلاميذ للمسلمين الاوائل حافظوا على اصالة الاسلام من اية شائبة .

